ما بعد الطلاق

obeikandl.com

هذه الترجمة الكاملة لرواية
Dopo il divorzio
Grazia Deledda

ما بعد الطلاق
جراتسيا ديليدا

ترجمة / مصطفي الشخب
إشراف ترجمة / خالد طوبار
رسم، تصميم الغلاف وإخراج داخلي/ بسمة بهاء

سلسلة من كل بلد كتاب - رواية من إيطاليا
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٥
رقم الإيداع:- ٢٠١٤/٥٠٥٢
ISBN : 978-977-6299-58-9

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

Questo libro e´ stato tradotto grazie ad un contributo alla traduzione assegnato dai Ministero degli Affari esteri.

تم ترجمة الكتاب بفضل مساهمة في الترجمة المهداه من وزارة الخارجية الإيطالية.

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل علي أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخري بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

Sphinx Agency©2015

ما بعد الطلاق

obeikandl.com

obeikandl.com

نبذة عن المترجم

وُلد مصطفى أحمد محمد الشخب عام ١٩٨٩ في محافظة الشرقية بجمهورية مصر العربية, وتخرج عام ٢٠١٠ من كلية الألسن بجامعة عين شمس بأعلى التقديرات. أظهر خلال سنوات دراسته حبًا للغات والترجمة, وقام دائمًا بالاطلاع على الأعمال الأجنبية لكبار الكتاب والروائيين والشعراء الإيطاليين والإنجليز, وله قراءات في هذا المجال ودراسات مقارنة في هذا الصدد. يعمل الأستاذ/ مصطفي مترجمًا تحريريًا وفوريًا وتتبعيًا وأستاذ لغة إيطالية وترجمة ولغة عربية للأجانب, وله أعمال روائية وسياسية واجتماعية وغيرها مع العديد من دور النشر ومنها هذه الرواية التي ترجمها عن الإيطالية للروائية جراتسيا داليدا بعنوان "ما بعد الطلاق". وما زال يمضي قُدمًا في هذا المجال ويصدر أعمالاً أخرى.

الجزء الأول

obeikandl.com

الفصل الأول

عام ١٩٠٤- منزل عائلة بورو، في غرفة المسافرين جلست سيدة على الأرض تبكي بجوار الفراش وقد وضعت ذراعيها على ركبتيها المرفوعتين وأسندت عليهما جبهتها، كانت تبكي وهي تهز رأسها كأنها تريد أن تقول "لست موجودة بهذا العالم، فلم يعد هناك أمل يرتجى فيه"، وراح كتفاها المُستديران وظهرها الرشيق المُغطى بفستان ضيق من القماش الأصفر- يهتزان علوّا وهبوطًا كالموج.

بدأ الظلام يُخيم حول السيدة في الغرفة التي لم يكن بها نوافذ، فقط باب مفتوح يطل على قوس معماري من الطوب في خلفيته تظهر السماء رمادية اللون حيث كانت تظلم هي الأخرى رويدًا رويدًا، وسط هذا الظلام الزاحف من بعيد لمعت نجمة صفراء صغيرة، وفي فناء المنزل كانت الصراصير تصدر صريرها، فضلًا عن صوت حوافر حصان تدق على الأرض الحجرية من آن لآخر.

ظهرت بالباب سيدة قصيرة وبدينة ترتدي الزي المميز لأهالي مدينة نوورو، ويبدو على وجهها آثار تقدم العمر والسمنة معًا، تحمل في يدها شمعدان من الحديد ذو أربعة أفرع ثُبتت في أحدها مصباح جازولين مضاء، وقالت بصوت غليظ أجش:

- جوفانا إيرا؟! ماذا تفعلين هنا في هذا الظلام؟ أخبريني ماذا تفعلين في الظلام ها هنا؟ يبدو أنكِ تبكين، لقد جُننتِ! أجل أعتقد أنك جُننتِ!

فيما بدأت السيدة الأخرى في النحيب بصوت مرتفع، مما دفع السيدة البدينة إلى أن تقترب منها وتقول وهي منزعجة ومندهشة:

- أجل أجل، إنكِ بالفعل تبكين كما قلتُ، ولكن لما تبكين؟ إن والدتك تنتظرك بالأسفل وأنتِ هنا تبكين؟ يالك من بلهاء!

لكنها واصلت البكاء بصوت أعلى، فقامت السيدة السمينة بتعليق المصباح على مسمار طويل مثبت في الحائط، ونظرت حولها ثم راحت تدور حول السيدة الباكية محاولة إيجاد كلمات لتهدئتها لكن لم تجد ما تقوله لها إلا..

- أنتِ حقًا بلهاء يا جوفانا، بلهاء!

غرفة المسافرين - كما كان يُطلق عليها في مدينة نوورو والتي كانت العائلات قديمًا تخصصها للزائرين من الأصدقاء القادمين من البلدان المجاورة- هي غرفة بيضاء متسعة وبسيطة في نفس الوقت، مزودة بفراش خشبي ومنضدة صغيرة مغطاة بمفرش من قماش البركال القطني ومزينة بأكواب وفناجين زجاجية ومُعلق على جدران الغرفة عدد كبير من اللوحات تكاد أن تصل إلى السقف المصنوع من الخشب غير المدهون، كما كان يتدلى من السقف ذاته عناقيد عنب ذابل وثمار كمثرى صفراء والتي كان يفوح منها عبير خفيف، فيما أُلقت على الأرض بعض أكياس من الصوف بعضها منتفخ عن آخره وبعضها ليس ممتلأ كثيرًا.

التقطت السيدة البدينة صاحبة المنزل واحدًا من تلك الأكياس ورفعته لأعلى ثم ألقت به إلى الأرض مرة أخرى، وقالت وهي تنهج بسبب المجهود الذي بذلته:

- فلتكفي عن هذا، ماذا بيدك لتفعليه؟ ينبغي ألا تيأسي، إن كان المدعي العام قد طال بتوقيع عقوبة الأشغال الشاقة فهذا لايعني أن القضاة سيكونون كلابًا مسعورة مثله.

فيما استمرت السيدة الأخرى في البكاء وهي تهز رأسها وفي نحيبها صرخت:

- لا لا لا.

- بل هو كما أقول لكِ، إنهضي وإلا استدعيت والدتك.

فصاحت بها العجوز وانقضت عليها لترفع رأسها عنوة، فظهر وجه جميل مستدير به حمرة، محاط بشعر أسود كثيف أشعث، وعيناها السوداوين لا معتين ومنتفختين من أثر البكاء وحاجبين كثيفين وغير مهذبين متصلين.صاحت جوفانا في غضب:

- لالا، دعيني أبكي مصيري التعيس يا عمتي بوريدا...

- أى مصير هذا، هيا انهضي!

- لن أنهض، قلت لك لن أنهض؛ سيحكموا عليه بالسجن بما لايقل عن ثلاثين عامًا، ألا تفهموا ماذا تعني ثلاثين عامًا؟

- سنرى ما إذا كان ذلك سيحدث أم لا، ثم أنه ماذا يعني ثلاثون عامًا؟ ألا ترين أنك تهولين الأمور؟

فصرخت جوفانّا، وشدّت شعرها واجتاحت موجة يأس عارمة جنبات صدرها فصاحت قائلة:

- ثلاثون عامًا؟! أتسألينى ماذا تعني ثلاثون عامًا؟! إنه عُمر كامل لرجل يا عمة بوريدا، يبدو أنكِ لم تستوعبي هذه المأساة إطلاقًا، فلتذهبي وتتركيني وحدي، اتركيني بحق المسيح.

قالت العمة بوريدا:

- تبًا! أنا لن أنصرف؛ فأنا في منزلي، هيا انهضي أيتها اللعينة وكُفّي عن النواح حتى لا تُرهقي، وانتظري الغد كي تمزقي شعرك فزوجك لم يحكم عليه إلى الآن بالأشغال الشاقة المؤبدة.

فخفضت جوفانّا رأسها وواصلت البكاء بشكل هادئ ومؤلم يدمي القلب، وراحت تنوح كنواح النساء أمام المتوفي:

- آه يا قسطنطينو يا حبيبي آه، لقد ضحيت بنفسك من أجلي، لن أراك ثانيةً للأبد، لقد أخذتك تلك الكلاب المسعورة وقيدوك ولن يتركوك أبدًا، منزلنا سيصبح مهجورًا، وفراشنا سيصبح باردًا، وستتشرد العائلة، آه يا حبيبي، يا زوجي الطيب، لقد غبت عن العالم.. يا ليت من سجنوك هم من ماتوا بدلًا منك.

تأثرت العمة بوريدا أمام تأوهات جوفانا، لكن لم يكن في استطاعتها فعل شيء إلا أنها خرجت إلى الشرفة، وصاحت قائلة: "تعالِ إلى هنا يا باكيزيا إيرا فابنتك تكاد تفقد عقلها"

سُمع وقع أقدام على درج السلم، ثم دخلت العمة وتبعتها سيدة طويلة، يعلو الحزن وجهها، ترتدي ملابس سوداء، غطت رأسها كذلك بعُصابة سوداء، ويظهر تحت هذه العصابة وجه شاحب كأنه وجه طائر جارح، ذو عينين ضيقتين وخضراوين، يلمعان ويغوصان تحت حاجبين سودوين ينمّان عن شراسة، ومُحاطان بهالات داكنة.

هدأت الابنه فقط لحضور هذه السيدة، وقالت لها بصوت أجش: "انهضي!"

نهضت جوفانا، وظهر طول قامتها، ورغم امتلاء جسدها، إلا أنها كانت رشيقة، وكان جنبيها رائعين وظهر من تحت ملابسها سروال داخلي مطرز بقماش أخضر، لكنه قصير بما يكفي ليكشف عن قدميها الصغيرتين، اللتين ارتدت فيهما حذاء مطاطي طويل، ينتهي مع بداية ساقين مثاليتين.

وسألتها والدتها "لماذا تزعجين هؤلاء الآناس الطيبين، هيا كفي عن البكاء وانزلي للطابق السفلي لتناول العشاء، وإياك أن تفزعي الأطفال ببكائك، وتكدري بهجة هذه العائلة.

وكانت البهجة يشعر بها الناس بسبب عودة فترة العطلة، حيث تزامن ذلك مع عودة ابنهم الشاب الذي يدرس الحقوق، والذي وصل لتوه في تلك الليلة.

بدا أن جوفانا قد فهمت ما تقصده أمها فهدأت، وانتزعت منديلاً من الصوف كان يغطي رأسها فكشفت عن عن موجات من شعر شديد السواد ينساب من تحت غطاء رأس مخملي قديم، ثم ذهبت للاستحمام بماء حوض وُضع فوق مقعد. نظرت العمة بوريدا إلى العمة باكيزيا وهي تضم شفتيها، مشيرة إليها بإبهام وسبابة يدها اليمنى وأشارت إليها لتصمت، وخرجت دون إحداث ضوضاء.

أزعنت باكيزيا لرغبة بوريدا ولم تقل شيئًا، وانتظرت في صمت حتى انتهت جوفانا من الاستحمام وإعداد نفسها، ونزل الاثنان في هدوء درج السلم الخارجي، وكان الليل قد حل، ليل هادئ ودافئ وحالك، ومع أول نجمة صغيرة صفراء لمعت تبعتها في الظهور ألاف من النجوم الفضية، ثم بدت مجرة

درب التبانة كوشاح كبير مطرز باللآلئ، كما فاحت بقوة رائحة التبن الجاف. في فناء المنزل غنت الصراصير وهي مختبئة في العرائش، فيما يقف الجواد متأملًا يضرب الأرض بحوافره القوية من حين لآخر، ويأتي من بعيد صوت أغنية حزينة.

يطل كل من المطبخ وغرفة أخرى في الطابق الأرضي - تستخدم أيضًا كغرفة طعام- على فناء المنزل وبالصدفة كانت أبواب كل منهما مفتوحة، وفي المطبخ ظهرت العمة بوريدا إلى جوار الموقد المشتعل وهي تعد المكرونة بعناية، وإلى جوارها طفلة شقراء حافية القدمين، ترتدي فستانًا أسودًا أنيقًا، وقد تشعث شعرها حيث كانت تتشاجر مع طفل يرتدي بدلة، وكان سمينًا للغاية وذو بشرة حمراء تمامًا كجدته، حيث انهالت عليه الفتاة بالسباب بكل الشتائم وهي في شدة الغضب، بينما حاول هو قرص ساقها.

صاحت بوريدا في وجههما: "كُفّا عما تفعلانه! ألا تريدان الكف عن هذا العبث أيها الأشقياء؟" فقال لها الصبي:

"يا أم بورو هذه البنت تسبّني، وتقول لي أنني ابن الشيطان".

فأجابته الجدة وهي تقلب المكرونة دون أن تلتفت:

- بل أنتِ يا مينيا، أنت من ستدخلي جهنم وتحترقين فيها وأنت حية.

- إنه يقرصني يا جدتي بورو، آه آه!.. انظري كيف يقرصني!! يا إلهي اسلخ جلد هذا اللعين، لو تمكنت منك لصفعتك بعدد شعر رأسك..

- مينيا، ما هذا الكلام؟!

فواصلت الطفلة حديثها مرة أخرى:

- لقد سرق مني المحفظة التي أحضرها لي عمي باولو، والتي كان البابا قد باركها.

صاح الطفل:

- غير صحيح، لا تضطريني للكلام يا مينيا، فإذا تحدثنا عن السرقة...

صمتت الطفلة مينيا وكأن سحرًا أصابها، لكن الصبي لم يلبث أن التقط عصا بمقبض منحني وشبكها بساق مينيا، التي انفجرت في البكاء، فالتفتت لهما الجدة وبيدها المغرفة.

- ما سيحدث الآن هو أنني سأضربكما بهذه المغرفة أيها الأطفال الأشقياء، انتظرا انتظرا..

وطاردتهما فهربا إلى الفناء، واصطدما بجوفانا وأمها.

- ما الأمر؟ ما الأمر؟!

فقالت الجدة بوريدا وهي تقف على باب المطبخ:

- لم أعد أجد ما أفعله مع هؤلاء الأطفال الملاعين.

ظهرت عندئذٍ من الباب الموارب فتاة سمراء، وقالت بصوت متأثر:

- وها هما قد عادا يا جدتي.

- اتركيهما يعودوا، ليتكِ يا جراتسيا تنتبهي لأخوتك الذين لا يكفوا عن الشجار فيما بينهما كالكتاكيت.

لم تجبها جراتسيا، وتمهلت قليلًا قبل أن تأخذ من يد العمة باكيزيا مصباحًا معدنيًا، وأطفأته وأخفته خلف منضدة المطبخ، وقالت بصوت منخفض:

- لكم أن تخجلوا من هذه المصابيح القديمة، فالعم باولو عندنا الآن.

- وماذا يعني العم باولو؟ أتظنين أنه نشأ وسط الذهب؟

- إنه قادم من روما...

- كلا، لاتوجد مثل هذه المصابيح في روما، لأنهم يدفعون المال لشرائها بينما نحن جرارنا مليئة بها.

- أنتم موهومون إن ظننتم ذلك.

قالت الطفلة هذه العبارة وراحت تقفز في فناء المنزل ونبض قلبها بقوة عند سماع صوت الجد والعم، فقال الطالب بصوت هادئ:

- مرحبًا بكِ يا جوفانا وبالعمة باكيزيا، كيف حالكما؟ أنا بخير والحمد لله، لقد حزنت كثيرًا بسبب المصيبة التي تعرضتم لها، لكن تشجعي، من يدري لعل الأمور تسير على نحو جيد، سيصدر الحكم غدًا أليس كذلك؟

دخل العم الطالب الغرفة التي أُعدت فيها مائدة الطعام، وتبعته النساء والأطفال الذين أسعدهم حضوره وأخافهم في نفس الوقت.

وكان العم الطالب أعرجًا منذ صغره حيث أن له قدمًا أقصر وساقًا أقصربعض الشئ من الأخرى، لذا كانو ينادونه بالدكتور "بييدينو - أى القدم الصغيرة"، إلا أنه لم يكن ينزعج كثيرًا من هذه التسمية، وكان يقول إن معاناته من قدم أقصر من القدم الأخرى أهون من أن يعاني من عقل أصغر من عقول الآخرين.

ويتمتع العم باولو بوجه وردي مستدير وصغير، وتلمع ابتسامته من تحت شارب صغيرمائل للصفرة ويرتدي قبعة متهالكة، ويبرر ذلك بأنه اشتراكي.

دخل باولو الغرفة وجلس على الفراش حيث لم تطل قدميه الأرض، وجذب إلى جواره ابن وابنة أخيه وأجلسهما على الفراش فيما راح الاثنين ينظران إليه بأفواه مفتوحة، وضمهما إليه بقوة أثناء إنصاته للقصة المأساوية التي تقصها العمة باكيزيا، لكنه كان ينظر إلى جراتسيا، التي كانت لها صورة ملائكية وهي في عمر الثالثة عشر لكنها أصبحت قديمة وتشوه منظرها ليضيف قبحًا لقبح الفستان الأسود الضيق الذي كانت ترتديه في الصورة، إلا أن الملفت هي نظراتها المتحدية والطامعة التي كانت توجهها لخالها باولو على الرغم من أن عينيها صافيتان ولامعتان.

وكانت العمة باكيزيا بصوتها الأجش تقول:

- ما حدث هو كالآتي، كان لقسطنطينو ليدا عم يدعى بازيل ليدا، ويلقب بالنسر، رحمه الله، إن لم يكن الآن في الجحيم، وذلك لجشعة وطمعه في المال، سامحه الله، كان شديد الجشع، يكفي أن أخبرك بأنه ترك زوجته تموت جوعًا، وأصبح هذا العم الجشع وصيًا قانونيًا على قسطنطينو عندما كان طفلًا، وكان يمتلك بعض الأموال، إلا أن عمه استحوذ على كل أمواله، ثم ضربه وربطه في حجرين في حقل، وتركه تحت أشعة الشمس يعاني من لدغات النحل التي طالت كل جزء في جسده حتى عينه. وذات يوم هرب قسطنطينو من المنزل، وكان عمره ستة عشر عامًا، وظل لثلاث سنوات يعمل في المناجم، لست متأكدة من ذلك لكنه هو من يقول ذلك.

فانفجرت جوفانا باكية:
- أجل أجل لقد كان يعمل في المناجم.
قالت الأم وهي تلوي شفتيها دلالة على التشكك:
- لا أدري
ثم تابعت حديثها..
- ما حدث بعد ذلك هو أن العم بازيلي المُسمى بالنسر تعرض لإطلاق نار بينما كان في الحقل، وذلك خلال فترة غياب قسطنطينو عنه، وعندما عاد قسطنطينو اعترف بأنه هرب من المنزل ليقاوم رغبته الشديدة في قتل عمه الذي كرهه من كل قلبه، وكان الشاب في ذلك الوقت يحاول أن يصطلح مع عمه الشرير، و.. باولو بورو..

صاح الطفل الصغير:
دكتور بورو، دكتور بيديدو..

فنظر له بورو وهو يعتدل ونظر إليه في غضب، وهم أن يصفعه صفعة خفيفة، فراحت جوفانا تضحك، وعندما رأت جراتسيا ضيفتها جوفانا تضحك رغم أن زوجها لايزال مسجونًا، ورغم ما يحيط بها من أجواء رومانسية، بل حزينة تركت آثارها على شحوب بشرتها وضعف جسدها، عندما رأت جراتسيا هذا ضحكت هي الأخرى بشدة ثم انتقلت عدوى الضحك إلى مينيا، وشاركهما الضحك الفلاح الصغير والعم الطالب أيضًا، حتى نظرت لهم العمة باكيزيا بعينين تلمعان من الفرحة وتساءلت لماذا يضحكون؟ هل جنّوا؟ ثم رفعت يدها النحيفة الشاحبة وبينما كانت متحيرة في توجيه الصفعة إلى ابنتها أم إلى الطفل، ظهرت بوريدا ومعها المكرونة الساخنة.

وتبع بوريدا العم إيفيس ماريا بورو، وهو رجل ضخم الجسم قوس البنية، تبرز سترته المخملية الضيقة عن قوة صدره، وكان يتصنع الثقافة رغم أنه في حقيقة الأمر كان مزارعًا. وجهه الرمادي يبدو وكأنه قطعة من الرخام العتيق، يتميز بلحية قصيرة مجعدة وشفتين سميكتين لفم مفتوح، وعينين كبيرتين صافيتين.

قالت بوريدا وهي تضع طبقًا بقوة في وسط المائدة:

- هيا أسرعوا إلى المائدة، آها أنتم تضحكون؟ أيضحككم هذا الطبيب الصغير؟

فردت عليها باكيزيا:

- أنا على وشك أن أصفع ابن أخيك هذا.

- لماذا يا روحي؟ هيا هيا هلموا جميعًاإلى الطعام، هيا يا جوفانا، دكتور بوريدو هيا إلى هنا.

استلقى الطالب باولو على الفراش ومدد ذراعيه ورفع ساقيه في الهواء وخفضهما مرة أخرى، ثم هب واقفًا وهو يتثاءب، فواصلت جوفانا والأطفال الضحك، فقال لهم باولو:

- لعل بعض التمارين الرياضية تكون مفيدة الآن، يا إلهي كيف سأنام هذه الليلة أشعر أن جميع عظامي مفككة، كم كبرتِ يا جراتسيا يا حبيبتي تبدين كالحائط.

فتورد وجه الفتاة خجلًا وخفضت عينيها في الأرض، فيما مدت باكيزيا فمها إلى الأمام، في تعجب وخجل في نفس الوقت لأنها تعرف أن باولو يفكر في شئ أخر غير القصة التي روتها له، ولأن جميع الضيوف لايلقون بالًا للكارثة التي تورط فيها قسطنطينو، كذلك بدت جوفانا أيضًا وكأنها

تناست هذه المصيبة، لم تتذكر إلا عندما وضعت بوريدا أمامها طبقًا كبيرًا من المكرونة ذات اللون الوردي التي تنبعث منها رائحة الصلصة، فأظلم وجه جوفانا من الحزن ورفضت تناول الطعام، فتعجبت بوريدا مندهشة:

- قلت لكم قبل ذلك، لقد جُنّت جوفانا، حقًا لقد جُنّت، لماذا لا تأكلين الآن؟ ما علاقة الطعام بالحكم الذي سيصدر غدًا؟

وقالت باكيزيا بشيء من الحدّة:

- فلتتركينا، ولا تستمري في حماقتك هذه، لا تفسدي فرحة هؤلاء الناس الطيبين.

ووضع العم إيفيس ماريا منديل السفرة تحت ذقنه وأطلق عبارته الأدبية.

- القلب القوي يواجه مصيره، هكذا قال دانتي أليجيري، تشجعي يا جوفانا إيرا، اظهري أنكِ كزهرة جبلية تفوق قوتها قوة الصخور، فالوقت كفيل بحل جميع المشاكل.

بدأت جوفانا تأكل، ولكنها كانت تشعر بغصة في حلقها تمنعها من ابتلاع حتى السوائل. وفي هذه الأثناء كان باولو صامتًا منكبًا على طبقه الذي أصبح خاليًا تمامًا من الطعام، في حين أن جوفانا كانت تبتلع أول حبة مكرونة، قالت بوريدا:

- يا بني ، أنت تأكل بسرعة الصاروخ، لابد وأنك كنت تشعر بجوع قاتل، أتريد المزيد من الطعام؟ هكذا؟ أتريد المزيد؟

فقال العم إيفيس:

- أحسنت، يبدو أنك لم تر طعامًا قط في روما.

فأكدت بوريدا:

- لقد قلت ذلك من قبل، ففي روما توجد أماكن جميلة، لكن كل شيء فيها يباع بأسعار باهظة، لقد سمعته يقول ذات يوم، إن المنازل في روما لايوجد بها مؤن كما نفعل نحن بتخزين بعضها في منازلنا، وكما تعرفون فإنه عندما تنقص المؤن من المنزل يصبح ساكنوه جوعى بصفة مستمرة.

أومأت باكيزيا، لأنها للأسف تعرف ماذا يعني منزل دون مؤن، وسألت:

- هل هذا صحيح أم خطأ يا دكتور بوريدو؟

- أجل صحيح.

قالها وهو يأكل وضحك ويحرك يديه العريضتين ذات اللون الأبيض والأظافر الطويلة للغاية.

وأضاف إيفيس ماريا موجهًا كلامه للضيوف:

- هكذا أصبح هذا الولد مصاصًا للدماء، لم يدع لي قطرة دم واحدة في عروقي، هذا الشيطان يأكل المال في روما!

تنهد باولو وقال:

- أتدرون، كل شيء باهظ الثمن في روما، حتى أن سعر ثمرة الخوخ الواحدة قد يبلغ عشرين سنتًا، أنا الآن بخير وأنا بعيد عن هذه المدينة.

فقال الجميع في صوت واحد "عشرين سنتًا!".

وعاد باولو ليسأل باكيزيا:

- على كل حال يا عمة، متى عاد قسطنطينو؟

- في الواقع يا باولو بورو.. ما هذا أنا لازلت أحدثك دون ألقاب، على الرغم من أنك بعد فترة ليست بالطويلة ستصبح طبيبًا، وهذا لأنك عندما كنت صغيرًا كنت أضربك كثيرًا على قفاك..

- لاأتذكر ذلك، فلتكملو حديثكم.

قالها باولو، بينما كانت جراتسيا تحترق غضبًا:

- على كل حال، كنت أقول لك أنه لم يتبق أمام قسطنطينو سوى ثلاثة سنوات، ثم ...

- لقد كان يعمل في المناجم، وعاد بعد فترة وتصالح مع عمه.

- وكما ترى جوفانا، تلك الفتاة البريئة كانت تحب قسطنطينو كثيرًا، إلا أن العم لم يكن يرضى بذلك، لأن جوفانا فقيرة، حتى بدأت الكراهية تدب بين الزوجين وكان العم "النسر" لا يعطي قسطنطينو مليمًا واحد مقابل عمله لديه، وقتها حضر قسطنطينو إليّ وقال لي "أنا فقير، ولا أملك المال كي أشتري "شبكة" عروستي، ولإقامة حفل زفاف، وإعداد الولائم المعروفة عن حفلات الزفاف على الطريقة المسيحية، وأنتم كذلك فقراء، إذًا فما سيحدث كالتالي، أتزوج جوفانا في مصلحة الأحوال المدنية فقط على الأقل لفترة مؤقتة، ثم نعمل أنا وهي سويًا ونجمع المال اللازم لحفل الزفاف لنتزوج في الكنيسة".

وحيث أن هذه الطريقة تكررت كثيرًا في مجتمعنا، فقد فعلنا ذلك نحن أيضًا، وتم الزواج في مصلحة الأحوال المدنية فقط في هدوء، وعاشا في وفاق، إلا أن العم النسر كاد يشتعل غضبًا، حتى أنه جاء إلى شارعنا وأخذ يصيح، ويستفز قسطنطينو، بينما نحن واصلنا سعينا لإقامة العرس.

وبعد الموسم الماضي لجني العنب، وبينما كنا نجهز الحلوى لإقامة الزفاف، عُثر على بازيلي ليدا مقتولًا في منزله، فيما شوهد قسطنطينو يدخل عنده في الليلة السابقة لمقتله، فقد كان ذاهبًا إليه كي يعلمه ويدعوه إلى حفل الزفاف ويطلب مصالحته أيضًا، ياله من شاب مسكين.. لم يرض أن يهرب كما طلبت منه أنا، حتى أُلقي القبض عليه.

- لأنه كان بريئًا، يا إلهي..

- هـا قـد عـادت هـذه الحمقـاء لبكائهـا، إن لم تكفّـي فلـن أنطق بحـرف واحـدًا، عـلى كل حـال فقـد ألقـوا القبـض عـلى قسـطنطينو وتنظـر المحكمـة في هـذه الأيـام في قضيتـه، وقـد طلـب النائـب العـام مـن المحكمـة الحكـم عليـه بالأشـغال الشـاقة المؤبـدة، لكنني أتعجـب مـن هـذا النائـب الكلـب، صحيـح أن هنـاك بعـض الدلائـل التـي قـد تشـير إلى ارتكابـه للجريمـة، فقـد شـوهد قسـطنطينو وهـو يدخـل ليـلًا إلى منـزل عمـه الـذي يسـكن وحيـدًا كالعصفـور الجبـلي، وصحيـح أنـه كانـت هنـاك خلافـات قديمـه بينهـما، كل هذا صحيـح، لكـن ليـس هنـاك أدلـة دامغـة عـلى تـورط قسـطنطينو في هـذه الجريمـة، لقـد بـدا التناقـض والنـدم عـلى حديـث قسـطنطينو، فقـد كان يـردد هـذه الكلـمات "إنـه الذئـب القاتـل" لأنـه كان مسـيحيًا متدينًـا، ويعتقـد بـأن مـا أصابـه مـن مصائـب لأنـه عـاش مـع جوفانـا قبـل أن يتزوجـا عـلى الطريقـة الدينيـة في الكنيسـة.

- لكن أود أن أعرف شيئًا..

- انتظـر، أضـف إلى معلوماتـك أنهـما تزوجـا في الكنيسـة، ثـم أودع في السـجن، أجـل السـجن، يالـه مـن أمـر فظيـع، لاتبـكي ثانيـة يـا جوفانـا، وإلا قذفـت هـذه المملحـة في وجهـك، هـا قـد حـدث مـا نخشـاه أيتهـا البلهـاء، لقـد كان الجميـع ينصحونـك بـألا تتزوجيـه، فلـو كان مذنبًـا، سـيصدر حكـمًا بحقـة وتسـتطيعين أنـتٍ الـزواج بغـيره.

- يالكم من حقراء!

هكـذا صاحـت جوفانـا، بعينـين ملتهبتـين مـن البـكاء، إلا أن نظـرة حـادة مـن أمهـا أعادتهـا لصمتهـا مـرة أخـرى.

فتدخلت باكيزيا بسؤالها:

- هـل أنـا مـن نصحتـك بذلـك؟ لا، بـل كان الآخـرون هـم مـن نصحـوكِ بهـذا، وكان ذلـك بدافـع حرصهـم عـلى مصلحتـك.

- مصلحتي مصلحتي، لقد انتهت مصلحتي انتهت انتهت!!

قالت جوفانا ذلك وهي تبكي وتخفي وجهها بين يديها.
فبادرها باولو بسؤال:
- ألديكم أطفال؟
- أجل، لدينا طفل واحد، ولولاه لكانت حياتي جحيمًا، فإذا أُدين قسطنطينو ولم أنجب منه لكانت حياتي تحولت إلى ويلات.
كانت جوفانا تقول ذلك وهي تدخل أصابعها في شعر رأسها ما فوق جبهتها وترج رأسها كالمجنونة.
فسألتها أمها بسخرية:
- هل ستقتلين نفسك يا حبيبتي؟

فيما لاحظ باولو شيئًا من تصنّع الحزن في تصرفات جوفانا.
ووصفها بالممثلة القديرة، كممثلة لعبت دورًا في مسرحية فرنسية، حتى أن بعض كلمات الشك خرجت من فمه، أمام ما تعانية جوفانا من تألم وحسرة.
- على كل حال، فقد تم إقرار قانون الطلاق، ويمكن للمرأه التي يُدان زوجها في جريمة ما أن تحصل على حريتها بالطلاق.

بدت جوفانا وكأنها لا تفهم ما قاله باولو، واستمرت في هز رأسها وهي بين يديها، إلا أن الرد جاء من العمة بوريدا، التي قالت بكل اقتناع:
- يالك من أحمق! لايستطيع أحدًا مهمًا كان أن يفك رباط الزواج المقدس.
وقال إيفيس بلهجة لاتخلو من السخرية:
- أجل، لقد سمعت أنهم في قارة ما يطبقون قانون الطلاق هذا، حيث أن الرجال والنساء هناك يتزوجون عدة مرات دون الحاجة إلى قسيس أو عمدة بلدة، لكن هنا، لا أدري..

فصححت له جراتسيا:
- لا أيها العم، ليست قارة إن ذلك يحدث في تركيا.
- وهنا أيضًا، وهنا أيضًا.
كررتها باكيزيا التي يبدو وأنها أدركت أبعاد المشكلة جيدًا.

بمجرد أن تناولوا العشاء خرجت نساء عائلة إيرا للذهاب إلى المحامي.
سأل باولو:
- أين سينامون؟ في غرفة الضيوف؟
- بالطبع، لماذا تسأل؟
- لأنني كنت أود أن أنام أنا في الأعلى؛ فالطقس هنا خانق، ثم أي ضيف هذا الذي تفضلونه عليّ؟
- تمهل إلى الغد يا بني الصغير، فهن ضيفات مسكينات.
- يا إلهي، يالها من عادات سيئة، متى سنتخلص منها؟!
فأجابه إيفيس، الذي كان يقرأ الجريدة:
- أتساءل أنا أيضًا عن ذلك، هؤلاء السيدات يزعجوني جدًا، على أي حال، ما رأيك في الوزير الجديد؟
- لا تعنيني هذه الأمور.
قالها باولو ضاحكًا، حيث تذكر شخصية دام شيز ماكسيم في مسرحية هابيتو من تأليف مانزوني، ثم ذهب لتصفح بعض الكتب التي وضعها بركن في آخر الغرفة، وكانت مينيا وأخيها قد خرجا إلى الفناء، فيما جلست جراتسيا أمام منضدة، وأسندت وجنتيها إلى قبضتي يدها، وهي تُحدق في العم، حتى توجه لها:
- أنتِ تقرأين روايات، أليس كذلك؟
- أنا؟ لا.
قالت ذلك وقد احمرّ وجهها خجلًا، فرد عليها:

- وأنا أحذرك، إن وجدتك تقرأين هذه الكتب، سألقها فوق رأسك..

ارتعشت شفتيها، ولكي تخفي بكائها نهضت وخرجت من الغرفة، وكانت تسمع أشقائها الصغار يتشاجرون بسبب حافظة النقود التي حدثهما عنها الوالد، وكان الطفل يقول لها:

- لاتتحدثين أنتِ عن السرقة، لأنكِ ذهبتي برفقة هذه الماكرة اليوم، وقمتما ببيع بعض النبيذ واحتفظتما بالنقود..

- يالك من كذاب!

قالتها جراتسيا بعد أن انقضت عليه، لتضربه وهي تبكي بكاءً مريرًا.

في تلك الأثناء كان يسمع صوت الصراصير، والفرس لايزال يضرب بحوافره على الأرض، والنجوم تغمر المكان بضياء خفيف يحتضن أرض الفناء الدافئ الذي تنتشر فيه رائحة التبن الجاف.

قالت العمة بوريدا مدافعة عن جراتسيا:

- إنها يتيمة مسكينة، فلاتسئ معاملتها، وإذا أرادت قراءة هذه الكتب، فلتدعها تقرأ.

وهؤلاء الأطفال الثلاثة، هم أحفاد بورو من ابنه الأكبر، والذي كان أسقفًا غنيًا، متزوجًا من شابة توفيت منذ عام.

وشدد العم إيفيس على ما قالته بوريدا:

- أجل دعها تقرأ، فلماذا لم يدعوني أنا أيضًا أقرأ في صغري؟ لو فعلوا لكنت الآن رائد فضاء، ومثقف كالكهنة.

ويمثل رائد الفضاء للعم إيفيس، رجل على أعلى درجات العلم والثقافة، كالفلافسة.

وسألت العمة بوريدا:

- هل رأيت والدك يا بني؟

- لا

- ماذا تقول؟ لم تر والدك؟

- ماذا تظنون؟ إن والدي داخل قفص، ولرؤيته لابد من دفع الكثير من الأموال.

فقالت بوريدا:

- عجبًا لك! أنت ضعيف الإيمان.

ثم خرجت إلى الفناء لتجد الأحفاد الصغار لا يزالوا يتشاجروا، فدخلت بينهم وفرقتهم، وأبعدت كل واحد منهم في جانب من الفناء، وصاحت:

- أنتم كالديوك المتصارعة، سامحكم الله أيها الأشقياء!

وراح الأطفال ينوحون في تناغم مع صوت الصراصير في هذه الليلة الصافية.

obeikandl.com

الفصل الثاني

في صباح اليوم التالي كانت جوفانا أول من استيقظ، حيث كان ضوء الصباح الباكر الوردي ينفذ من زجاج الباب، وصوت زقزقة العصافير يكسر سكون الصباح، وبمجرد أن استيقظت انتابها شعور بالسرور، إلا أنه كان قوي للغاية لدرجة الإزعاج كأنه دوي رعد يحيط بها، واستغرقت في ذكرياتها.

تعرف أن في ذلك اليوم سيتحدد مصير زوجها، ورغم أنها كانت على يقين من أنه سيُدان، لكنها كانت متشبثة بالأمل، ولم تكن تفكر مطلقًا في كونه مذنب أم لا، أو ربما لم تفكر في ذلك من قبل، لم تفكر إلا في عواقب ما حدث، من انفصال ربما يكون أبديًا عن هذا الشاب ممشوق القوام مفتول العضلات، ذو الأيدي الناعمة والشفاة الحارة، هذا الفراق هو ما يقتلها، وبينما هي مستغرقة في ذكرياتها شعرت بحزن كبير جعلها تهب دون وعي من فوق الفراش وبدأت ترتدي ملابس الخروج، وهي تردد بصوت متألم "لقد تأخر الوقت، تأخر، تأخر.."

نهضت العمة باكيزيا هي الأخرى وفتحت عينيها الصغيرتين اللتين تشبهان عيني الدودة، وكانت تعرف جيدًا ماذا سيحدث اليوم وغدًا، وما سيحدث بعد سنة واثنين وعشرة، ولكي لا تُثار مشاعرها، وقررت أن تنهض وتُغير ملابسها هي الأخرى، ثم غمرت يديها بالماء ومررتها على وجهها مرة واحدة ثم جففته وربطت على رأسها عصابة وضبطتها بعناية شديدة، وكانت جوفانا لا تزال ترتدد "تأخر الوقت، يا إلهي لقد تأخر الوقت..".

ولكن سرعان ما هدأ جأشها بهدوء أمها، ثم اتجهت العمة باكيزيا إلى المطبخ وتبعتها جوفانا وحيث أنه سُمح للمرأتين بإعداد الطعام للزوج المتهم، أعدت العمة باكيزيا قهوة بالحليب وكسرة من الخبز لقسطنطينو ووضعتهما في سلة واتجهت بهما إلى السجن وتبعتها جوفانا.

في طريقهما إلى السجن، كانت الطرق خاوية وأشرقت أشعة الشمس الأولى فوق قمم الجبال الجرانيتية بأورتوبيني، ثم هبت عاصفة ترابية شديدة لها لون ذهبي وردي وكانت السماء زرقاء والطيور تغرد في بهجة وفاح ذلك النسيم الساكن العليل وبدا الصباح عيداً تحتفل به الناس على صوت الأجراس، وبينما كانت تعبر جوفانا طريق المحطة الذي كانت تسكنه عائلة بورو وهو الطريق المؤدي إلى السجون، أخذت تتأمل تلك الجبال الأرجوانية البعيدة الرائعة التي تشبه تاجاً من حجر الجمشت وهو حجر كريم على حافة الوديان الكبيرة المهجورة وتستنشق النسيم العطر لتلك الأماكن وتفكر في منزلها الصغير وفي طفلها وفي تلك السعادة المفقودة، فشعرت حينها بالموت.

هرولت الأم مسرعة حاملةً السلة على رأسها حتى وصلت هي وجوفانا إلى ساحة السجون البيضاء الكبيرة المستديرة. وفي هذا الصمت ومع إشراق الصباح بدى حارس السجن الذي كان واقفاً في صمت دون أن يتحرك تمثالاً، ومما زاد من كآبة ذلك المكان تلك الشُجيرة الخضراء التي كانت تنمو بجوار سور السجن. كانت بوابة السجن، التي تميل إلى اللون الأخضر والتي كانت تُغلق من حين لأخر كفم أبو الهول، تُفتح لتبتلع المرأتين. وكان الجميع هناك في ذلك المكان المرعب يعرفون

هاتين المرأتين البائستين بدايةً من قائد الحرس رفيع المقام ذو البشرة الحمراء، الذي كان يبدو لواءً حتى أصغر الحراس شاحب الوجه ذو الشارب الطويل الأشقر الذي كان يتظاهر بالآناقة.

في ذلك الممر المظلم العفن كانت المرأتان تشعران بالفعل بخوف شديد من الداخل، ولم يمضيا قُدماً، بل جاء الحارس الآنيق ذو الوجه الشاحب ليأخذ منهما السلة وسألته جوفانا حينها بصوت منخفض إذا كان قسطنطينو قد نام.

- نعم، لقد نام، ولكنه كان غارقاً في أحلامه فسمعته يقول: الخطيئة المميتة.

قالت العمة باكيزيا:

- نعم، خطيئته المينة هي أنه ذهب إلى الجحيم وعليه أن يدفع ثمنها.

همهمت جوفانا قائلة:

- يا إلهي، لماذا تتحاملون عليه هكذا؟ ألم يسخط عليه مصيره بما فيه الكفاية؟

عادت المرأتان إلى الخارج منتظرتين خروج الزوج المتهم، وعندما رأت جوفانا رجال الأمن وهم يحملونه إلى المحكمة بدأت ترتعد بشدة مع أنهم كانوا قد أخذوه قبل ذلك من أحضانها واتسعت عيناها السودتان مُحدقةً في بوابة السجن بنظرة جنونية.

وبعد دقائق من الإنتظار المؤرق الذي قضته جوفانا، فُتحت بوابة السجن التي كانت تشبه فم أبو الهول بعض الشئ،

ثم ظهر قسطنطينو وسط مصراعيها الرماديين المصنوعين من الجرانيت اللذين يشبهان الحارسين ذوي الشوارب السوداء. وكان قسطنطينو طويل القامة ورشيقاً كشاب في مقتبل العمر بضفيرتين من الشعر الأسود اللامع الطويل الذي كان يزين وجهه الحليق الأبيض مما منحه جمالاً أشبه بالجمال الآنثوي، فضلاً عن عينين كستنائيتين وفم صغير يُشعرك ببراءة الأطفال وتلك الشامة الموجودة على ذقته مما يشعرك بأنه إله أبوللو الشاب.

وبمجرد أن لمح جوفانا لمع وجهه، فتلك هي اللحظة التي كان ينتظرها، ثم وقف يقاوم الحراس فما كان من جوفانا إلا أن هرولت مسرعةً تجاهه وشدت على يديه المُكبلة بالأساور الحديدة "الكلبشات".

وقال أحد الحراس بصوت عذب:
- ابتعدي أيتها المرأة الجميلة، فأنتي تعلمين أن ذلك ممنوع.

كانت العمة باكيزيا قد اقتربت وأطلقت نظرة من عينيها الخضراوتين الصغيرتين على الجميع، فوقف الحراس برهة وقال قسطنطينو بثبات وفرح:
- تجلدا.. تجلدا...
قال هذه الكلمات وهو ينظر إلى جوفانا مبتسماً. وقالت له العمة باكيزيا بينما كان الحراس يدفعون المرأتين بلطف:
- المحامي ينتظرك هناك.

قال الحراس وهم يسحبون المتهم:
- انصرفا أيتها المرأتان الطيبتان، انصرفا.

تبسم قسطنطينو في وجه جوفاناً كاشفاً عن أسنانه ناصعة البياض بين شفتين منتعشتين ولكنهما شاحبتين، ثم مضى بعيداً مع هذين الحارسين اللذين يشبهان مصراعي البوابة الجرانيتية.

ومن جانبها أخذت العمة باكيزيا جوفانا التي كانت تريد أن تتبع زوجها بعيداً إلى منزل بورو لكي تتناول وجبة الإفطار قبل الذهاب إلى المحكمة. غمرت الشمس الفناء فوق عرائش أوراق العنب اللامعة التي تتدلى منها العناقيد الطويلة غير الناضجة التي كانت تبدو كما لو كانت منحوتة على قطع الرخام الأخضر، وكانت طيور السنونو تغرد متأملةً قرص الشمس، بينما كان الخال إيفيس ماريا يمتطي جواده ذو السرج الأحمر متأهباً للذهاب إلى الريف. يالله من ضوء وفرح ينبعث من سور حجري صغير تتسع عنده الأفق، وكان الأطفال يشربون القهوة بالحليب على عتبة باب المطبخ، بينما كانت جراتسيا قد ذهبت لتشرب قهوتها في ركن صغير بغرفتها حتى لا يراها عمها الذي يدرس في ذلك الوضع الشائن، بينما كان هو يلتهم وعاء الحساء الكبير وهو واقف على قدميه بالفناء بعد أن خلع سترته والعمة بوريدا تلمع له حذائه مندهشةً تماماً من الحكايات التي يرويها لها ابنها.

- ما هي مساحة كاتدرائية القديس بطرس؟

- يجب أن نوضح أن باولو قد ذهب هذا العام فقط إلى روما.

- إنها إذاً كمرعى كبير، ولكن لا يمكن حتى الصلاة بداخلها.

- كيف لا يمكن الصلاة بداخلها؟

- هل تعلمون أن الملائكة كبار الحجم تماماً كهذا الباب وأن صغار الحجم منهم هم من يرعون حوض المياه المقدسة هذا؟

- إذاً يجب أن نضع السلم لكي نأخذ المياه.
- لا أعتقد ذلك، يبدو لي أنهم راكعون. أعطوني كوباً آخر صغيراً من القهوة بالحليب يا أمي. ألم يتبقى منها شيئًا؟
- بالطبع نعم، لقد عُدت يا ابني باولو الحبيب تتضور جوعاً كسمكة قرش.
- هل تعلمون كم يتكلف طبق الحساء بروما؟ ليس أقل من ليرة، كما أنه خفيف كالماء.
- تباً لهم، كم هو شئ بغيض!
- أتعلمون أنني رأيت دلافين البحر؟ كم كانت تثير فضولي!
- هاهم الضيوف قد وصلوا، صباح الخير. ماذا فعلتم؟

روت له جوفانا لقائها مع زوجها، ولكن عندما شرعت في البكاء أخذتها العمة بوريدا من يدها وحملتها إلى المطبخ وقالت وهي تقدم لها فنجاناً كبيراً من القهوة بالحليب:
- أنتِ اليوم بحاجة إلى استرداد صحتك، لتأكلي يا روحي.

خرجت المرأتان بعد قليل في طريقهما إلى قاعة محكمة الجنايات، وعرض باولو عليهما أن يصطحبهما، ثم قالت العمة بوريدا وهي تستأذن بالانصراف من جوفانا "تَجَلدي".

سمعت جوفانا إدانة زوجها في صوت هذا الضيف، ثم انصرفت مخفوضة الرأس ككلب جلدوه. تابعها باولو بنظراته، ثم انصرف إلى أمه وهو يعرج كالكتكوت الجريح وقال لها شيئاً غريباً:
- انصتوا، لن يمر أكثر من عامين إلا وستسترد هذه الشابة زوجها.

صرخت المرأة التي كانت تدعو ابنها بكنيته عند غضبها:
- ماذا تقول يا دكتور بيديدو؟ في الحقيقة أنت مجنون.
قال:
- يا إلهي، لقد جئت عابراً البحر. نأمل على الأقل أن يختارني محامياً له.
قالت جوفانا لأمها بينما كانا يسلكان طريقاً وعراً:
- هذا الشاب، حفظه الله، يأكل ككلب مسعور.
تابعت العمة باكيزيا السير منغمسةً في التفكير وأجابت وهي تعض على أسنانها:
- سيكون محامياً بارعاً، ينهب الزبائن ويأخذ منهم أموالاً طائلة.

ثم صمتا بعد أن انتها من حديثهما. وفجأة تعثرت العمة باكيزيا في قطع الحجارة، ولا تدري لماذا راودتها في هذه الأثناء فكرة ترجي باولو ليكون محامياً لابنتها إن طلبت يوماً ما الطلاق.

وفي تمام الثامنة صباحاً وصلا إلى الكاتدرائية وكان زجاج النوافذ الصغيرة للمحكمة الموجودة بجانبها يعكس إشراق الصباح.

وجدت المرأتان في قاعة المحكمة الجرانيتية الصغيرة بعض أقرانهم الريفيين كشهود في المحاكمة، وكان بعضهم يحاوطوهما مرددين نفس الكلمة "تجلدا، تجلدا".

قالت العمة باكيزيا وهي تمر في خُيلاء كمُهره لا تقهر:
- حقاً، نحن نتحلى بالشجاعة والجلد، ولكن دعونا وشأننا.

كانت تعرف جيداً الطريق، فذهبت مباشرة إلى تلك القاعة الكئيبة الموحشة. تابعتها جوفانا ورجال ريفيون قد أطلقوا لحاهم، يرتدون زياً ريفياً، وأخرون ممن لديهم متسع من الوقت ودفعهم فضولهم للدخول، وامرأة طويلة بلا أسنان حولاء العينين.

كان القُضاة البدناء الطاعنون في السن يجلسون بالفعل على مقاعدهم، وكان لأحدهم أنفاً كبيرة مدببة، واثنين أخرين بلحى كثيفة وعيون مخيفة فاضحة، وثلاثة أخرون يجلسون سويًا بالقرب من بعضهم البعض، ويتبادلون الضحكات أثناء قرائتهم الصحيفة.

حضر رئيس المحكمة بوجهه الوردي ولحيته الخفيفة، ووكيل النيابة، ذلك الشاب ذو الشارب الأشقر المُصفف في وجهه المُفعم بالحيوية مما ينم على أنه ذو سلطة، والمستشار والمُحضر وبدوا جميعاً في عبائتهم السمراء لجوفانا كالسحرة الذين جاءوا إلى هناك ليسحروا قسطنطينو المسكين.

كان قسطنطينو ماثلاً في قفص الاتهام كعصفور كبير يرتعش بين الحارسين اللذين يشبهان حائطين من الجرانيت، ثم أخذ ينظر إلى جوفانا، ولكن دون أن يبتسم لها هذه المرة. بدى غارقاً في حزنه القاتم، وعيناه الطفوليتان الصافيتان تنطفئان رعباً أمام هؤلاء الرجال الذين سيبتون في مصيره.

شعرت جوفانا حينها بيد تنتزع قلبها من داخلها مما كان يُشعرها بألم جسدي أحياناً كألام الحقن.

شرع المحامي الشاب الصغير ذو الوجه الأصفر الوردي في المرافعة بصوته الحاد الآنثوي، وكانت مرافعته بائسة، فكان

يكرر ما قيل بالفعل وكانت أحاديثه فارغة كقطرات ماء لا تروي.

كان وكيل النيابة ذو الشارب المُصفف مُحتفظاً بكبريائه، ورأى بعض المحلفين أن أفضل ما يفعلونه هو أن يتحلون بالصبر، وبدى أنه حتى الأخرين الذين حكموا عليهم بشكل إيجابي لم ينصتوا إلى أى شئ، فقط العمة باكيزيا وجوفانا والمتهم هم من كانوا ينصتون إلى الدفاع، وكلما كان المحامي يترافع زادت حيرتهم.

ثم وصل أخرون وتابعوا جوفانا التي كانت تنظر من حين لأخر مترقبة وصول باولو. لم تكن تدري لماذا، ولكنها كانت تنتظره بقلق حيث اعتقدت أن حضور هذا الطالب في صالح زوجها المتهم.

عندما انتهي المحامي من مرافعته، نهض قسطنطينو وجِلاً وطلب الحديث، وقال بصوت مذبذب مشيراً إلى المحامي الذي ترافع:

- ها هو السيد المحامي قد تحدث مترافعاً عني وأنا أشكره، ولكنه لم يقل ما وددت أن أقوله، نعم لم يقل، لم يقل.

ثم توقف عن الحديث وهو يلهث، فقال له رئيس المحكمة:

- تفضل بإضافة ما تريده على قول الدفاع.

ظل المتهم منغمساً في التفكير وعيناه في الأرض بعد أن شحب وجهه، ثم رفع يده قليلاً، وفرك جبهته في توتر، ثم رفع رأسه وقال بصوت منخفض:

- هأنا، أنا.. أنا...

لم يستطع أن يكمل حديثه، ضم قبضته واتجه غاضباً إلى المحامي وصرخ صرخةً مدوية:

- هل لك أن تقول أنني برئ، أنني برئ؟!

لوَح له المحامي بيده ليهدأ، ثم رفع رئيس المحكمة حاجبيه، ولسان حاله "إن كان قد قال ذلك مائة مرة، هل ذنبنا أننا لا نستطيع تصديق ذلك؟". ثم سُمع نحيب امرأة غمر القاعة.

لقد كانت جوفانا تبكي وعندما أخذتها العمة باكيزيا للخارج بكت وقاومتها، ثم اتجهت أنظارالجميع ما عدا النائب العام إلى شجار المرأتين، وبعد قليل جاء وقت المداولة.

أخذت العمة باكيزيا جوفانا إلى الساحة الصغيرة وتبعها رجلان ريفيان، وبدلاً من أن تهدأ من روعها صرخت في وجهها. هل كانت مجنونة؟ أم أرادت أن يخرجوها بالقوة؟

- إن لم تكفي، سأنهال عليكِ باللكمات بتلك الدبلة التي أرتديها.

واصلت جوفانا البكاء قائلةً:

- يا إلهي! أمي الحبيبة، إن هؤلاء الأوباش يدينونه وأنا سامحته، ولكن لا يمكنني أن أفعل شيئاً، لا يمكنني أن أفعل شيئاً.

ثم قال أحد الريفيين:

- ماذا تريدان أن تفعلا؟ لا يمكنكما أن تفعلاً شيئاً، تحلا بالصبر ولننتظر قليلاً وسنرى.

في تلك اللحظة ظهر ثلاثة أشخاص ذو بشرة سمراء، كان أحدهما يضحك وهو يعرج. لقد كان باولو بورو وسط راهبين

شابين من أصداقائه، وقال باولو:

- ها هي هناك، يبدو أنهم قد أدانوه.

وتابع أحد الراهبين قائلاً:

- يبدو لي في واقع الأمر أنها مُهره ترفس، يبدو لي ذلك.

أخذ شخص آخر منهم ينظر إلى جوفانا بفضول، ثم اقترب الثلاثة أصدقاء الشباب إلى الفتاتين، وسألهما باولوا إذا ما انتهت المداولة وسأل أحدهم:

- هل هو الذي قتل العم؟

استمر الآخر في النظر إلى جوفانا التي بدأت تهدأ رويداً رويداً، ثم قالت العمة باكيزيا في خُيلاء:

- إنه لم يقتل أحداً، أنتم القتلة أيها الغربان السوداء.

أجابها الشاب الراهب:

- إن كنا غربان، فأنتم سحرة.

أطلق الراهب الآخر ضحكة. ثم وعدت جوفانا بأن تتمالك أعصابها إذا سمحوا لها بالعودة إلى القاعة بعد أن أهدأت كلمات باولو من جأشها. دخلوا جميعًا القاعة معًا، وأخذ القضاه أماكنهم بعد أن تداولوا.

خيم صمت رهيب على القاعة الحارة القاتمة، وسمعت جوفانا أزيز ذبابة حول النافذة الحديدية، ثم بدا لها أن كافة أطرافها تثاقلت، وشعرت بتلك الحواجز الحديدية شديدة البرودة على جسمها وساقيها وذراعيها.

قرأ القاضي الحكم بصوت منخفض وبلا مبالاه، بينما كان المتهم ينظر إليه مُحدقًا دون أن يأخذ أنفاسه. كانت جوفانا لا تزال تسمع أزيز الذبابة، وينتابها شعور بالكره الشديد تجاه هذا الرجل ذو الوجه الوردي واللحية البيضاء، ليس بسبب ما

يقـرأه ولكـن لأنـه كان يقـرأ بصـوت منخفـض وبـلا مبـالاه، وقـد حكـم بالحبـس لمـدة سـبعة وعشريـن عامـاً عـلى القاتـل الـذي خطـط طويـلاً وارتكـب هـذه الجريمـة ضـد عمـه الشـهواني الـذي كان يرعـاه.

كانـت جوفانـا عـلى يقـين بـأن الحكـم سـيكون ثلاثـين عامـاً وأن سـبعة وعشريـن عامـاً كان حُكـماً مُخففـاً، ولكـن لبرهـة مـن الوقـت وعـلى الفـور رأت أن ثلاثـة سـنوات بالنسـبة لثلاثـين عامـاً لا تعنـي شـيئاً وعضـت عـلى شـفتيها، ثـم نظـرت إلى قسـطنطينو بعـد أن غمرهـا اليـأس ورأت، أو بـدا لهـا أنهـا رأت وجهـه الرمـادي العجـوز وعينيـه المعصوبتـين الشـاردتين تجـولان في القاعـة، ولكنـه لم ينظـر إليهـا، لم يعـد حتـى ينظـر إليهـا، فقـد كان قـد انفصـل عنهـا للأبـد، مـات وهـو لا يـزال حيًـا، قتلـه هـؤلاء الرجـال البدنـاء اللذيـن يدَّعـون أنهـم يُرسـون السـلام بـلا مبـالاة منتظريـن ضحيـة أخـرى. فقـدت صوابهـا، وفجـأة أطلقـت صرخـات وحشـية سـادت القاعـة، فأخذهـا أحـد الحضـور وسـحبها إلى الخـارج تجـاه الميـدان المشـمس الأصفـر.

قالت العمة باكيزيا وهي تشدها من ذراعها:

- هـل هـذا معقـول يـا ابنتـي؟ هـل أنـتِ مجنونـة؟ أنـتِ تصرخـين كالحيوانـات، إلى متـى سـتظلين هكـذا؟ هنـاك الاسـتئناف والنقـض يـا روحـي، هـدأي مـن روعـك.

حـدث كل هـذا في دقائـق معـدودة. أحـاط كافـة الشـهود، المحامـي وباولـو وبـورو، بالمرأتـين وحاولـوا تعزيتهـما، وكانـت جوفانـا تبـكي بـلا دمـوع وتتنهـد بشـكل متقطـع أتعـب صدرهـا.

فكانت تهلوس بكلمات تخرج من بين شفتيها المرتجفتين فتارةً تذكر قسطنطينو بكلمات حانية وتارةً أخرى تتوعد القضاة.

توسلت إليهم أن تشهد خروج زوجها المتهم، وانتظرت. ظهر في نهاية المطاف وسط حارسين باردين بلا قلب، شاحب الوجه، محني الظهر بعينيه الغويطتين اللذين أصابهما الكِبَر في غفلة من الزمان.

أسرعت جوفانا الخُطى، وحيث أن الحراس لم يتوقفوا تابعت السير تجاه زوجها المتهم وابتسمت له قائلةً أن النقض سوف يقضي ببرائته وأنها ستنفق النفيس والغالي لإنقاذه، فنظر إليها بعينين مفتوحتين تغمرهما الدهشة، والحراس يدفعانه وقال أحدهم:

- انصرفي أيها المرأة الجميلة، انصرفي واصبري.

وقال قسطنطينو:

- انصرفي يا جوفانا ولكن لا تنقطعي عن زيارتي، واحضري لي طفلنا، تجلدي.

عادت جوفانا مع أمها إلى بيت الضيوف، وعانقت العمة بوريدا المرأتين وشرعت في البكاء وبدت غاضبة من رقتها، فحاولت أن تتمالك نفسها وقالت:

- ماذا يعني سبعة وعشرون عامًا؟ أليس أسوأ إن حكموا عليه بثلاثين عاماً؟ تريدون الرحيل؟ تحت وهج الشمس الحارقة؟ أحسبكم مجانين؟ لن أترككم ترحلون.

قالت العمة باكيزيا:

- معذرةً، سنرحل حيث سيرحل معنا أقراننا الريفيين

الأخريـن، ولكـن سـتعود جوفانـا خـلال بضعـة أيـام بطفلهـا إن لم يكـن يزعجكـم.
- أهلا وسهلا بكم، بيتنا هو بيتكم.

جلسـوا عـلى المائـدة، ولكـن جوفانـا لم تـأكل مـع أنهـا كانـت هادئـة، وحاولـت العملـة بوريـدا مرتـين أو ثلاثـة أن تفتـح مجـالاً للحديـث، فسـألتها هـل نمـت أسـنان طفلهـا اللبنيـة، وقالـت لهـا أن السـفر في وهـج المشـس الحارقـة يـضر بالطفـل، وسـألت المرأتـين إذا مـا كانـت هنـاك وفـرة في محصـول الشـعير.

خيـم هـدوء كبـير عـلى الفنـاء هنـا وهنـاك في وهـج الشـمس الـذي يخففـه ظـل عريشـة العنـب، وكانـت طيـور السـنونو تُحلـق مغـردة، بينـما كان باولـو يقـرأ الصحيفـة ويـأكل، وكانـت جراتسـيا ومينيـا ترتديـان ثيابهـما الأسـود الضيـق وشـعرهما أشـعث بعـد أن رحـل أخيهـم الصغـير مـع الجـد، وكانـت تنغلـق عيناهـم بالفعـل أثنـاء تناولهـما وجبـة الغـذاء بعـد أن أخذهـما نعـاس الظهـيرة، فلـم يكـن لحديـث العمـة بوريـدا أى وقـع في ذلـك الصمـت الـذي خيـم عـلى هـذا المـكان المضـئ الهـادئ الـذي وصلـت فيـه مأسـاة العمـة باكيزيـا وألم جوفانـا المكبـوت إلى مداهـما.

وبمجـرد انتهـاء الغـذاء وضعـت المرأتـان الـسرج عـلى فرسـهما، وأعـدوا حقائبهـما، ثـم اسـتأذنا بالانـصراف، ووعدهـم باولـوا بـأن يـوصي المحامـي بـالإسراع في الطعـن في الحكـم، وبمجـرد أن انصرفـا شرع في اللعـب مـع مينيـا ليفيقهـا مـن النعـاس الـذي سـيطر عليهـا، وكان يتـصرف بشـكل جنـوني، فـكان يضحـك بشـكل هيسـتيري مُحـركًا كل جسـمه، ثـم يصمـت فجـأة ويشـحب وجهـه ويحـدق بعينيـه، ثـم يعـاود الضحـك.

شعرت الفتيات بالمتعة، وشرعن هُنَ الأخريات في الضحك بجنون، وحلت السعادة في ذلك الهدوء الكبير الذي خيم على الفناء بأكملة وعلى كافة أنحاء المنزل الهادئ الذي تحررمن وجود المرأتين الحزينتين في فترة الضهيرة.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

انطلقت المرأتان تحت وهج شمس شهر يوليو وهبطا الوادي وتابعا السير حتى وصلا إلى قاعه، ثم صعدوه مرة أخرى. ثم صعدا الجبال الأرجوانية اللون التي ينتهي عندها الأفق حيث تتلاشى القمم المهجورة في عنان السماء الصافية الرمادية بفعل الأبخرة الصيفية.

كانت رحلة مُحزنة، وكانت المرأتان تمتطيان نفس الفرس الوديع الحزين الذي طالما إمتطاه رفاقهم في السفر ممن سبقوهم وممن تبعوهم شاردين بعد أن أرهقتهم شدة الحرارة والصمت والألم الذين تألموه لإدانة قسطنطينو تماماً كما تألمت المرأتان. صمتت المرأتان احتراماً لمشاعر الحسرة المكبوتة التي انتابت جوفانا، وإن كانتا حتى قد تجرأتا على الحديث لتلاشى صوتهما بلا صدى في هذا الصمت الرهيب الذي كان يخيم على الزمان والمكان. سارا وتابعا السير تجاه الوادي الذي ينحدر إلى أسفل تجاه سيل قد جف عبر مسارات غير وعرة ولكنها مهجورة تتخل أشجار الكينا الذابلة بين القطع الصخرية والبقع الترابية والقش الأصفر الباعث للحزن. بزغت أشجار بريّة منعزلة غريبة الشكل على مساحات كبيرة في صمت وثبات كما لو كانت أشخاصًا منعزلة في خلفية ذات بريق يثير مشاعر الحزن، وظلها تدلى على الأرض تماماً كسحابة وحيدة شاردة خائفة من الضوء الكثيف الذي يتخللها، وينبعث من ذلك الظل صراخ طائر جارح وأيضاً صياحًا حادًا بدأ يتلاشى رويدًا رويدًا بعد أن خيم عليه الصمت.

كانت أزهار نبات الخرشوف وأشجار البنفسج الجميلة وعرائس نبات اللبلاب الحمراء والأوراق الأرجوانية لنبات الخُبَّازَة تزيد من الإحساس بكآبة الوادي غير عابئة بضوء الشمس. وعلى الجانب العلوي والسفلي من الوادي كانت هناك صفوفًا طويلة ملتوية وغير منتهية من قطع الحجارة مغطاه بطحالب جافة تميل إلى الإصفرار تتخللها أشعة الشمس، حيث حقول القمح الذي لم يُحصد بعد والذي بدت سنابله الصفراء كحزمة أشواك تسد فجوات ذلك البُعد الصامت. تابعت جوفانا السير شاعرةً بتوهج رأسها التي حرقتها الشمس والمُغطاة بمنديل من الصوف، ووجهها الذي ملأته الدموع الصامتة. حاولت أن تتمالك نفسها حتى لا تراها أمها الجالسة على سرج الفرس مفتوحة الساقين وهي تبكي، بينما كانت هى تجلس على ظهر الفرس، وكانت العمة باكيزيا ترى وتسمع ذلك وهي مستديرة الظهر بعد أن ضاقت ذرعاً، ثم قالت فجأة بينما كانتا تعبران قاع الوادِ بين أوراق نبات الدفلة المزهرة:

- انصتي لي يا روحي، ألا تفعلي خيرًا وتصمتي؟ لماذا تبكين؟ ألم تعلمي ذلك منذ شهور عديدة ومديدة؟

واصلت جوفانا البكاء بدلاً من أن تهدأ من جأشها، وعندما رأت العمة باكيزيا أن كافة رفقاء السفر كانوا قد ابتعدوا قالت بصوت منخفض أجش أن جوفانا تراودها خيالات في ذلك الصمت الذي يخيم على المكان.

- لا تفعلي ذلك يا روحي؟ هل من الممكن ألا تكوني حمقاء هكذا؟ هل قَتل النسر أم لا؟ نعم لقد قتله.

قالت جوفانا:

- إنه لم يقل أبداً ذلك.

- لم يكن أيضًا ينقص إلا أن يقول ذلك كالمجنون! انظري يا

روحي، لم يكن ينقص سوى ذلك! ومع ذلك كنت على يقين بأنه سوف يقتله يومًا أو أخر كما يُقتل الدبور الذي لدغنا. أتقولين أن قسطنطينو مسيحي طيب؟ هل تدرين الآن ياروحي ولو قليل عن الكراهية؟ إن كان الأمر بيدك، هل ستقتلى من قتلوا قسطنطينو أم لا؟ إنه قتل النسر وأنا أتعاطف معه إلى حد ما لأنني أعرف طبيعة القلب البشري، ولكني لم أسامحه ولن أسامحه قط على ما اقترفت يداه. لن يحدث هذا لوجه الله. كان عليه أن يتصرف بحذر حفاظًا على زوجته وابنه. والآن كَفى، كُفي عن البكاء. أنتِ لا تزالين شابة يا جوفانا يا روحي، تخيلي أنه مات.

قالت جوفانا في يأس:

- ولكنه لم يمت!

- إذاً اشنقي نفسك، هاهي تلك الشجرة هناك هل ترينها؟ اذهبي إليها واشنقي نفسك ولا تعذبيني أكثر من ذلك، فقد كنتِ دائماً سبب عذابي. إن كنتِ تزوجتي من برونتو ديجاس لكان خيرًا لكِ، ولكنك تزوجتي هذا المتسول، إذاً فاذهبي واشنقي نفسك.

لم تجب جوفانا، فكانت في الواقع ترى هي الأخرى أن قسطنطينو مذنب، ولكنها سامحته من وقت طويل، ومع شعورها بالألم لم تكن ترى سوى تلك الإدانة، ولم تستطع أن تتجلد كرجال بسطاء يهبون حياتهم للأخرين. كم كانت تكره سلطتهم الغامضة! كانت تكرها ككرهها للأشباح المرعبة التي لم تراها أبداً ولكن شعرت دائماً بوجودها تحوم في الليالي العاصفة.

سارت وتابعت سيرها حتى صعدت الوادي، ثم شرعت

في صعـود الجبـال، حينهـا غربـت الشـمس ولاح لهـا الأفـق في صفحـة السـماء الخافتـة وتلاشـت تلـك الكآبـة الموحشـة التـي سـادت المشـهد الطبيعـي. تدلـت ظـلال طويلـة مـن فـوق القمـم وامتـدت كأبسـطة غطـت البقـع الرماديـة الصغيرة التـي كانـت لا تـزال تزدهـر عندهـا بعـض الـورود، ومـرت نفحـات ريـاح مُحملـة بروائـح بريـة، وكانـت تُعـزي نفسـها بتلـك الظـلال الرطبة المنعشـة، ثـم اقـترب مـن المرأتـين رفيـق سـفرهما وأخـذ يـروي لهـما قصـة مغامـرات غريبـة، لا أدري مـا هـي، حدثـت ذات مـرة لصديـق لـه بالقـرب مـن هـذا المـكان، حتـى وصلـت القصـة إلى مرحلـة كبـيرة مـن المتعـة مـما جعـل جوفانـا تبتسـم بغمـوض.

تابعـت سـيرها حتـى الغـروب، ومـن فـوق القمـم الجبليـة لاح لهـا البحـر الممتـد الـذي يشـبه سـحابة أبخـرة زرقـاء غطـت الأُفـق الصافيـة. وفيـما وراء الأراضي القاحلـة، المليئـة بتلـك البقـع الكبـيرة التـي تجتاحهـا ريـاح الشـتاء الشـديدة وأشـعة الشـمس المتوهجـة فـوق المرتفعـات الباعثـة للحـزن والتـي بـدت كجـزر مهجـورة في بحـر مضـئ يشـعرك بالوحـدة، كانـت قريـة عائلـة إيـرا، إنهـا قريـة أورلاي، أرض النـاس الطيبـين الأقويـاء المُكرثـين أنفسـهم للرعـي وزراعـة القمـح والعسـل، وتفيـض المراعـي الخـضراء التـي تقطعهـا القطـع الصخريـة في فصـل الربيـع بنبـات الـبروق وعبـق النعنـاع والزعـتر، وحقـول القمـح التـي تمتـد لمجموعـة المنـازل الصغـيرة المصنوعـة مـن حجـر الإردواز وتحيـط بهـا لامعـةً كبريـق الفضـة، وأشـجار تظلـل هنـا وهنـاك وعشـش السـمان المختبئـة بـين القمـح، وعـلى مسـافة منهـا لاحـت صفـوف الأشـجار النحيلـة وأوراق الزعتر وأشـجار القطلـب، في خلفتيهـا تلـك المرتفعـات الشـاهقة المنبسـطة تحـت سـماء صافيـة تمـزج بـين العذوبـة والحـزن العميـق. وفي الجانـب الأيمـن مـن تلـك السـماء ظهـرت جبـالاً منعزلـة تتخللهـا

الغابات وتسكنها النسور وما شابه كتماثيل ضخمة زرقاء في الصباح، أرجوانية وقت الظهيرة وبرونزية وأرجوانية وقت المساء.

وصلت المرأتان قُرب المساء إلى بلدتهم، وبدا لهما حينها جبل بيللو، ذلك البناء الضخم الذي تتصاعد منه أبخرة بنفسجية في السماء الرمادية، وكانت البلدة خاوية يسودها الصمت، وصوت خطوات الفرس الذي يُدوي على أرصفة الطرقات كصوت سماء تمطر أحجاراً.

تفرق رفاق السفر هنا وهناك ووصلت المرأتان بمفردهما أمام منزلهما الكائن على مساحة فسيحة من الطريق حيث يوجد منزلاً أخراً أبيضاً بالقرب منه، وشجرة لوز ملاصقة لحائط قوي يخرج من إحدى أركان بيت إيرا ويبزغ على الجانب السفلي من الطريق حيث توجد وراءه الحقول.

تناثرت هنا وهناك في ذلك الطريق تحت شجرة اللوز أمام بيت إيرا المظلم وأمام بيت ديجاس الأبيض، قطع حجرية ضخمة كانت تُستخدم للجلوس حيث كانت تلك الفَسَحة فناءً كبيراً عاماً لكل الحي.

وبمجرد أن وصلت جوفانا نزلت من على الفرس وذهبت مُرهقة ومنحنية الظهر إلى امرأة من أقاربها كانت قد تركت لها رعاية المنزل والطفل، جاءت المرأة إليها تحمل الطفل بين ذراعيها، فأخذته منها وضمته بين ذراعيها، ثم أخذت تبكي وأخفت وجهها خلف كتف الطفل الصغير. الآن هدأ بكائها الذي ينم عن يأس عميق، وبدا لها أن الألم الذي اعتصرها

حتى تلك اللحظة لا يعني شيئا مقارنةً بالألم الذي تعيشه الآن. بدأ الطفل، الذي لا يتعدى عمره خمسة أشهر، ذو الوجه الجاف وعينين بنفسجيتين صغيرتين لامعتين، يرتدي غطاء رأس ثقيل أحمر تخفي أطرافه جبهته الصغيرة، في التعرف على أمه وأمسك طرف منديلها بقوة مُحركاً قدميه وهو يبكي:

- أه، أه، اه

قالت جوفانا باكية:

- حبيبي يا مالثينو، حياتي يا مالثينودو، يا أغلى ما لي في هذه الدنيا، لقد مات أباك.

فهمت المرأة أن قسطنطينو قد حُكِم عليه بعقوبة فشرعت هي الأخرى في البكاء، داهمتها العمة باكيزيا دافعةً جوفانا داخل المنزل، ثم طلبت من المرأة أن تساعدها على أن تُنزل ما على الفرس، وقالت بصوت منخفض:

- أنتم مجانين حقًا، هل يجب أن تبكيا هكذا أمام البيت الأبيض؟ أرى رأس جارتنا مارثينا التي تشبه رأس الطير، إنها تتمنى لنا الشر.

قالت قريبتها:

- لا، جاءت عدة مرات لتسأل عن قسطنطينو وبدت مُتأملة حيث أخبرتني بأنها رأت في المنام بأنهم حكموا عليه بالأشغال الشاقة.

- حقاً، إنها كالكلب المسعور، فأنا أعرفها تلك الأفعى السامة، لن تستطيع أن تسامحنا. أضافت وهي متجهة ناحية الباب تحمل الحقيبة على ظهرها:

- ومع ذلك فهى مُحقة، فنحن أيضاً لا نستطيع أن نسامحها.

كانت العمة مارتينا ديجاس ربة البيت الأبيض ووالدة

برونتو ديجاس الذي كان قد طلب جوفانا للزواج وتم رفضه. كان ثرياً ولكن بخيلاً، وتوهمت العمة باكيزيا بأن مارتينا تكرهها حيث أنها كانت لا مبالية تجاه الرفض، ثم قالت العمة باكيزيا بعد إنزال ما على الفرس:

- هل لكِ أن تصنعي لي معروفاً يا ماريا كيكا، اذهبي وأعيدي لها الفرس وأخبريها أيضًا بأن قسطنطينو حُكم عليه بالسجن لمدة سبعة وعشرين عاماً، ثم لاحظي تعبيرات وجهها.

أخذت المرأة على الفور لجام الفرس الذي قد استجرأته عائلة ديجاس وذهبت تجاه البيت الأبيض. كان هذا المنزل، الذي اشترته عائلة ديجاس قبل المزاد بسنوات قليلة من تاجر قد أعلن إفلاسه، كبيراً ومُريحًا ذو رواق فخم كانت تُطلق فيه العمة مارتينا الخنازير الصغيرة والدجاج. لم يكن منزلاً ملائمًا لرعاة اعتادوا الحياة البرية كعائلة ديجاس حيث كان أثاث الغرف المكون من أفرشة خشبية طويلة وصلبة وأقواس منحوتة بشكل فظ وكراسي ومقاعد ثقيلة يُظهر ذلك.

أعطت ماريا كيكا الفرس للعمة مارتينا التي كانت لا تزال تغزل عند رواق الباب، وكان المنزل خاويًا حيث ذهب برونتو والخدم إلى الريف، بينما كانت العمة مارتينا لديها أعمال منزلية، وكان لديها أبناء وبنات أخرون دائماً في خلاف مستمر معهم بسبب بخلها، وعندما تكثر عليها الأعمال المنزلية كانت تستدعي أشخاصاً من أحياء مجاورة وأيضاً جوفانا ووالدتها في كثير من الأحيان ولا تعطيهم إلا الفتات، وكان هؤلاء الأشخاص فقراءً يقنعون بأي شئ.

قالت وهى تضع المغزل وفلكته الصغيرة على المقعد

الموجـود بالـرواق :

- كيـف سـارت الأمـور؟ أنـتِ تبكـين يـا ماريـا كيـكا؟ لقـد رأيـت المرأتـين المسـكينين عائدتـين، ولكننـي لم أتجـرأ عـلى الاقـتراب منهـما، حيـث أننـي رأيـت في المنـام هـذه الليـة أنهـم حكمـوا عليـه بالأشـغال الشـاقة.

كان صوتهـا غليظـاً، وعيناهـا مسـتديرتين لامعتـين قريبتـين مـن أنفهـا الرفيـع المدبـب، وفمهـا نـضرًا الأحمـر، وقالـت:

- لقـد قلـتِ لي ذلـك يـا عمـة مالثينـا، حكمـوا عليـه بسـبع وعشريـن عامـاً...

بـدت العمـة مارتينـا مُسـتاءة، ليـس لأنهـا تكـره قسـطنطينو ولكنهـا كانـت تعتقـد في أحلامهـا، ثـم أمسـكت بلجـام الفـرس وقالـت:

- سـأذهب إن إسـتطعت هـذه الليلـة إلى بيـت إيـرا، ولكننـي لا أدري هـل سأسـتطيع أم لا، حيـث أننـي أنتظـر رجـلاً وهـو خـادم بازيليـو ليـدا سـيأتي لمسـاعدتي، وقـد كان شـاهداً وأعتقـد أنـه عـاد مـن نـورو.

ثـم قالـت الأخـرى بعـد أن انصرفـت وعـادت مـن عنـد الأقارب وهـي تحـكي أن العمـة مارتينـا قـد تألمت:

- أعتقـد أنهـا رأت في المنـام أنهـم حكمـوا عـلى قسـطنطينو بالأشـغال الشـاقة وأن يعقـوب ديجـاس، وهـو مـن أبنـاء عـم عائلـة ديجـاس الأثريـاء، كان عليـه أن يخـدم الجـيران.

كانـت جوفانـا ترضـع الطفـل وتنظـر إليـة بـألم دون أن ترفـع حتـى رأسـها، بينـما كانـت تريـد العمـة باكيزيـا أن تعـرف أشـياءً كثـيرة:

- إذا مـا كانـت العجـوز ديجـاس بمفردهـا، إن كانـت تغـزل، وإن

كانت تغزل في الظلام ... إلخ. وقالت لجوفانا:
- انصتي، ستأتي عموماً هذا المساء.
لم تجب جوفانا وهمت بالانصراف، ولكن سألتها كما لو كانت قد استيقظت من حلم:
- من؟
- مالثينا ديجاس.
- إذاً، فلتذهب إلى الجحيم.
سُمع من جهة الباب صوت جهور يسأل:
- من يذهب إلى الجحيم؟

كان صائد السمك العجوز إيزودورو باني من أقارب عائلة إيرا وكان يأتي لعزائهم، كان طويلاً بلحية طويلة صفراء وعينين زرقاوين، ويرتدي حزاماً عاجياً، وفي يده عصى طويلة لها رأس. بدا العم إيزودورو كحاج، وكان أكثر سكان أورلاي فقراً وحكمةً وهدوءًا، وعندما كان يشتم كان يقول:
- تبًا لك يا صائد العلقيات!
كان صديقاً لقسطنطينو وغنا معاً الترانيم المقدسة بالكنيسة مرات عديدة، بل واعتبرته المرأتان شاهد إثبات لأنه كان أفضل من يشيد بمحاسن المتهم، ولكنه كان منبوذًا، ولم يمثل أمام القضاء كشخص له مكانة وسلطة، ولكن صياد سمك مسكين.

رقَّ قلب جوفانا بمجرد رؤيته وشرعت في البكاء، ثم قال إيزيدورو وهو يسند عصاه على الحائط:
- ستتحقق مشيئة الله، اصبري يا جوفانا إيرا ولا تيأسي من رحمة الله.
سألته جوفانا:
- هل عملت ما حدث؟

- نعم. وماذا بعد؟ إنه بريئ، وأؤكد لكِ أنهم وإن أدانوه اليوم سيبرئونه غداً.

قالت جوفانا مُحركة رأسها:

- أه ياعم إيزودورو، لم أعد أثق في ذلك، كنت أثق حتى الأمس ولكني لم أعد.

- أنتِ لستِ مسيحية حقة، هذه هي تعاليم بياكيزيا إيرا.

استدارت العمة باكيزيا التي كانت تنظر إلى صائد السمك نظرة احتقار بعد أن ملأها الغضب، فكانت تخشى من أن يترك لها حشراتًا قبيحة بالمنزل، وعندما كادت أن تهينه إذا برجل أخر يدخل، ثم تلته بعض النساء ورجال أخرون.

امتلأ المنزل بالناس في وقت قصير، ومع أن جوفانا كان قد أرهقها البكاء رأت أن واجبها أن تبكي وتصرخ بأسى. كانت العمة باكيزيا تنتظر جارتها الثرية ولكنها لم تأتي، ولكن أتى يعقوب دوجاس، ذلك الخادم الذي كان عليه أن يتناقش مع العمة مارتينا. وكان رجلاً مرحًا في الخمسين من عمره، بذئ الهيئة، فكان قصيرًاً ونحيفًا، بلا لحية، بلا حواجب، بلا شعر، وعيناه حولاء ماكرتان بلون يفضي إلى الأخضر أو الأصفر. فمنذ عشرين عامًا عمل فيها خادمًا لبازيليو ليدا، كان دائماً يشهد لصالح قسطنطينو ويحكي عن سوء المعاملة التي كان يلقاها ابن الأخ من بازيليو، وكيف كان هذا العجوز البخيل يضرب الخدم والنساء، وأنه ضربه هو الأخر وركله بقدميه قبل وفاته بيوم يا يعقوب ديجاس. قالت له العمة باكيزيا:

- اذهب، حيث تنتظرك مالثينا ديجاس.

أجاب يعقوب:

- أهلكها الله، سأذهب إليها، ولكني أخشى تصرفاتها فهي

أكثر بُخلاً منه.

سُمع صوت جهوري يقول:

- ربما تقوم هي بالدفع، فلا تحكم على تصرفاتها.

قال يعقوب بصوت تهكمي ساخر:

- هل أنت هناك يا عم إيزيدورو؟ كيف حالك؟ كم هي نحيفة ساقاك!

نظر إيزيدورو إلى ساقيه الملفوفتين الموضوعتين في الماء الراكد وبدأ مصاصو الدماء في مهاجمته فكان يصطادهم، ثم أجاب بلطف:

- هذا شئ لا يخصك، لا يصح أن تشتم المرأة التي تطعمك.

- أنا الذي أطعم نفسي، وهذه هي شؤوننا. يا جوفانا تجلدي، يالها من شيطانه. هل تتذكر القصة التي حكيتها لك أثناء عودتنا من نورو؟ إنها تتظاهر بالحكمة، انصرفي من أجل الطفل. لا قسطنطينو لن يظل في السجن، أؤكد لكِ ذلك. أعطيني الطفل.

ثم انحنى، ولأن الطفل كان نائماً، نهض مرة أخرى ووضع إصبعه على شفتيه، وقال :

- ياعمة باكيزيا، افعلي خيراً وارسلي ابنتك إلى الفراش فهي لم تعد تتحمل.

كان يدعو الجميع "بأنتم" وبكلمة "عم" حتى من هم أصغر منه. قال أخرون:

- أيها الناس الطيبين، هلا ننصرف.

انصرف الجميع رويداً رويداً، ثم أخذت العمة باكيزيا الكرسي الذي كان يجلس عليه إيزيدورو باني وأخرجته ونظفته، ثم عادت وهزت جوفانا التي كانت غارقة في سُبات عميق

لتذهب إلى الفراش. فتحت الشابة عينيها الحمرتين الزجاجيتين ونهضت والطفلة بين ذراعيها، ثم قالت لها أمها:

- اذهبي إلى الفراش.

نظرت إلى الباب وهمهمت:

- إنه لن يعود، لن يعود أبداً، بدا لي أنني أنتظره.

وقالت الأم بصوت أجش:

- اذهبي إلى الفراش، اذهبي إلى الفراش.

دفعتها وأخذت المصباح النحاسي وفتحت الباب. كان المنزل يتكون من المطبخ وفي منتصفه يوجد نفس الموقد الحجرى وفرنًا بإحدى جوانبه، وغرفتين مفروشتين على نحو بائس، وكان فراش جوفانا الخشبي كبيرًا ومتينًا، وغطاءً من الجبهام (نسيج قطني) الأحمر. أخذت العمة باكيزيا مارتينو الصغير الذي بكى قليلاً دون أن يستيقظ، ووضعته على الفراش وهدهدته بيديها حتى نامت جوفانا.

نامت جوفانا مكشوفة الرأس وضفائرها الجميلة معقودة حول رأسها كرومانية قديمة، فغطت لها أمها رأسها بحرص وانصرفت، ولكن بمجرد أن انصرفت الأم أزالت الشابة الغطاء وأخذت تتذمر بلا وعي. كان قد أنهكها الألم والتعب وشعرت بالنعاس، ولكنها لم تستطع النوم جيداً حيث راودتها أفكار مُحيرة، ولم يقتصر الأمر على المعاناة النفسية، فكانت تشعر أحياناً بألام حادة في الأسنان والصدغ، وفي كل مرة يباغتها هذا الألم كانت تشعر كما لو كان ماء مغلي يحرقها ويسبب لها ألم لا يوصف. كانت ليلة فظيعة مروعة.

صاحت العمة باكيزيا من الغرفة المجاورة التي كانت

قـد تركـت بابهـا مفتوحًـا بـأن جوفانـا تشـتكي وتهـزي وتتوجـه إلى قسـطنطينو بكلـمات حـب بـلا معنـى مُهـددةً القضـاة الذيـن أدانـوه بالمـوت.

ظلـت العمـة باكيزيـا يقظـةً متأملـةً في كل مـا حـدث ومـا كان يجـب أن يحـدث، وكانـت تتـألم لألم جوفانـا حتـى أنهـا بكـت أخـيرًا هـي الأخـرى.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

في مساء اليوم التالي، يوم السبت، عاد برونتو ديجاس من الريف وبمجرد أن ترجَل عن فرسه بدأ في التذمر، فدائماً كان يتذمر من عائلته، بينما كان يتظاهر باللطافة أمام الغرباء. ومن جانب أخر، كان شابًا شقيًّا وجميلاً ذو بشرة سمراء للغاية ونحيف جدًا، متوسط القامة ذو لحية حمراء قصيرة ومجعدة، وكانت أسنانه فائقة الجمال حيث كان يضحك باستمرار عند جلوسه مع النساء ليظهرها.

عندما عاد من الريف في مساء يوم السبت، بدأ يتذمرلأن أمه لم تشعل المصباح ولم تعد العشاء، ربما كان مُحقاً حيث أنه كان عاملاً، فعندما كان يعود إلى بلدته يوم السبت بعد أسبوع من المشقة كان يجد دائمًا المنزل مظلمًاً وقذرًا كمنزل شحاذ.

قال وهو يُنزِل ما على الفرس:

- يبدو كمنزل إيزيدورو باني، إذًا فاشعلوا المصباح على الأقل لأنه لا يُرى شيئًا.

ثم سأل:

- ماذا أعددتم للغذاء؟

قالت العمة مارتينا:

- يوجد بيض وشرائح من لحم الخنزير يا ولدي، اصبر. هل تعلم أن فسطنطينو ليدا حُكِم عليه بثلاثين عاماً؟

قال وهو يعض على أسنانه الجميلة من الغيظ:

- سبعة وعشرين عامًا. وماذا عن هذا البيض؟ وشرائح اللحم هذه فاسدة، يا إلهي. لماذا لا تلقيها للدجاج؟

أجابت العمة مارتينا بهدوء:

- لا، لا يأكلها الدجاج. حقاً، حُكم عليه بسبعة وعشرين عاماً، ولكنها مدة طويلة! حَلِمت أنهم حكموا عليه بالأشغال الشاقة.

قال بفضول:

- هل ذهبتهم لزيارة هؤلاء المرأتان؟ الآن سيفرح هاتان المرأتان القذرتان المتسولتان بزواجهما.

عندما قالت له أمه أنها ذهبت لزيارتهما، وأن جوفانا أصابها اليأس وكانت تقطع شعرها، وأن العمة باكيزيا أفهمتها أنها ندمت على أنها سمحت لها بالزواج منه، غضب بونتو وقال

- لماذا ذهبتم إليهما؟ ماذا تفعلون في بيت هؤلاء القُمَل الجياع؟

تظاهرت العمة مارتينا بالرحمة وقالت:

- أنت يا ولدي لا تعرف معنى الرحمة المسيحية، ذهبت أيضًا هذا الصباح الراهب إلياس لهما ليهدئهما، وتريد جوفانا أن تحمل الطفل إلى نورو حتى يراه قسطنطينو قبل الرحيل، قلت لهم أن هذا جنون، ولكن الراهب إلياس رأى أن تحمله إلى هناك، ثم شرعت في البكاء. وقال برونتو الذي كان يكره الرهبان لأن عمه كان راهبًا في البلدة أرسل ممتلكاته إلى إحدى المستشفيات قبل أن يتم إرسال الراهب إلياس بورتورو من نورو:

- وما شأنه هو بالأطفال؟ إنه رجل لا ينجب ككافة الرهبان.

وكانت العمة مارتينا تخفي حقداً تجاه هذا الموقف، ولكنها كانت تستطيع التظاهر بغير ذلك، فكانت تلك العجوز الماكرة تتظاهر بعلامة الصليب عندما كان برونتو يتحدث بسوء عن

الرهبان، وقالت أيضاً هذه المرة وهي تشير بالصليب:

- ماذا تقول يا أحمق؟ أنت لا تعلم شيئًا، إنه الراهب إلياس قديس، وويلك إن سمعتك تتحدث بسوء عنه، فهو يقرأ الكتب المقدسة ونخشى أن يلعننا فيودي بحقولنا ويهاجمنا الجراد ويموت النحل.

ثم قام برونتو وتابع حديثه ليعرف تفاصيل حول حزن إيرا:

- إذًا فهو قديس عظيم. كيف كانت تبكي جوفانا؟ ماذا كانت تقول العمة باكيزيا تلك الحدأة الصغيرة؟

- بكت جوفانا بكاءً يُقطع القلوب، وشعرت العمة باكيزيا باليأس حيث أن نفقات المحامي والقضية ستُخرجها عارية من منزلها بسبب الفقر، فضلاً عن المشكلات الأخرى.

كان الشاب ينصت بعناية وسرور كاشِّفًا عن أسنانه التي تشبه أسنان الصبية، سرور تتخلله تلك الوحشية البسيطة. ثم قالت العمة مارتينا:

- ها هو يعقوب ديجاس سيأتي بعد قليل لكي يتحدث أيضاً معك، كان يريد أن يشرع في العمل غداً، ولكنني طلبت منه أن ينتظر حتى يوم الاثنين. إن غداً لعيد، لماذا يجب أن يأكل دون أن يدفع؟

- يا إلهي، كم أنتِ شديدة البخل يا أمي!

- أنت لا تزال طفلاً، لماذا التبذير؟ الحياة طويلة ولكي تعيش يجب أن تكون حريصًا.

ثم سأل برونتو بعد أن صمت قليلاً بينما كان يتمدد أمام سلة نبات البروق التي وضعت فيها العمة مارتينا الخبر والبيض:

- وهاتان المرأتان، كيف سيتصرفان؟

أجابت العمة مارتينا بسخرية بعد أن أمسكت النول وشرعت في الغزل بجانب الباب:

- إنهم سيبحثون عن الحلزون، كم أنت شديد الاهتمام بهاتين المرأتين يا برونتو ديجاس!

ساد الصمت، وسُمع صوت دحرجة النول وأسنان برونتو وهو يمضغ الخبز الناشف، وصوت صرصرة الصراصير في الخارج عند الرواق، والصريخ المأسوي لطائر الثبج في تلك العزلة التي سادت أولى الليالي الدافئة المظلمة.

صب برونتو الخمر وأخذ الكوب، ثم فتح فمه، لا ليشرب بل ليقول شيئاً لأمه ولكنه لم يستطع. شرب برونتو ولكن ظلت بعض القطرات على لحيته الحمراء، فمسحها بظهر يده، ثم خفض رأسه وفتح فمه ليقول شيئاً، ولكنه لم يستطع حتى هذه المرة.

وهنا سُمع صوت طقطقة حذاء يطأ الأرض، فاقتربت العمة مارتينا التي كانت تغزل من ابنها وقالت أنه أتى يعقوب ديجاس، ثم أخذت السلة والنبيذ ووضعتهما في الدولاب.

دخل يعقوب المنزل وأدرك ما فعلته العجوز وظن أنها أخفت النبيذ لكي لا تقدم له منه ولو كوباً، ولكنه كان رجلاً بمعنى الكلمة (كما كان يقول) ولم يشعر بالإهانة، بل تقدم مبتسماً وسعيداً، ثم قال وهو يضع إصبعه على أنفه:

- أراهن أنكما كنتا تتحدثان عني.

- لا، كنا نتحدث عن قسطنطينو ليدا المسكين.

قال يعقوب بجدية:

- حقًا، يا له من شخص مسكين! يا له من برئ! فبرائته واضحه كالشمس ولا أحد يعرف ذلك أفضل مني.

جلس برونتو ووضع ساقيه الواحدة على الأخرى، ثم رجع إلى الوراء كاشفًا عن أسنانه كما كان يفعل مع النساء. وقال وهو يتحدث من أنفه:

- تتعدد الأراء يا أمي، فأنا على سبيل المثال حلمت بأنهم أعدموه.

- يا إلهي، لا! ماذا تقول يا برونتو؟ فقط بالأشغال الشاقة!

- عموماً لا يهمنا الأمر، دعونا نتحدث عن نفسنا.

قال يعقوب وهو يضع أيضاً ساقيه الواحدة على الأخرى:

- لنتحدث عن أنفسنا.

تحدثوا وأنهوا حديثهم عن عمل يعقوب، ثم خرج الرجلان سوياً، واصطحب برونتو الخادم الجديد إلى الحانة، وحيث أنه لم يكن بخيلاً، حتى وإن زاره أحد في المنزل لم يكن يقدم له ولو كوب خمر حتى لا يُغضب أمه ولكنه كان يصطحبه بعد ذلك إلى الحانة ويعامله بسخاء، شرب يعقوب وأيضًا برونتو في تلك الليلة كثيرًا حتى الثمالة.

ثم خرجا إلى الطريق المظلم الصامت حيث كانت تفوح رائحة الحقول الذابلة الكريهة. استمرا في حديثهما عن قسطنطينو، وقال برونتو بحدة أنه سعيد لإدانته، فصرخ يعقوب:

- اذهب إلى الجحيم، أنت رجل بلا قلب.

- حقاً، أنا رجل بلا قلب.

- أتتمنى الموت أو أسوأ من الموت لشخص مثلك لأن جوفانا رفضتك؟

- إنه لم يمت، وهو ليس مثلي، وأنا الذي رفضت جوفانا إيرا، وإن كنت قد أردتها أنا لقبَّلت أقدامي.

- ستسقط كطائر الربيع، أنت كاذب كخادمة جشعة.

صاح برونتو قاطعاً كلامه:

- أنا؟ لست خادمة، إن أعدت شئ من هذا القبيل سأقطع رأسك.

صاح أيضاً يعقوب:

- بوم، ألم أقل لك أنك ستسقط على الأرض كطائر الربيع؟

دوى صوتهم في تلك الليلة الصامتة، ثم سكتوا وعم الصمت من جديد، ولاحت من بعيد تلك النجوم اللامعة التي كانت تتوج جوانب الجبال السوداء كأزهار ذهبية وأطلق طائر الثبج صرخته المأسوية المعتادة.

وفجأة، شرع برونتو في البكاء، بكاء الثُمالة الغريب بلا دموع ولا نحيب، ثم سأل يعقوب بصوت خافت:

- إذاً ماذا بك؟ هل سَكِرت؟

- نعم سَكِرتُ، لعلك تموت غارقاً يا سكران يا نزيل السجون.

فثارت حفيظته لأنه لم يُسجن فقط من قبل، ولكنه لم يتم حتى اتهامه بأى مخالفة، وشعر بخوف غامض وقال بصوت خافت:

- أصابكِ الجنون، ما بك؟ لماذا تحدثني بهذه الطريقة؟ ماذا فعلت بك؟

حينئذ كشف برونتو عن السر شاكيًا كم يؤلمه جسمه، وقال أنه كان يحب جوفانا كالمجنون، ودعا دائمًا الله أن يُدان قسطنطينو.

ثم قال مُطلِقًا ابتسامة مدوية صبيانية أكثر حزنًا من البكاء الذي بكاه منذ قليل:

- حتى وإن أخذ روحي الشيطان، لا يهمني شئ فأنا لا أؤمن به. سأتزوج جوفانا.

تعجب يعقوب وأظهر دهشة أكبر من تلك التي كان يشعر بها حقا، ثم قال:

- أنا مثل رجل غريق! كيف؟ ولماذا؟ ماذا يعني كل ذلك؟ كيف سيمكنك أن تتزوج جوفانا؟

- ستطلب الطلاق، هذا كل الأمر، أليس كذلك؟ هناك قانون يسمح للمرأة بأن تتزوج في حالة حبس زوجها لمدة طويلة.

سمع يعقوب عن ذلك، ولكنه لم يسمع عن أى حالة طلاق قانوني أو حتى زواج جديد قد تم في أورلاي، ومع ذلك قال على الفور كي لا يبدو أحمقاً:

- نعم، أعلم ذلك، ولكن هذه خطيئة مميتة، وجوفانا لن تقبل ذلك.

- هذا ما يُحزنني يا يعقوب ديجاس. هل لك أن تحدثها في ذلك؟ نعم، تحدث إليها غدًا.

- نعم، بالتأكيد غداً! كم أنت أحمق يا برونتو ديجاس. أنت ثري ولكنك أحمق كالسحلية بل وأكثر حماقة منها، فبدلاً من أن تتزوج امرأة عذراء وثرية وشابة كوردة احتضنت قطرات الندى تريد أن تتزوج تلك المرأة؟ في الحقيقة، هناك ما يُضحك لسبعة أشهر.

ثم قال برونتو وقد غمره الغضب مرة أخرى:

- اضحك حتى تنفجر غيظًا كالرمانة المفلوقة. ليس هناك امرأة أخرى مثلها، سأتزوجها وسوف ترى.

فرد يعقوب ضاحكاً:

- إذًا تزوجها يا عصفور الربيع.

ثم شرع برونتو أيضاً في الضحك، فضحكا سوِّيً لفترة طويلة حتى لاح لهم رجل طويل يحمل عصا طويلة يأتي تجاههم في صمت، وسأل يعقوب:

- هل قضيتم عيد فصح سعيد يا عم إيزيدورو باني؟ كم هي طويلة ساقاك!

قال العم إيزودورو وهو يقترب:

- ليتك تكن صائد مصاصي الدماء. يا لرائحة البراندي، يبدو أنهم كسروا بعض البراميل هنا.

قال برونتو مُهدداً:

- أتريد أن تقول أننا سكرنا؟ أنت لا تسكر لأنك ليس لديك ما يؤرقك. ابتعد وإلا قتلتك، سأقتلك كالضفدعة.

أطلق العجوز ضحكة عذبة ثم انصرف. وقال يعقوب بصوت منخفض:

- إنه يستطيع أن يساعدك يا أحمق، إنه صديق جوفانا.

فصاح برونتو متجهاً ناحيته وهزَ ذراعيه قائلاً:

- احضر، احضر هنا، أريد أن أقول لك شيئاً يا سيدوري باني، أتمنى أن يعضك الكلب.

ضحك سيدوري من تلك العبارة المضحكة، ولكنه لم يتوقف.

واستمر الثَمِل في الصياح مُتمتماً بعض الشئ:

- إنني أطلب منك أن تأتي، لا تريد أن تأتي أيها التافه؟ قلت لك ...

ولكن ابتعد إيزودورو في صمت. وهمهم يعقوب:

- لا تقول له هكذا، ما هذه الطريقة؟، فغير برونتو طريقته.

اقترب يا أيها الزهرة الجميلة فلدىً ما أقوله لك، وقل لصديقتك، أقصد جوفانا، أنها إن طُلِقت سأتزوجها.

حينئذٍ توقف العجوز فجأة واستدار ونادى بصوت مرتفع:
- يا يعقوب ديجاس.
فأجابه الخادم بتهكم:
- ماذا تريد يا حياتي؟
تابع إيزودورو بلهجة أمر صارم:
- افعل أنت ذلك.

لا يدري يعقوب لماذا شعر برعشة عند سماعه هذا الصوت وتلك الكلمات، فأخذ سيده من ذراعه وسحبه بعيداً وهمس في أذنه قائلاً:
- حقاً إنك لأحمق، ما هذه الطريقة؟ أنت تتصرف كالآنعام، كطيور الربيع.
- ألم تقل لي أنت ذلك؟
- أنا؟ أنت تدَّعى ذلك. لست مجنوناً لأفعل.

ثم ذهبا معًا يترنحان حيث وصلا بين ديجاس، وعند الرواق وجدا العمة مارتينا لا تزال تغزل في الظلام، رأت ابنها قد ثَمِل، ولكن لم تقل له شيئًا حيث أدركت أنها إن عارضته في تلك الحالة سيشتشيط غضباً، فقط عندما سألها برونتو عن النبيذ أجابت بأنه لا يوجد.
ثم صاح برونتو:
- لا يوجد نبيذًا في منزل ديجوس وهو أغنى منازل البلدة؟ لن أسبب لكم فضائح، لا ، ولكنني سأتزوج جوفانا.
قالت العمة مارتينا لتهدئه:
- نعم نعم ستتزوجها، نم الآن ولا تصرخ لأنها إن سمعتك هكذا سترفضك.

صمت حينئذٍ، ولكنه أراد يعقوب أن يضع على الأرض حصيرتين ويبسطهما، ثم نام وطلب من الخادم أن ينام بجواره. تركته العمة مارتينا يفعل ما يحلو له حتى لا تثير حفيظته، وهكذا بدأ يعقوب العمل مساء السبت بدلاً من الاثنين.

obeikandl.com

بعد حوالي خمسة عشر يومًا، في صباح الأحد، التقى الجميع في قُداس البابا إلياس الذي قال عنه سكان البلدة أنه عندما كان يحتفل به كان يبدو كما لو كانت له أجنحه.

فقط جوفانا لم تحضر لسببين: أولهما هو أن المصيبة التي تعرضت لها فرضت نوعاً من الحداد جعلها لا تظهر خارج البيت إلا في حالة ضرورة العمل خارج المنزل، وثانياً أنها عشات حالة من الوهن منعتها من الحركة والخروج والعمل والصلاة. لم تكن أبدًا في حقيقة الأمر مسيحية حقه، ولكن فقط قبل محاكمة قسطنطينو نذرت بأن تذهب ولو حافية القدمين وشعر منساب إلى كنيسة بعيدة في الجبل وأن تزحف على ركبتيها منذ المكان الذي تلمح فيه الكنيسة حتى الكنيسة نفسها إذا حصل قسطنطينو على البراءة، أى حوالي اثنين كيلو متر.

فالآن لا تصلي ولا تتحدث ولا تأكل، حتى أن الطفل لم يعد يهمها كثيرًا، وكان لزامًا على العمة باكيزيا أن تُطعمه لبنًا وخبزًا طريًا حتى يكبر. قال البعض أن جوفانا فقدت عقلها، فعندما كانت تخرج من حالة البؤس التي تدفعها لساعات وساعات للانغماس في الغناء بعينيها اللامعتين المحدقتين في الفضاء، وعندما كان يبلغ بؤسها مداه، كانت تقطع شعرها وتصرخ بكلمات لا معنى لها. وبعد اللقاء الأخير لها مع قسطنطينو الذي حملت له فيه الطفل، لم تكن تفكر إلا في ذلك المشهد الذي حدث وكانت تكرره كل فترة بجنون وبلاوعى.

"كان هناك يضحك، كان شاحباً يضحك خلف القضبان.

اقترب مالثينيدو من القضبان، ولمس الأب يد طفله الصغيرة وضحك، ثم قال:

- يا قلبي، لا تضحك هكذا يا قلبي لأنك تؤلمني، حيث أنني أعلم أن ضحكتك كضحكة الميت.

وكان الحراس واقفين هناك كالخفافيش، كانوا في البداية أشخاصًا طيبين، ولكنهم أصبحوا شريرين بعد إدانة قسطنطينو، كانوا شريرين كالكلاب، وكان الأب يضحك قائلاً: أفهمتم؟

كان الطفل، ذلك المخلوق البرئ، يبكي حيث فهم أن أباه مُدان، ثم بكى. ياقلبي ياقلبي!"

تذمرت العمة باكيزيا وضاق بها ذرعًا، فقالت:

- أراكِ طفلةً ذات عامين يا جوفانا ياروحي.

وهددتها حتى بالضرب، ولكن باء كل شئ من صلوات وتعزية وتهديد بالفشل.

حينئذٍ وصلت من نورو أنباءً بأن قضية الاستئناف الخاصة بقسطنطينو قد نُقلت لمحكمة أخرى بكالياري، ثم وصلت رسالة قصيرة ومُحزنة مكتوب فيها أن كاتبها قضى سفرًا ممتعًا، ولكن الحر خانق في كالياري كما تكثر حشرات حمراء وأخرى ذات ألوان متعددة ليلاً وصباحاً، وأرسل قُبُلاته إلى الطفل طالباً من جوفانا أن تربي الطفل في خشية الله، ثم حيا أيضًا صديقها إيزيدورو.

وبعد انتهاء القُداس، انتظرت العمة باكيزيا أن ينتهي صائد السمك المسكين من ترتيل ترانيم المديح المقدسة بصوته الجهوري لكي تبلغه تحيات قسطنطينو.

كان الراهب إلياس راكعًا عند درجات الكنيسة وكان يصلي بحماس ووجهه شاحب ، كان إيزودورو مستمرًا في ترتيل الترانيم، ولكن بدأت الناس في الانصراف.

مرت العمة باكيزيا أمام العمة مارتينا بخيلاء كمهرة عجوز شجاعة، ثم مر برونتو مُرتديًا زيًا جديدًا وشعره مدهون بالزيت، وكان يتحدث بسوء عن الرهبان ولكنه كان يذهب كل أحد إلى القُداس، ثم مر يعقوب وهو يرتدي سروالاً من القماش الجديد الخشن الذي لم يتم تنظيفه لذا فكانت رائحته كريهه.

واصل إيزودورو ترتيل الترانيم. غادر الجميع الكنيسة وهو لا زال منغمسًا في الترتيل، وكان صوته الجهوري يدوي بين جدران الكنيسة البيضاء وتحت السقف القائم على دعامات وأعمدة وبين الطاولات البسيطة المغطاه بالمفارش الخشنة المزينة بالورود ، وأمامها تماثيل من الخشب الملون لقديسين بنظرات حزينة.

عندما انتهى إيزيدورو من الترتيل لم يكن هناك أحد سوى الكاهن وصبيًا يطفئ الآنوار والعمة باكيزيا ورجل عجوز ضرير.

أعاد إيزيدورو مطلع الترنيمة بمفرده، ثم نهض ودق الجرس ليعلن وقت الصلاة، ثم انصرف. انتظرته العمة باكيزيا عند الباب، فخرجا سوياً، ثم أبلغته تحيات قسطنطينو، ثم طلبت منه أن يتوسل إلى الراهب إلياس بأن يتفضل بالذهاب إلى جوفانا ويعظها ليُخرجها من حالة اليأس التي تعيشها، فوعدها بذلك، ثم انصرفت العمة باكيزيا وسارت في طريقها

حتى وصلت إلى يعقوب ديجاس الذي ظل في الدور العلوي من الكنيسة يشاهد القرية والحقول الصفراء التي تغمرها الشمس، ثم سأل الخادم العمة باكيزيا:

- كيف حالك؟

- يا إلهي، لسنا بخير حتى وإن لم نكن مرضى، وأنت كيف حالك مع أرباب عملك الجدد؟

- قلت لكِ من قبل، أليس كذلك! لقد وقعت في الجحيم، فالعجوز بخيلة كالشيطان، فهي تنهكني في العمل، ولا تسمح لي بالعودة إلى بلدتي إلا لحضور القُداس كل خمسة عشر يوماً.

- وسيدك؟

- سيدي الصغير؟ إنه حيوان، هذا هو الأمر برُمته.

- ماذا تقول يا يعقوب؟

- هأنذا أقول الحقيقة، يا طائرة الربيع، كان يغضب من أبسط الأشياء ويشرب حتى الثمالة، وكان كاذباً. هذه هي الحقيقة، ألم يقل لكم إيزودورو باني...

صمت ولم يتحدث، فحدقت فيه العمة باكيزيا بعينيها الخضراوتين وأدركت أن حديثه بالسوء عن سيده كان وراءه هدف ما، ثم قال لها:

- لقد قال لكم إيزيدورو باني ذلك، بالطبع قال لكم أن برونتو قد ثَمِل تلك الليلة، وأخذ يصرخ هنا، بالضبط هنا قائلاً: "قل لجوفانا أنها إن طُلقت سأتزوجها أنا". إنه حيوان، حقًا لحيوان، فقد كان يشرب البراندي (نوع خمر) من البرميل.

لم يشغل بال العمة باكيزيا من كل ذلك أى شئ إلا قول برونتو "إن طُلقت جوفانا سأتزوجها أنا"، ثم لمعت عيناها الخضراوتان وقالت بفخر:

- ألا تريد ذلك يا يعقوب؟

- أنا؟ ما شأني بذلك يا عصفورة الربيع؟ ألا تخجلي من أن تقولي هكذا يا عمتي التي تشبهين الِحدأة ولم يمر على حبسة أكثر من أسبوعين.

صاحت العجوز غاضبة:

- أنا لست كالِحدأة.

ضحك يعقوب، ولكن المرأة أدركت أنه استشاط غضباً، ثم قال يعقوب:

- انتظري على الأقل جلسة الاستئناف قبل أن تتخلصوا من قسطنطينو كما يُقتل الحَمل الوديع، ولكن إن فعلتم ستتزوج جوفانا من عربيد وأنتِ ستموتين جوعاً بل أسوأ طالما ظلت مارتينا ديجاس على قيد الحياة.

صرخت العمة باكيزيا:

- كم أنت أحمق!

فابتعد يعقوب على الفور واكتفت بتوبيخه بشدة. كانت تفكر بالفعل في أن تجعل ابنتها تطلب الطلاق ولم تكن تفكر في الله ولا في تعاليم المسيحية، بينما كان قسطنطينو المسكين يستغيث في سجنه الذي يشبه الفرن المتأجج و تتكالب عليه حشرات قذره، ثم قالت لماذا يتحدث هذا الخادم الحقير هكذا؟ ما شأنه بسيده؟ اعتقدت العمة باكيزيا أن جوفانا قد أُعجبت بهذا العجوز الذي يشبه غرابًا بلا ريش، وعادت إلى المنزل بتلك الأفكار الشريرة.

أرادت أن تحكي لجوفانا كل شئ، ولكنها لم تجرؤ أن تقول لها شيئاً حيث رأتها لأول مرة بعد خمسة عشر يوماً هادئة تمشط شعرها الطويل الأشعث الذي كان يتساقط بغزارة.

obeikandl.com

مرت الأيام وجاء الخريف، ثم الشتاء، وتم رفض الطعن في قضية قسطنطينو، كما كان يحدث دائمًا. وذات ليلة قيدوه هو وشخص أخر لم يكن يعرفه بسلسلة واحده، ثم أوقفوهما اثنين اثنين في طابور به رجال أخرين صامتين، يرتدون ملابس قماشية كحيوانات وديعة تسيطر عليها قوة خفية. أين سيذهبون؟ لم يكونوا يعرفون ذلك، كانوا صامتين دون أن يعرفوا السبب، ثم أخذوهم تجاه البحر وحملوهم على متن سفينة سوداء ووضعوهم في قفص وأغلقوا عليهم تمامًا كالحيوانات.

أضاءت الفنارات التي تشبه الياقوت والزمرد ذلك البحر الصافي ذو اللون الأخضر الغامق، وامتدت انعكاسات الضوء لمسافات طويلة تتراقص بين الأمواج كستائر فسفورية مُرصعة باللألئ الخضراء والحمراء، وفي الأعلى فوق هذا البحر الفسيح لاحت السماء الصافية ذات اللون الأزرق الغامق ملتوية كوادٍ ضخمٍ صامت، تزينها نجوم صفراء.

لم يكن لقسطنطينو في الساعات الأولي أى انطباعات تُشعره بالاشمئزاز، فقد كان يسير نحو المجهول، نحو مصيره الوحشي، ولكنه كان على يقين في أعماق قلبه بأنه قريبًا سينال حريته ولم ييأس قط. انتابه شعور بالفضول الصبياني أمام حركة الطاقم على متن السفينة وجَلبة السلاسل وأول حركة للسفينة فلم يكن قد سافر بحرًا من قبل. فمنذ نعومة أظافره لاح له في الأفق شاطئ البحر المتوسط الرمادي، تزينه الشراعات كالأجنحة، فكم حَلِم بأن يعبر تلك الأمواج البعيدة نحو بلدان

مجهولة ومدن القارة الذهبية وسط النباتات البرية التي تزين تلك الجبال. كات يقرأ ويكتب، ورأى في كتابه صورة لكاتدرائية القديس بطرس بروما، وفيما يتعلق بالتاريخ المقدس رأى صورة القدس.

إنها القدس. إلى القدس التي رأها دائمًا أكبر وأجمل مدن العالم التي يريد السفر إليها، وبينما كان يقف بين شجيرات جبل بيللو لاح له الشاطئ الرمادي للبحر الأبيض المتوسط. الآن عبر البحر كما رأى في المنام ولكن على نحو أخر، وكانت المشاعر التي لا تزال تراوده عن القدس رائعةً لدرجة أنه لكان سيشعر بالسعادة حتى وإن كانوا قد حملوه هناك مُقيدًا أو مُدانًا للإعدام.

تحركت الباخرة فوق الأمواج في صخب السيل المتواصل، وكان المتهمون يتهامسون فيما بينتهم، فبعضهم يمزح والبعض الأخر يضحك.

نام قسطنطيمو ورأى في المنام كما كان يحدث له دائمًا أنه عاد إلى منزله بعد أن أطلقوا سراحه منذ قليل، وأنه عاد حتى دون أن يخبر جوفانا حتى يتركها لها مفاجأة سارة لا تصدق، فلم يكن ذلك سوى حلم، وكانت جوفانا تقول:

- ولكن هذا حلم، هذا حلم! كما أن مصاريف القضية جعلتنا نبيع كل شئ في المنزل حتى الفراش.

لا شئ يهم، فكل أموال العالم لا تساوي شيئًا أمام الفرحة بالحرية وفرحة العيش مع جوفانا ومع مالثينيددو، ولكن كان قسطنطينو مُتعبًا ومُنهكًا، وكان نائمًا في مهد (فراش) الطفل الذي كان يتأرجح بمفرده بقوة تزداد رويدًا رويدًا. كان جوفانا تضحك وتقول:

- مهلاً يا حبيبي قسطنطينو لكي لا تقع، مهلاً يا عزيزي، بينما كان المهد يتأرجح به.

في البداية شرع في الضحك، ولكن فجأة شعر بالأسى وبدوار وسقط من على المهد ومال حتى سقط على الأرض، ثم أفاق شاعرًا بدوار البحر. كان البحر مضطربًا، وكات الباخرة تتحرك صعودًا وهبوطًا بين تلك الجبال المائية وكانت المياه تعلو ركاب الدور الثالث بالباخرة.

كان جميع المتهمين يعانون،بعضهم لا يزال يحاول أن يمزح وأخرون يلعنون، وكان رفيق قسطنطينو رجلاً ذو وجه أصفر رفيع يتأوه كالطفل. ثم قال بوجه يبدو عليه الخوف وهو يلهث:

- يا إلهي، حلِمت بأنني في بيتي، والآن؟ والآن يا عزيزي القديس فرنسيس رحمةً بي.

ومع أن قسطنطينو كان يشعر بحسرة وألم جسدي ومعنوي، شعر بالتعاطف مع رفيقه.

- اصبر يا أخي العزيز ، أنا أيضًا حَلِمت بأنني عدت إلى المنزل.

وقال أخر:

- أشعر كأنني فقدت روحي، ما تلك السفينة اللعينة؟ تبدو كما لو كانت تتراقص رقصات سردنيا، فشرع الركاب في الضحك من هذا التشبيه.

ثم هبت عاصفة، فكان يشعر قسطنطينو في بعض اللحظات بالموت وخشى الموت، ولكنه في الوقت نفسه شعر بألم الحياة الكبير.

بـدت روحـه تتجـرع تلـك المـرارة التـي كان يخرجهـا مـن أمعائـه مرتعـدًا، ولم يكـن قـد شـعر بيـأس كهـذا حتـى عندمـا سـمع حكـم إدانتـه، ثـم بـدأ هـو الأخـر يتـأوه ويسـب ضامـاً قبضتـه وتتلـوى أصابـع قدميـه المتجمـدة مـن الألم، ثـم قـال وعيناه تدمع بتلـك المـرارة التـي كثـيرًا مـا تجرعهـا فمـه وفاضـت بهـا روحـه:

- كـم أتمنـى أن تمـوت هكـذا كـما أمـوت أيهـا الكلـب القاتـل كـما دمرتنـي.

هـدأت العاصفـة بحلـول الفجـر، ولم يهـدأ قسـطنطينو حتـى بعـد أن انتهـى شـعوره بـالألم، فبـدا لـه كـما لـو كانـوا أبرحـوه ضرباً حتـى المـوت، وأنـه كان يرتجـف مـن البرد والضعـف والخـوف.

شـقت الباخـرة البحـر دون توقـف، كـم كان يتمنـى أن تتوقـف ولـو للحظـة! كـم كانـت تكفـي قسـطنطينو لحظـة هدنة لاسـتجماع قـواه المفقـودة، ولكـن سـيرها المسـتمر ودورانهـا في عـرض البحـر والصخـب الناتـج عـن الأمـواج المتلاطمـة بشـدة جعلـه كل هـذا يرتجـف بشـدة دون توقـف. سـارت الباخـرة وتابعـت سـيرها وقـضى الـركاب سـاعاتًا طويلـة مـن الحسرة، وبحلـول الليـل كان رفيـق قسـطنطينو ذو الوجـه الأصفـر الرفيـع لايكـف عـن البـكاء مـما أثـار حفيظتـه وأشـعره بالحسرة حتـى اسـتطاع أخـيرًا أن يخلـد إلى النـوم، ولكـن ثمـة شـئ غريـب راوده في المنـام، لقـد كان نفـس حلـم الليلـة الماضيـة، ولكـن هـذه المـرة كانـت جوفانـا عابسـة الوجـه وكان فـراش الطفـل يتأرجـح بلطـف.

عندمـا اسـتيقظ قسـطنطينو بـدت الباخـرة لا تـزال تتحـرك في ذلـك الصمـت الـذي يسـود وقـت الفجـر، وسـمع صوتًـا مـن خارجهـا يقـول:

- هذه جزيرة بروشيدا.

ارتجف من البرد، ثم تسائل إذا ما كانوا سيحملوه إلى جزيرة بروشيدا حيث بدا له أنه قد سمع أن السجن هناك، كما استيقظ أيضاً رفيقه مُرتعداً وأخد يتثائب لفترة طويلة.

ثم سأل قسطنطينو:

- هل وصلنا؟ كيف حالك؟

- كل شئ على ما يرام، هل وصلنا؟

- لا أعلم، نحن بالقرب من بروشيدا. هل السجن هناك؟

قال الأخر بكبرياء ثم تثائب:

- لا إنها جزيرة نيسدا، ولكننا لسنا محكوم علينا بالسجن.

ثم أضاف ولكنه لم يتابع حديثه عن الحلم وقسطنطينو لم يقل شيئًا أخر:

- يا إلهى مما حلمت به.

هبط المتهمون في نابولي، ووضعوهم في عربة ضخمة تجمع بين اللون الأسود والأصفر كمقبرة متحركة وأغلقوا عليهم.

لاحت لقسطنطينو صورة ذلك البحر الكبير الساكن الأخضر، تملأه بواخر ضخمة وقوارب على متنها رجال بذيئة تصرخ بكلمات غير مفهومة، وحول القوارب كانت هناك أعشاب صفراء في هذه المياه الخضراء وقشر برتقال وورق وقمامة، ومباني ضخمة شديدة الزرقة.

في نابولي تم فصل المتهمين عن بعضهم، وحُكم على قسطنطينو بالحبس في سجن ما ولم يعد يرى رفيق سفره الحزين ذو الوجه الأصفر النحيف.

وصل المتهم إلى مصيره، ووضعوه في زنزانه حيث سيظل في عزلة لمدة ستة أشهر، وكان طول الزنزانة مترين وعرضها

سبعة أقدام، وكان هناك سريرًا غريبًا قابلاً للثني يتم غلقه ووضعه على الحائط نهارًا، ومن النافذة لاحت فقط صورة السماء.

كانت هذه هي أتعس أوقات إدانة قسطنطينو، ظل ساكنًا لساعات طويلة، جالسًا يضع ساقيه الواحدة فوق الأخرى، ويُشبك يديه حول ركبته، كان يشعر بالوحده، ولكنه لم ييأس قط، فقد كان مقتنعًا بأنه يُكفر عن خطيئته المميته كما كان يسميها وهي أنه عاش طويلاً مع امرأة لم يتزوجها وفقًا لتعاليم الدين، وكان دائمًا على يقين يغمر أعماق قلبه وهو أنه سوف ينتهي يومًا ما تكفيره عن خطيئته وستظهر برائته وسيُطلق سراحه.

كان يشعر حينئذٍ بالمعاناه حتى وإن لم يكن يائسًا، فكان يعد الأيام والساعات والدقائق أسير هذا الانتظار المُنهك أملاً في أن تتغير أشياءً لن تحدث أبدًا وأخذه حنين من أعماق قلبة أربكه.

ارتبطت دائمًا ذاكرته يوم بعد يوم وساعة بعد ساعة ودقيقة بعد دقيقة بجوفانا وبطفلهما، وتذكر بعمق كافة اللحظات الخاصة المرتبطة بالمنزل وبحياته الماضية وبلحظات السعادة التي عشاها، وفضلاً عن ألمه كان يعاني بسبب ألم جوفانا. كان يشعر بالحنين إليها أكثر من حنينه إلى طفله، وكانت تلك المشاعر تخرجه من سكونه الصامت، فكان يقفز على قدميه مُسرعاً الخُطى، وحيث أنه كان يسير خطوة أو خطوتين كان يقف كثيرًا ويفرك بشدة في رأسه ساندًا ظهره على الحائط وكأنه يريد أن يكسره وكانت هذه هي أكثر اللحظات بؤسًا.

أدرك بعد ذلك ولاحت بفكره أحلام الحرية الرائعة الخيالية، ففي كل مرة كان يدخل فيها الحارس، كان يشعر قسطنطينو بخفقان قلبه مُنتظرًا النهاية السعيدة.

كان يلعب أحيانًا بمفرده لعبة تحريك الأصابع مُتوقعًاً الهزيمة أو الفوز، ثم كان يضحك بعد ذلك بينه وبين نفسه كالطفل، وأحيانًا أخرى كان يتأمل طويلاً كف يده المفتوح وتخيله سهلاً كبيرًا مُقسمًا إلى جدران وأنهار وأشجار ورعاه خلقت لهم حياةً من المغامرات المثيرة. كان يصلي وهو يعد على أصابعه، ويرتل ترانيم المديح بصوت مرتفع مُحاولاً أيضًا أن يرتجل أبيات شعر ديني.

وهكذا ألف قصيدة مديح مكونه من أربعة مقاطع شعرية مهداه إلى القديس قسطنطين، يوصي فيها بشكل خاص القديس بالمتهمين الأبرياء.، وكان يقول مطلع القصيدة:

- من فضلك يا قديس قسطنطينو.

- رفقًا بالمتهمين الأبرياء.

شغله تأليف قصيدة المديح بشكل كامل أيامًا طويلة وجعلته يشعر ببعض السعادة، وعندما انتهى من تأليفها شعر بسعادة عميقة، ثم شعر فورًا برغبة في الإخبار بأنه ألف قصيدة مدح، ولكن لمن يقول؟

كان الحارس رجلاً صغير الجسم من نابولي، أصلعًا بلا لحية، أطفس الآنف كما لو كانت أنف هيكل عظمي، وكان يتحدث أحيانًا مع المتهم، ولكنه لم يكن بإمكانه أن يفهم المديح.

وفي وقت الراحة لم يكن مسموحًا على الإطلاق للمتهم المعزول أن يوجه أى كلمة لرفاقه، لذا فطلب أن يعترف ليلقي قصيدة المدح أمام المسؤول أى كاهن، الذي كان شابًا ذكيًا من

الشمال، سريع الحركة، طويلاً ونحيفًا ورشيقًا وعيناه سوداء جميلة. استمع إلى قسطنطينو بصبر وطلب منه ترجمة قصيدة المديح، ثم سأله إذا ما كان يريد الاعتراف ليمكنه أن يلقي هذه الأبيات هل أخطأ خطأ بسيط، فوَجِل قسطنطينو وقال لا. ابتسم كاهن الاعتراف بلطف وأعطاه ردًا أراحه، حيث أثنى على الأبيات وجعله ينصرف تغمره السعادة. طلب المتهم أن يعترف مرة أخرى بعد بضعة أيام، فسأله الكاهن بلطف:

- هل ألَفت قصيدة مديح أخرى؟

قال المتهم وهو ينظر إلى الأرض:

- لا، جئت لأطلب منك معروفًا.

- ماذا تريد؟ أسمعك.

ظل قسطنطينو دون أن يلتقط أنفاسه للحظه، يتملكه الخوف من أن يطلب طلبه، ثم قال بسرعة:

- أريد إرسال القصيدة إلى بلدتي.

قال كاهن الاعتراف:

- لا يمكنني أن أفعل ذلك. ومن ناحية أخرى كيف سيمكنك أن تكتب المديح؟

تعجب المتهم رافعًا عينيه الصافيتين:

- يمكنني الكتابة.

- حسنًا، لا أتحدث عن ذلك يا أخي، ولكن غير مسموح لكم بالكتابة.

- سأنظم أنا ذلك.

- حسنًا حسنًا، ولكنني لا أستطيع.

شعر قسطنطينو بالحزن وتوقف عن البكاء لبرهة من الوقت واعترف، ثم سأل إذا ما كان من الأفضل تخصيص قصيدة المديح للقديسين بطرس وبولا اللذين سُجنا، ثم اعتذر لكاهن الاعتراف على أنه تجرأ وطلب هذا الطلب.

اعترف الكاهن الشاب ببرائته ودعا له لوقت طويل بصوت مرتفع، بينما كان المتهم يدعو بصوت منخفض، ثم أمرر يده على رأسه وقال بهدوء:

- انصتّ، تفضل بكتابة قصيدة المديح، واكتبها جيدًا إن أمكن.

غمر المُتهم شعوربالسعادة، فمنذ هذه اللحظة لم يعد يفكر إلا في كتابة القصيدة.

وقال للحارس:

- لقد درستُ،ولكن يمكنني أيضًا تصنيع الأحذية. أتود أن أصنع لك زوجًا؟ استريح!

أجابه هذا الشاب بلهجة نابولي:

- أنت تريد شيئًا، أنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا.

- كن طيبًا يا عم سيرافينو، وفكر في الروح الخالدة.

- أنا أفكر في ذلك، ولكن قلت لك بالفعل أنني لست عمك، فعمك أنت قتلته.

- إن هذا الأمر لا يهم، فنحن ندعو الأشخاص المهمين بلقب "عم".

مع ذلك كان السيد سيرافينو يريد أن يسمع ذلك اللقب الذي لم يستطع قسطنطينو أن يناديه به حيث أن هذا اللقب يرتبط فقط بالنبلاء في سردينيا، وفي هذا اليوم لم يتوصل إلى شئ.

عاد المتهم في اليوم التالي إلى ما كان عليه، وقال أنه من أسرة نبيلة وأنه قد درس، وأن عمه الذي يتهمونه بقتله أجبره على العمل كإسكافي بعد أن استولى على جزء كبير من ميراثه وحبسه في غرفة مظلمة وذات مرة مزق قدمه بأكملها.

أراد قسطنطينو أن يريه قدمه، فهز السيد سيرافينو رأسه باستياء، ثم لعن بصوت منخفض عمه المتوفى المتوحش، وتمكن قسطنطينو من الحصول على قطعة ورق، وكتب بدمه بغصن شجرة أبيات المديح التي تدعو إلى حماية المتهمين.

حل الشتاء، وفي إحدى أيام شهر مارس وصلت إلى زنزانة قسطنطينو حملة تفتيش يقودها رجل بدين ذو عينين كبيرتين زرقاوتين صافيتين مستديرتين وساكنتين، وكانت ذقنه قصيرة وشاربه الأشقر يغطي وجهه بالكامل.

صاح في وجه المتهم:

- وأنت ماذا تستطيع أن تفعل؟

كان هناك أيضًا السيد سيرافينو مُتجهًا إلى المتهم بوجهه الذي يشبه الهيكل العظمي، فأجاب المتهم مُتذكرًا كافة الأكاذيب التي رواها للحارس بأنه يمكنه تصنيع الأحذية.

قال الرجل البدين ذو العينين الساكنتين:

- أنت الذي قتلت عملك؟

لم تكن لهجته مفهومة بشكل يسمح بالرد، ففتح قسطنطينو ذراعيه ولسان حاله:

- نعم أنا الذي قتلت عمي إن كان هذا يروق لسيادتكم.

انصرفت حملة التفتيش، ثم أخبر السيد سيرافينو بعد ذلك بقليل قسطنطينو بأنهم سيخرجوه من الزنزانة خلال وقت قصير وسيخففون مدة حبسه الانفرادي لتقل إلى أكثر من ثلث مدة الحكم. اعتقد قسطنطينو أن سبب ذلك يرجع إلى حسن سلوكه، ولكن السيد سيرافينو وثق به وتوسط له لدى أشخاص ذات سلطة قائلاً لهم أن المتهم من أسرة من النبلاء وأن قدمه ممزقة وأنه يستطيع صنع الأحذية.

وبعد بضعة أيام وُضع قسطنطينو في عنبر وبدأ يعمل إسكافي مع متهمين أخرين، واستطاع في تلك الأيام أن يُرسل أخباره إلى جوفانا حيث كان قد وعدها بأن يكتب لها كل ثلاثة أشهر.

منحته هذه الظروف سعادة مؤقته، وبحلول الربيع شعر المتهمون الذين كانوا قد عانوا كثيرًا من البرد بالسعادة. كان الجميع يمزحون دائمًا في العنبر الذي كان قسطنطينو يعمله به، ولكن كان هناك فقط أخان من أبروتسو يتشاجران دائمًا كل منهما من أجل مصلحته بعد إدانتهما أى بعد عشر سنوات بعد أن كانا قد طلبا أن يعملا سويًا. ذات يوم تطاولا على بعضهما بالضرب، فأُخذ أحدهما بعيدًا وحُكم عليهما بالحبس لمدة أسبوعين في الزنزانة حبس انفرادي، وعندما رأوا بعضهما مرة أخرى في وقت الترويح أى في الوقت الذي يكون فيه المتهمين أحرارًا للخروج إلى الفناء، كانوا لا يزالون يتشاجرون.

أثناء وقت الترويح،استطاع قسطنطينو التعرف على إحدى أبناء بلدته الذي كان من سردينيا والذي كانوا يطلقون عليه "الشايب" ربما لأنه كان له هيئة مثلثية الشكل، وكان جسمه ضخمًا وساقيه صغيرتين رفيعتين، له لحية وشاحب الوجه، وكان يحلق شعره بطريقة تشعرك بأنه أقرع.

كان من كبار رجال الأمن السابقين وكان مُتهمًا بالاختلاس، كما قيل أنه تجمعه صلة قرابه بأحد الكرادلة وهو صديق سري للملك والملكة، لذا فكان يتوقع من يوم لأخر البراءة، ولم يقتصر الأمر على ذلك، ولكنه كان يعد بمساعدة المتهمين الأخرين الذين كانو يهدونه سجائر وأموال وطوابع. كما كان موظفًا في هيئة الكتبة وبالتالي فكان بإمكانه التواصل مع الخارج وتشجيع بعض المراسلات السرية للمتهمين بأقاربهم،

كما استطاع تقديم أموال وتبغ وطوابع وخمور والتربح منها بشكل كبير. وقد قدَّم لقسطنطينو خدمة كبيرة، فسأله إذا ما كان يرغب في إرسال بعض الخطابات إلى بلدته، فرد الشاب:

- نعم! ولكنني لا أملك شيئًا لأعطيه لحضرتك، أنا فقير.

فرد الأٍخر بسخاء:

- حسنًا لا يهم، فنحن من نفس البلد.

وعلى الفور حكى له عن مروءته وشجاعته كضابط، فقد قضى على أكثر من عشرة من قطاع الطرق وحصل على عشرة ميداليات، وأنه كان إحدى المرات في روما فأرسله الملك لمباشرة شؤونه، وفي مجمل القول كان بطلاً، ولكنه لم يتحدث قط عن أٍخر عمل شجاع قام به، بل قال فقط أنه كان محبوسًا بسبب أعدائه الحاسدين. في البداية وثق قسطنطينو به وشعر بتعاطف كبير تجاهه على الرغم من شخصيته الشكاكة، ولكن حيث أن حكايات الضابط تنوعت من يوم لأخر وأصبحت مُبالغ فيها، كان هو الأخر (ككافة المتهمين الذين يحتقرون الشايب ولكنهم ينافقوه لأنه يخدمهم) لا يقدره.

كما أدرك أن كافة من هم بالداخل بما فيهم الحرس كاذبون ومنافقون. كان المتهمون بحاجة إلى إخفاء هويتهم الحقيقية وأن يتخيلوا أشياءً خيالية تتعلق بالماضي والمستقبل وأن يعظموا من أنفسهم في عيون رفاقهم في هذه المحنة. إن هذا المصير الذي جمعهم في هذا المكان البغيض رغم أنفهم لم يثير أو يترك بداخلهم أى شعور متبادل بينهم.

لاحظ قسطنطينو باندهاش أن المتهمين ذوي العقوبات الكبرى هم الأقل سوءًا على الرغم من أنهم هم الأكثر فسادًا وكذبًا. وهناك من المجرمين من يكرهون بعضهم وهم أقل

إجراماً وأكثر وضاعة حيث كانوا يتجسسون وأخرون يخدمون بعضهم البعض طالما كانت بينهم مصالح، ويخونون بعضهم إذا لزم الأمر، ولم يحبوا أبدًا بعضهم.

وسيطر فساد كبير تقريبًا على كافة المتهمين، فالكثير منهم متهمون حقيقيون يرتكبون كل رذيلة حتى أن الهواء نفسه كان موبوءًا. إن الإنسان الذي يتم محوه من المجتمع وسلب حريته في أماكن التعذيب يفسد تمامًا ويفقد كل معنى أخلاقي، ويصبح كاذبًا وحقيرًا ووحشيًا وفاسدًا دون أن يعي هذا الفساد، ثم أخذ يحكى قصصًا مخيفة وتابع قائلاً:

- أرى أننا نحن الاثنين فقط هنا بالداخل نتصف بالأمانة (عنق البطة والمفوض)، أما الأخرون كافتهم فمجرمين، احترس منهم يا قسطنطينو يا ابن بلدي العزيز، إنه عرين من لصوص أسوأ من هؤلاء الذين أرسلتهم إلى الجحيم.

كان قسطنطينو أحيانًا يشعر بالخوف مُعتقدًا أنه إن كان مثل الشايب الذي يدعي الأمانة فهذا أمر لا يُشعر بالسعادة. كان (عنق البطة)، كما كانوا يسموه، طالبًا من صقلية، محمومًا، شعره أبيض ورقبته طويله وجسمه كجسم صبى، وكان كثير القراءة وخجولاً، فتقريبًا لم يكن يتحدث أبدًا، وكان يترك نفسه أحيانًا فريسة للغضب الشديد، الذي بسببه ألبسوه زي المجانين لتقييده والذي كان المتهمون يسمونه (أحضان إيرميلينيدا) حيث كان قد قتل أستاذًا له. وكان المفوض أيضًا من الجنوب، متهماً بالابتزاز، وكان يبدو رجلاً مهذبًا ذو صدر كبير وقوي ورأس كرأس النبلاء وأنف كبيرة كأنف اليونانيين وشفه صغيرة بارزه ومُشققه، ويبدو على وجهه الازدراء ولكن عندما تقترب منه تجده بشوشًا ومتواضعًا، كما كان أيضًا على حد قوله

يتمتع بحماية كبيرة وبالغة، ولكنه أيضاً كان مُضطهداً من قبل أشخاص رفيعة المستوى تحديدًا من قبل إحدى الوزراء.

بمرور بعض الوقت وبعد قراءته العديد من الكتب العلمية التي أهداها له الطالب، كرث نفسه لتأليف عملاً علميًا كبيرًا حيث أنه كان ينضم هو أيضاً لهيئة الكتبة وكان بإمكانه أن يعمل سريًا لحسابه. وكان الشايب يقص طرائفًا عن ذلك، وروي لقسطنطينو قائلاً:

- هاهو ذاك الرجل الذي سيكون في خدمتنا، فنحن نتراسل كل يوم واتفقنا على بعض الأشياء، ولكن علينا أن نكون حذرين وإلا فالويل لنا حتى لا نفسد عمله بأكمله، هذا العمل الذي يعد اكتشافًا علميًا حقيقيًا. يمكنني أن أخبرك بالشخصيات الأساسية فيه، وكيف يتشكل مناخ العمل أى جو العمل. وكيف تشكل محيطه أى كافة البحار، وأصل العالم العضوي، فضلاً عن الدليل العلمي لإثبات وجود قارة قديمة في المحيط الهادي، واحتمالية أن تكون البشرية قد نشأت في هذه القارة، وعاشت طفولتها في هذه المناطق الاستوائية، والهجرة إلى أفريقيا وأسيا، واندثار هذه القارة بعد حدوث كارثة كبرى، ووصف هذه الكارثة بالطوفان التوراتي، وظهور القارات الأخرى، ونهاية الغلاف الجوي والمحيط والقمر والأرض. ثم ابتسم قسطنطينو الذي لم يفهم من كلامه إلا القليل وكان يعتقد أن الشايب يروي أكاذيبًا كعادته ثم قال:

- ونهاية الحبس؟

ولكنه كان بحاجة إلى من يسمعه فتابع بهدوء قائلاً:

- انتظر! فالفصول الأخرى للعمل هي: التوسع في المذهب التطويري المقبول اليوم، وتطور قضية تجسيم الإنسان في صورة قرد، وأسباب ميل محور الكواكب ما عدا زحل، وأسباب ما

نسميه بالشذوذ، والبقع الشمسية وغيرها، ثم قال قسطنطينو وهو يتثائب:

- اذهب إلى الجحيم.

ثم سأل بصوت مرتفع ناظرًا حوله في الفناء القاحل الذي تتدفق فيه نافوره:

- وماذا عن غراب العقعق اليوم؟

وكان يشير إلى غربان العقعق الذي تم ترويضه والذي كان يعيش في هذا المكان، مُتخم بالطعام الذي كان يعطيه له المساجين، فيصبح سيمنًا ويشعر بالنعاس، وعندما كان يشعر بالجوع كان ينادي بعض المتهمين بأسمائهم بصوت غريب يخرج من أنفه، ثم قال الشايب:

- حسنًا سوف نصطاده! ما شأنك بالطائر؟ أنت يا قسطنطينو كالأطفال، فأنت لا تستطيع فهم النجاح الذي سيحققه عمل المفوض. لقد تحملت أنا بشكل غير مباشرالعبئ الكبير أثناء اكتشافاته هذه حيث أنني أنا الذي جعلته يراسل الطالب الذي يشبه (عنق البطة)، كما استطعنا أنا نرسل ملخص العمل إلى الخارج وكتبنا إلى رئيس الوزراء الإيطالي، ولكن انظر! ثم قرأ هذا المُلخص عالِمًا كبيرًا وقال: "إن هذا العمل هو أكثر أشكال العبقرية الإيطالية". صدقني يا قسطنطينو، يا ابن بلدي العزيز، المفوض على علاقة بأشخاص رفيعة المستوى، فيعرف أشخاصًا ذات سلطة اتجهت إلى روما خصيصًا للحصول على مساعدة شخصيات بارزة، ولكن كان له أيضًا أعداءً ذوي سلطة، ولكن عمله هذا سوف يجعله ينال حريته قريبًا.

كانت أحاديث رفيق قسطنطينو تجعله يشعر بالملل، ولكنه كان يتظاهر بالإنصات إليه حتى لا يفقد وده حيث كان ينتظر ردًا على خطاب كان قد أرسله إلى جوفانا.

وصل الرد على خطابه هذا في مايو، مما غمره بالسعادة. كتبت جوفانا في ردها على خطابه أن الطفل كان قد مرِض قليلاً ربما بسبب الأحزان التي عانت منها والتي كانت قد أفسدت كل شئ ولكنه الآن بخير.

تلقى إيزيدورو باني في سان قسطنطينو أبيات المديح المكتوبة بالدم وهو يبكي وهو يغنيها في الكنيسة في حضور الجميع. لم يكن أحد يعرف من كتب هذه الأبيات، وقال إيزيدورو أنه تلقاها من رجل عجوز بلحية طويلة بيضاء كان يرتدي زيًا أبيض، كان قد ظهر له يومًا ما على شاطئ النهر حيث كان يُعتقد أنه القديس قسطنطين أو المسيح عيسى بشخصه.

عمل يعقوب ديجاس في خدمة أقاربه الأثرياء، وكان محامي نورو قد صادر منزل المتهم وسمح للنساء بالبقاء فيه مقابل دفع إيجار بسيط. كانت عائلة ديجاس الثرية تثقل العمة باكزيا وجوفانا بالأعمال، فهكذا كانا يمضيان قُدمًا. توفى بيترو بونيا بسبب مرض الجمرة، و قد تزوج من أنيكا التي كانوا يطلقون عليها "صاحبة الأكتاف الفضية"، وكانوا قد ألقوا القبض على راعي عجوز لقيامه بسرقة خلية نحل.

كان خطاب جوفانا بأكمله مليئًا بكافة هذه الأخبار الصغيرة، مما كان يملأ نفس قسطنطينو بالرضا والمتعة والاهتمام.بدا له كما لو كان يستنشق هواء بلدته ويرى الأحجار والبقاع البرية والأشخاص والأشياء التي ارتبط بها قلبه بشدة.

فقط ما كان يؤسفه هو ذهاب جوفانا للعمل لدى عائلة ديجاس حيث كان يعلم مشاعر برونتو تجاهها وطلبه بالزواج منها الذي تم رفضه، فغمره شعور غامض بالخوف. كانت جوفانا ترسل له ثلاثة جنيهات داخل كل خطاب، وحيث أنه كان يعتقد أن هذه الأموال تأتي من منزل ديجاس لم يكن

يتلقاها عن طيب خاطر، ثم عرض على الشايب جنيهين منها على اعتقاد منه أنه سيرفضهما، ولكن ابن بلده هذا أخذهما وقال أنهما يلزمان كأتعاب للشخص المُكلف بهذه المراسلات السرية.

ربما كان قسطنطينو سيغضب من هذا التصرف إن كان في ظروف أخرى، ولكنه في هذا الوقت شعر بالحاجة إلى الكتابة لجوفانا وإلى التواصل مع عالمه الصغير البعيد مُستعدًا أن يهب نصف حياته ثمنًا لذلك شريطة أن يساعده الشايب على ذلك.

قرأ الخطاب وأعاد قرائته حتى حفظه بأكمله، وفي الصباح أخفاه في نعل حذائه الذي كان يفك خياطته بالليل ويعيدها من جديد، وبينما كان يعمل صامتًا كان يفكر باستمرار في الأحداث والأشخاص المرتبطة ببلدته البعيدة.

وأحيانًا كان ينغمس تمامًا في تفكيره مما ينسيه الواقع. فكان يتخيل الراعي العجوز الذي كان يتسلل إلى خلايا النحل بحرص، ووجهه ويداه مُغطيان بخُرق. المكان هو الصحراء المشمسة وحقول خضراء تزينها أزهار وورود فاتنة وأخرى مليئة بالعسل والبازلاء ذات الرائحة الطيبة تمتد لمسافات شاسعة. وفي هذا الصمت الرهيب، يُسمع طنين النحل على رائحة أريج النعناع البري القوية والفواحة والأعشاب العطرة.

تابع قسطنطينو إلى حد ما بقلق ما كان يقوم به اللص العجوز الذي كان يفصل من الحجارة المسطحة التي كان يسند عليها خلايا النحل من لحاء الأشجار ثم يربطها جميعا ببعضها البعض بحبل، ثم يضعها في زكيبة ويحملها خارج السياج. لم يكن يعرف قسطنطينو ماذا فعل اللص، وبينما كان مُنغمسًا في تخيلاته سمع صوتًا غليظًا غريبًا حادًا في الفناء يقول:

- قسطنطينو! قسطنطينو!

فاستيقظ حينئذٍ من حلمه وعاد إلى الواقع، كان طائر العقعق السمين المستدير يحلق فوق الفناء رويدًا رويدًا مُرفرفًا بجناحيه الزرقاوين.

وفي الليل وضع المتهم الخطاب تحت رأسه واستانف أحلامه، فسمع صوت صديقه صائد السمك الجهوري وهو يُرتل أبيات المديح، وأحيانًا كان يفكر ماذا إذا لم يكن إيزيدورو قد رأى حقًا على شاطئ النهر بين أشجار الدفلي المنحدرة تحت باقات الزهور الوردية، هذا الشخص العجوز الذي كان يرتدي ثوبًا أبيضًا، وله لحية بيضاء طويلة كصوف جدى حديث الولادة.

لقد كان هو القديس الحامي، القديس قسطنطين الطيب الذي ظهر في شكل رجل عجوز ذو بشرة بيضاء كبطريرك مع أن تمثاله في كنيسة القرية يصوره كمحارب ذو وجه أسود، وقد ظهر لإيزيدورو ليقول له أنه يفكر في المتهمين الأبرياء، وربما كان سيمنحه هذا القديس العجوز حريته قريبًا. بارك الله فيك أيها القديس العظيم قسطنطين!

ثم تغيرت الصورة، فنحن في منزل عائلة ديجاس الأثرياء حيث يُغزل الصوف ويصبح خيوطاً طويلة جاهزة للنسج. كانت جوفانا تذهب وتأتي ممسكة ببكرة الخيط الكبيرة في يدها، بينما كان يجلس برونتو على عتبة باب المطبخ بساقيه المفتوحتين وبينهما يقف الصغير مالثيندو معتدلاً ضاحكًا يترنح. لقد كان ذلك مروعًا، ولكن سرعان ما تذكر قسطنطينو أن برونتو لا يتواجد أبدًا في البلدة أيام العمل، وكان يستيقظ على خفقان قلبه الغارق في شعور مُحير بين الألم والسعادة.

الفصل السابع

حـلَ الصيـف. قالـت العمـة مارتينـا وهـي تغـزل في رواق الشـقة:

- كـم يمـر الوقـت سريعًـا، يبـدو كـما لـو كنـت بـدأت العمـل لدينـا أمـس يـا يعقـوب، وهـا أنـت الآن تعـود لتجديـد عقـدك. كيـف يمـر الوقـت علينـا نحـن السـادة المسـاكين! أنـت احتفظـت لنفسـك بثلاثـين جنيهًـا فضيًـا وتـشرع في بنـاء منـزل لـك. ولكـن مـاذا يبقـى لنـا؟

أجاب الخادم وهو يُلمع حزامًا من الجلد:

- تبًـا لـكِ. تسـتطيعون التحـدث جيـدًا كيفـما شـئتم. وعَرَقـي يـا مـن تشـبيهين طائـر الربيـع، ألا يعنـي لـكِ شـيئًا؟

- ومـا تأكلـه أنـت لا تضعـه في الحسـبان؟ إذًا أنـت لا تضعـه في الحسـبان؟

فكـر يعقـوب مليًـا وأراد أن يشـتم بصـوت مرتفـع ولكنـه لم يجـرؤ، ثـم قـال:

- تباً لكِ.

لقـد كان يكـره بالطبـع سـادة البيـت، فـكان يكـره العجـوز البخيلـة والشـاب الغاضـب الـذي كان يضايقـه دائمًـا بحديثـه عـن مـشروع زواجـه مـن جوفانـا إذا طُلِقـت، ولكـن العجـوز ضعطـت عليـه فجـدد عقـده وصمتـت، ثـم قالـت لـه:

- لمِـع جيـدًا الحـزام. فثنـى يعقـوب الحـزام وعلقـه في المطبـخ وطلـب مـن المـرأة العجـوز السـماح لـه بالانـصراف لإنهـاء عمـلاً يخصـه، فأذنـت لـه عـلى مضـض.

بينما كان الخادم ينزل تجاه بيت عائلة إيرا رأى ملثينيددو الصغير يمتطي فرسًا، يترنح تمامًا في ثوبه الأبيض المتسخ وساقيه وذراعيه العاريين وقد اكتسبا لون الشمس الذهبي، فانحنى الخادم وفتح ذراعيه ومنع الطفل من متابعه السير، ثم سأله مدللاً:

- أين سنذهب؟ ألم ترى الشمس الحارقة؟ عد إلى المنزل وإلا أتت ماريا بيتينا لتخطفك وتحملك إلى الغول.

صرخ الطفل وهو يضرب على فرسه المصنوع من القصب:

- لا لا

قال يعقوب خافضًا صوته وعيناه تكاد تكون مغلقة مُشيرًا إلى الرواق:

- يا صغيري، هناك العمة مالثينا، تأكل الأطفال لكي لا تأكل الخبز، هل تراها؟

بدا الصغير مقتنعًا بكلامه، وترك يعقوب يقوده إلى المنزل، ولكنه أصر أن يسير ممتطيًا فرسه المصنوع من القصب.

كانت جوفانا تقوم بالخياطة خلف الباب، كانت بدينة ذو بشرة وردية ونضرة كما لو لم تكن قد عاشت تجربة مؤلمة، وكان شعرها اللامع الممدوج يغطي جبهتها الجميلة، وعندما رأت يعقوب مع الطفل رفعت رأسها وابتسمت. قال الخادم:

- ها هو الطفل أعيده إليكم، كان يسير في الشمس ذاهبًا إلى العمة مالثينا التي تأكل الأطفال لكي لا تأكل الخبز.

قالت جوفانا:

- انصرف، لا يجب أن تُقال هذه الأشياء للأطفال.

- ولكني أقول هذه الأشياء أيضًا للكبار لأن العمة مالثينا تأكل أيضًا الكبار، احترسي حتى لا تأكلك، كما أنك يا جوفانا إيرا تبدين كتفاحة ناضجة من شجرة السفرجل، لا فتفاح

السفرجل أصفر اللون، لا أنتِ تبدين...

قاطعته وهي تضحك:

- كالتين الشوكي.

- والعمة باكيزيا؟ ألا تزالون بلا أخبار عن قسطنطينو منذ وقت طويل؟

اختفت ضحكة جوفانا وأجابت بغموض بأنها لم تتلقى أخبارًا عن زوجها المتهم من وقت طويل، ثم تابع حديثه دون الاصرار على معرفة هذه المعلومات:

- حسنًا، هل تعرفين إذا ما كان إيزيدورو باني بالبلدة أم لا؟ لا بد أن أتحدث معه.

أجابته وهي تستأنف الخياطة بكل جدية:

- إنه بالبلدة.

انصرف مُنغمسًا في التفكير، ونزل إلى الشارع مُتجهًا إلى منزل إيزيدورو باني إذا أمكن أن نسميه هكذا، فكان يسكن في الجانب الأخر من القرية.

يجب أن نذكر لإيزيدورو كتريم له أنه كان يصطاد أيضًا سمك السلمون المرقط وسمك الجريث عندما كانت تواتيه فرصة الجلوس مستريحًا وفي يده شبكته في الظلام التي تغمر بيته. كان هذا المنزل المنعزل عن باقي المنازل والكائن ناحية المزارع عبارة عن مبنى قديم مصنوع من قطع حجر الشست، ربما يعود المنزل إلى الوقت الذي كان يبني فيه الناس بيوتهم بالأحجار الطبيعية لأنهم لم يكونوا يعرفوا تقطيع الحجارة بعد، ويغطيه القصب و تنمو على حجارته نباتات ذابلة.

غربت الشمس بعد ظهيرة حارقة لم تحرك فيها ولو ورقة واحدة من أوراق الأشجار المغبرة الساكنة في تلك القرية

القاحلة المهجورة، وتلك الهضبة الصفراء التي تتخللها ظلال مائلة، الساكنة في ضوء الغروب الأحمر، وتلك الجبال الأرجوانية الغريبة التي تبدو كتماثيل حمراء ضخمة مُغطاه بأوشحة بنفسجية تبزغ في سماء وردية متوهجة. وفي هذا الصمت الرهيب، سُمع صفير طائر الشحرور "الطائر الأسود" من بعيد، وكانت هناك نباتات التين الغير ناضجة والتي تنبثق من الأوراق الجافة المائلة إلى السواد، وسياج من أشجار الروبينيا البرية التي تتشابك أوراقها الكثيفة المائلة إلى اللون الأبيض يحيط بمنزل صائد السمك، ومن الباب حيث كان يجلس لاحت له في خلفية السماء الأفق البعيدة المنعزلة والغائمة كالبحر، وهبت رائحة القش ونبات البروق الشديدة، وكذلك الأغصان والقش والأوراق الجافة التي غطت التربة، مما مكّن يعقوب من الاقتراب في صمت دون أن يرفع إيزيدورو رأسه بعيدًا عن عمله، ثم صاح الخادم:

- ماذا سنفعل؟

رفع إيزيدورو عينيه دون أن يرفع رأسه ونظر بفضول إلى الخادم ولم يرد. جلس يعقوب القرفصاء بالقرب منه على الأرض وأخذ يتأمل عمل إيزيدورو الذي كان يشبك الشبكة ذات الخيوط المغزولة في إبرة كبيرة صدأت بعض الشئ.

قال يعقوب ضاحكًا:

- أعتقد أن السمك يدخل ويخرج هنا كما يحلو له.

فرد صائد السمك مُقلدًا نفس طريقة يعقوب الفكاهية:

- اتركه يدخل ويخرج كما يحلو له، لماذا لا تزال بالبلدة؟ هل أنهيت عملك؟

- حقًا، لقد استأنفت العمل في خدمة هؤلاء النساء الوضيعات من أقاربي الأثرياء. أود أن أتحدث معك في أشياء

جادة يا عم سيدوري، ولكن أولاً أخبرني كيف حالك ساقيك؟ ألم يظهر لك قسطنطينو على شاطئ النهر منذ وقت طويل؟

قطَب العجوز بحاجبيه لأنه لم يكن يحب الحديث بسوء عن الأشياء المقدسة، وقال بصوت منخفض:

- إن كنت جئت لتسألني عن ذلك يمكنك الانصراف بهدوء.

- حسنًا لا تغضب، فالآن سأخبرك لماذا جئت. نعم جئت لشئ هام، فإن أصبحت وثنيًا فمن الضروري أن أكون هكذا أمام سيدي الصغير الذي يتحدث بسوء عن القديسين، إلا إذا انتابه خوف من الموت. حقًا انصت، رأينا الليلة الماضية نجمة في السماء تتحرك وتهبط إلى أسفل بشكل عمودي كقطعة ذهب تاركةً ذيل طويل تبدو كما لو كانت تهبط على الأرض. وضع برونتو وجهه في الأرض وصاح: "إن كانت هذه أخر ليلة لنا، فارحمنا يا الله"، وظل على الأرض، وكنت أريد أن أركله.

- وأنت لم تشعر بالخوف؟

- أنا لم أشعر بالخوف يا طائر الربيع. ثم رأيت أن النجمة اختفت على الفور.

- ولكن بمجرد أن رأيتها هل شعرت بالخوف؟ قل الحقيقة.

- حسنًا! نعم، اذهب إلى الجحيم. لقد جئت خصيصًا لكي أحدثك عن سيدي، فهو أكثر الأشخاص جنونًا في العالم، إنه يريد منك أن تذهب إلى جوفانا إيرا وتقترح عليها أن تطلب الطلاق ليتزوجها هو.

استمر إيزيدورو في العمل، وحجب الظل عينيه الطيبيتين الصافيتين، ثم شبَك يديه الواحده في الأخرى ورفع ذقنه وبدأ يهز رأسه، ثم قال بصوت جهوري:

- وأنت لا تشعر بالجنون عندما تأتي لتقول لي ذلك؟ حسنًا فهمت، أنت لا تريد أن تفقد لقمة عيشك، كم أنك حقير!.

صرخ يعقوب بفكاهة وهو يشعر بالاهانة:

- هل تصدق نفسك بحديثك عما تصطاده؟

- حسنًا، أتمزح؟ فلننهي ذلك الأمر. قل لسيدك أن يكف لأن كل البلدة تعلم هذه القصة وتتهامس بها.

- ماذا يا عزيزي، نحن لا نزال في بداية القصة وأنت تريد إنهائها؟ لم يتركني وشأني، فهذا الشخص الذي يشبه برميل البراندي (الخمر) لا يفعل شيئًا سوى الحديث عن ذلك ليلاً ونهارًا، فاضطررت أن أعده بالمجئ إليك وهأنا أفعل، ولكن ليس من أجله. شخص واحد فقط يمكنه أن يوقف هذه الفضيحة، إنها جوفانا. اذهب وقل لها أن تُسكت هذا الكلب الموبوء، فقد ضقت ذرعًا.

- أيها المسكين قسطنطينو، أيها الحمل الوديع، ماذا فعلوا بك؟

قال يعقوب:

- حقًا، إنه برئ وربما سيعود يومًا ما، ولكن علينا منع حدوث ما يفكر فيه برونتو، كما أن العمة باكيزيا مستعدة لذلك كالصقر الذي ينقض على فريسته.

استمر الأخر في حديثه دون الإنصات إلى يعقوب:

- أيها المسكين قسطنطينو، أيها الحمل الوديع، ماذا فعلوا بك؟

واصل حديثه حينئذ رافعًا صوته الذي يتردد بين جنبات هذا الصمت الرهيب الغارق في تلك العُزلة التي تتخللها أشجار التين وسياج من النباتات البرية.

- لقد استهانوا به لماذا لا تنصت لي أيها العجوز القذر؟ يجب الذهاب إليها فورًا، فهذه الشابة مرحة ذو بشرة حمراء وستستجيب في أول محاولة لإغوائها وستسقط كتفاحة ناضجة،

لكنها ليست ذو قلب سئ، فإذا نصحتها جيدًا وأفهمتها واجبها ربما سنتجنب كافة المشاكل. اذهب إليها، تحرك أهلكك الله، قم بمعجزاتك إن كنت حقًا قديسًا كما يقول الحمقى.

تعجب العجوز وقال ثلاث مرات (ماذا! ماذا! ماذا!) ثم نهض على قدميه، ورغم أنه كان يرتدي ملابسًا رثة ظل مُحتفظًا بهيبته وقد احمر الجو حوله، في خلفية الأعشاب البرية والأفق التي بدت وحيدةً مُنعزلة تمامًا كعزلة ناسك عجوز. ثم قال العجوز وهو يتنهد:

- سأذهب سأذهب.

شعر يعقوب بأنه قد أزاح هذا الثقل من على قلبه. ومن هنا شرع الرجلان في عملهما الطيب من أجل المتهم المسجون بعيدًا حيث كان عليهم التصدي لثلاثة قوى متحدة ونشطة تستغل سلبية جوفانا وهى شهوة برونتو القبيحة وجشع العمة باكيزيا ومصلحة العمة مارتينا التي كانت ترى أنه لا ضرر من تنفيذ خطة ابنها. كانت جوفانا فقيرة وتتمتع بصحة جيدة وكانت بسيطة بلا مطالب وتعمل كثيرًا، فإن كانت امرأة ثرية لتسببت في الفوضي والتبذير بالمنزل، ولكانت نفقات الزفاف باهظة، أما جوفانا فستتزوج تقريبًا في السر وستأتي إلى المنزل كخادمة بلا أجر. يا لمكر العمة مارتينا.

مر الوقت سريعًا في تلك القرية المبنية بحجر الشست فوق قمم الجبال المقفرة وتلك الهضبة الصفراء التي تشبه الصحراء، ثم حلَ الخريف الدافئ الذي كان يبدو أحيانًا كئيبًا عندما يتصاعد من البحر دخانًا يشق الأفق وتمر السُحب الكبيرة المعتمة كخيوط عنكبوت ضخمة تتخلل السماء الصافية التي تكون أحيانًا ذو بريق وشفافية وبرودة كالمياة الشفافة ناسجةً أوشحة رمادية صغيرة.

في تلك الليالي عندما كانت تظهر بعض السحب البنفسجية في الجانب الشرقي من هذه السماء الصافية كجزيرة في بحر هادى، وكانت الرياح تحمل عبق أشجار الزعتر التي كان يحرقها الفلاحون الذين كانوا يحرثون الأرض لرزاعة القمح، شرب برونتو الكثير من النبيذ حتى شعر بالدفء وأخذه السُبات أسفل الكوخ وغرق في أحلامه. كان يشعر بالدفء والسعادة كالقطط مُحدقًا بعينيه في السحاب البنفسجي الموجود في أقصى الأفق. وفي الخارج حول الكوخ لاحت على مسافات كبيرة أراضي ديجاس التي بدت مهجورة أثناء فترة الشفق الصافي وغرقت الأرض الفسيحة في أمطار الخريف التي تسقط على القش ذو اللون الذهبي والبني، وفاحت رائحة الأعشاب الخضراء وأزهار الخريف البنفسجية بروائح عطرة، وسمُع صوت أسراب الطيور البرية والغربان الكبيرة ذات اللون الأسود اللامع وهى تحلق أتية من شجيرات الأفسنتين والتي تبدو كأكوام من الرماد مُختبئة في البساتين وفي أشجار القطلب وفي أوراق الأشجار اللامعة والثمار الغير ناضجة ذات اللون الذهبي الشاحب.

قام اثنان من الفلاحين من خدم ديجاس بحرق الشجيرات الموجودة بإحدى الأراضي وحرثها لزراعة الشعير والقمح، وسُمعت فرقعة اللهب الأصفر في عنان السماء الصافية كما لو كان قطع زجاج أصفر تدفعها الرياح، ثم بدأ الدخان في التلاشي وأخذ يقل حتى اختفى مُحملاً بروائح كرائحة البخور، وزينت هذه السياجات الجافة الشائكة بلونها البنفسجي هذا الأفق الفضي وتراجعت قطعان الحيوانات، ولم يتبقى منها سوى بعض الخيول الداكنة اللون والتي تلهث بفمهما في الأرض، ثم سُمع صوت يعقوب من خلف جدران المنزل الفقير، وصوت

دق بعض الأجراس، ونباح كلب أجش يأتي من بعيد، وكذلك نعيق غراب.

دخل المنزل، و تمدد على جلود وخرق قماشية ساخنة كالبدو، وتابع برونتو حلمه الذي لا يُقهر، وكان الكحول المُركز يحرق صدره غامرًا قلبه بسعادة دائفة عميقة.

كم كان هذا الشاب المالك يحب البراندي ، يحبه لما كان يتركه في أعماق قلبه من سعادة بعد أن يشربه بصرف النظر عن طعمه اللاذع ورائحته القبيحة، ولكن الويل لمن كان يفسد عليه تلك اللحظات حيث كانت تتحول هذه السعادة إلى مرارة تغير مزاجه، فكان يشعر دون أن يعرف السبب بنفس شعور الكلاب عندما نضايقها وهي نائمة ونقف على ذيلها، وكان يستشيط غضبًا دون أن يرى شيئًا أمامه.

حقًا كان يحب كثيرًا البراندي وأيضًا النبيذ ولكن ليس بنفس مقدار حبه للبراندي. كما كان أيضًا والد برونتو يحب الكحوليات المُركزة وذات مرة بعد أن شرب حتى الثمالة سقط في النار وبهذه الطريقة حرره الله من تلك الكحوليات، ثم مات متأثرًا بحروقه. كفى، لنترك هذه الأفكار المُحزنة، فالآن أصبحت أكثر وعيًا ولن أسقط في النار. ومن جانب أخر كان برونتو يعشق جوفانا، وازن بين حبه للبراندي وجوفانا وهم أكثر الأشياء جمالاً وحبًا ونشوةً في العالم بالنسبة له، ولكن كان برونتو ديجاس خجولاً مع جوفانا قدر جراءته على تناول البراندي، فقد كان يرتعش لمجرد التفكير في اقترابه منها أو التحدث إليها. ففي الأيام التي كان يعرف أنها تعمل فيها لدي العمة مارتينا كانت تغمره الرغبة في العودة إلى بلدته ليراها في بيته وينظر إليها، ولكنه لم يجرؤ على أن يتحرك من مكانه.

ولكن مرت الأيام وشعر بضراوة الانتظار والقلق العميق، فكان يخشى أن ترفضه جوفانا مرة أخرى إن تأخرعليها. أراد أن يريها لهفته وأن يخبرها بأنه كان يريد الزواج منها فورًا عقب إدانة قسطنطينو ليريحها. كان يفكر في واقع الأمر بشكل مختلف عن الأخرين، ولكنه كان هكذا ولم يستطع أن يغير من نفسه. كان في حقيقة الأمر طيب القلب ككافة السكارى وأمينًا، وكان حبه الوحيد بعد شغفه بالكحول منذ المراهقة عندما جاءت أسرته لتسكن البيت الجديد هو جوفانا. كانت وقتها في الخامسة عشر من عمرها في قمة جمالها ونضارتها، وفي كل مرة كان يراها برونتو كان يحمر وجهه ويداه وجِلاً ولم تكن تستاء عندما كانت تدرك ذلك، ولكنه كان يصمت وعندما قرر أخيرًا أن يُرسل والدته إلى والدة جوفانا لتطلب يدها كان هناك من تقدم لزواجها بالفعل. كانت جوفانا في ذلك الوقت متغطرسة وفاتنة كمُهرة جميلة، لم تكن تُقدر قيمة المال. وكان هناك احتمال أن تتزوج برونتو ديجاس خاصة لجمال أسنانه، ولكنها لم تكن أبدًا لتخون حب قسطنطينو ولو حتى مع نائب الملك إن كان لا يزال متواجدًا في سردينيا.

زادت كثافة الشفق، وأصبحت السماء أكثر صفاءً وشفافية كالمرآه، وتحولت السحابة البنفسجية إلى سحابة رمادية كبيرة داكنة مُزينة كسمكة برونزية اللون، وتعالت أصوات الحيوانات والأشياء الأخرى لتكسر الصمت الذي ساد في ذلك الوقت. بدا لبرونتو أنه يحلم حينما سمع في هذا المكان وفي ذلك الوقت صوت العمة باكيزيا، وسمع صوت أجش وحزين يقول متعجبًا:

- أيها القديس جون، عزيزي المعمدان، أنت يعقوب ديجاس إن لم أخطأ؟

أجاب الخادم مُندهشًا بعض الشئ:

- من أتى بك إلى هنا؟
- ها ها ، أخيرًا. أين برونتو ديجاس؟

قفز برونتو خارج المنزل الأشبه بالكوخ وارتعدت ساقاه وشعر بدوار، ثم رأى العمة باكيزيا السمراء، تمسك حذائها في يدها وتحمل لفافة على رأسها.

ثم بدأ ينادي متأثرًا:

- ياعمة باكيزيا، أنا هنا، احضري احضري، مساء الخير.

أسرعت الخطى نحوه وتبعها الخادم، ثم قالت:

- ابني العزيز برونتو ديجاس، حيث أنني لم أمت هذه الليلة التي سرت فيها لمدة ثلاثة ساعات أشعرتني بالإنهاك فلن أمت أبدًا، أنا بحاجة إلى التحدث معك، تحلى بالصبر.

لقد نفد الصبر! جاشت مشاعره حتى دمعت عيناه، وأخذها من يدها داخل المنزل، ففهم يعقوب أنه لن يمكنه المشاركة في الحديث وخرج خارج المنزل وأخذ يجول بعينيه فيما حوله كما لو كان وحشًا محبوسًا.

لم يسمع شيئًا من الحديث حيث كان الحوارقصيرًا ولم تكن العمة باكيزيا تريد حتى أن تجلس، وقالت أنها أُنهكت في البحث عن برونتو وأن جوفانا ربما كانت تنتظرها بقلق معتقدةً أنها ذهبت إلى الحقول لجنى الثمار الصالحة للأكل. حقًا، فللأسف كانوا مضطرين أن يعيشوا على تلك الأعشاب بسبب الفقر الذي كان يضيق الخناق عليهم، وكانت العمة باكيزيا تطلب من برونتو أن يقرضها بعض الأموال. حقًا الحمد لله، فإن لم يكن باستطاعتهم أن يعيدوا لهم الأموال لعَمِلت باكيزيا وجوفانا في خدمة عائلة ديجاس حتى يُسددا

الديـن، لم يُسـددا إيجـار المنـزل بعـد، أعنـي منزلهـم، وهددهـم المحامـي بالطـرد. قالـت العمـة باكيزيـا بعـد أن أصبحـت يديهـا معقوفتـين وشـاحبتين:

- أيـن سـنذهب نحـن يـا برونتـو ديجـاس، فكـر أيـن سـنذهب يابرونتـو يـا روحـي؟

ارتعـد صـدره وود لـو عانـق المـرأة العجـوز وقـال لهـا: (سأسـتضيفك في منـزلي)، ولكنـه لم يجـرؤ.

لم يكـن بحوذتـه مـالاً، ولكنـه قـرر أن يعـود فـورًا إلى البلـدة حيـث أنـه كان يريـد اصطحـاب العجـوز، ثـم خـرج مـن المنـزل وصـاح طالبًـا مـن يعقـوب أن يعـد لهـا السـرج عـلى الفـرس، ثـم سـأل الخـادم:

- ماذا حدث؟ هل توفت والدتك رحمها الله؟

أجاب برونتو دون أن يغضب:

- لا، لم يحدث شيئًا يعنيك.

أخـذ يعقـوب يضـع السـرج عـلى الفـرس، بينـما يقتلـه فضولـه لمعرفـة سـبب مجـئ العمـة باكيزيـا وسـبب عـودة برونتـو إلى البلـدة.

ربمـا هـى بحاجـة إلى المـال؟ ولكنـه لا يمتلـك منـه شـيئًا هنـا وهـل سـيعود إلى بلدتـه للحصـول عليـه وإعطائـه لهـا، ثـم نـادى برونتـو قائـلاً (اسـمع يـا برونتـو) وعندمـا اقـترب منـه قـال:

- إذا كانـت المـرأة بحاجـة إلى المـال وأنـت لا تملـك منـه شـيئاً الآن، سـأعطيك أنـا إيـاه.

أجاب برونتو بصوت منخفض يغمره الفرح:

- حتـى وإن أرادت اقـتراض الأمـوال، سـأعود حتـى وإن كان بحـوذتي المـال، سـأعود إلى بلـدتي عـلى أى حـال لـكي أتمكـن مـن

رؤيـة جوفانـا ودخـول بيتهـا، فأنـا أريـد أخـيرًا التحـدث معهـا، وسـأفعل مـن تلقـاء نفـسي مـالم تسـتطيعوا أنتـم أيهـا الحمقـى فعلـه.

تعجب يعقوب غاضبًا:

- أيها الرجل، أنت أصبحت مجنونًا.

- حسنًا فاتركني أصبح مجنونًا، فلتشد اللجام إذًا.

ثم قال للفرس متجهًا إليه:

- أنـت تنفـخ بطنـك أيهـا الفـرس، ألا تريـد السـفر مسـاءً؟ مـاذا سـتفعل إن جلسـت العجـوز عـلى ظهـرك؟

صاح يعقوب:

- وهذا أيضًا؟

- نعم وهذا أيضًا، ما شأنك أنت؟ أليست حماتي؟

- أنـت تسـتعجل الأمـور، تمهـل حتـى لا تنكـسر رقبتـك يـا طائـر الربيـع، هاهاهاهـا تريـد أن تفعـل ذلـك حقًـا؟

وبدأ الخادم يتمتم:

- هـل تريـد الـزواج مـن تلـك المـرأة البائسـة، تلـك المـرأة المتزوجـة؟ يمكنـك الـزواج مـن أخـرى أجمـل منهـا، كـما أن قسـطنطينو ليـدا بـرئ ولكنـه سـيعود، أؤكـد لـك أنـا أنـه سـيعود.

- اتركنـي وشـأني في هـدوء يـا يعقـوب وفكـر في شـؤونك أنـت وضـع الحقيبـة عـلى ظهـر الفـرس. العمـة باكيزيـا؟

أسرع يعقـوب إلى المنـزل واصطـدم بالمـرأة وهـى تخـرج، ثـم قـال لهـا مرتعـدًا:

- اخجـلي! أنـتِ أسـوأ مـن المتسـولين. سـأتحدث أنـا مـع جوفانا، سأفعل.

أجابت العمة باكيزيا:

- أنت مجنون

وبصوتها المنخفض سبته بألفاظ نابيه ، ثم خرجت.

وبعد قليل رحلت هي وبرونتو، فرآهما يعقوب يبتعدان في هذا الضوء الشديد الذي غمر ذلك المكان المهجور يسلكان طريقًا صغيرًا خلف الأدغال وخلف البقاع الزراعية والأرض البور المحروقة، وحيث أنه قد سيطر عليه غضب بسيط خلع قبعته وألقاها بعيدًا ثم ذهب لإحضارها، وقام بضرب الكلب الذي بدأ يعوي وقد ملأ صمت المساء الرهيب بذلك الصوت الحاد المفزع. وتردد صدى ذلك الصوت المخيف وبدا كنحيب شبح يائس.

عندما جن الليل ذهب يعقوب لينام في فراشه قبل أن يتركه برونتو بقليل وعندما شم رائحة البراندي نهض من فراشه وبحث عن زجاجة سيده وشرب منها، ثم عاد إلى النوم. فشعر بشئ يغلى بصدره ويغمر قلبه ويصعد حتى رأسه ويحرق جفونه. لم يعد قلبه غاضبًا، ولكن غمره إحساسًا بالحزن. وعند رواق المنزل رأى الضوء الأحمر الناتج عن حرق البقع الزراعية وهو يتصاعد تدريجيًا ليغطي أخر ما تبقى من ضوء الشفق الأزرق، ثم يختلط الضوءان معًا ليصبحا ضوءًا بنفسجيًا يثير حزن لا يوصف، والكلب لا يزال يعوي من حين لأخر. يا للألم يا للألم! لماذا ضرب يعقوب الكلب المسكين؟ ماذا فعل له الكلب؟ لا شئ. شعر بندم شديد ملئ بحنان لا ينتهي، إنه ندم السكارى، ولكن كان عواء الكلب في الوقت نفسه يغضبه مُثيرًا رغبته في النهوض والاستمرار في ضرب هذا الحيوان المسكين.

وفجأة تذكر برونتو والعمة باكيزيا اللذان نساهما منذ لحظات فارتعد جسده بأكمله. ماذا ربما قد حدث تلك الليلة؟ ربما وافقت جوفانا على طلبه؟ هاهاها لماذا لا يزال الكلب يعوي هكذا؟ يبدو صوته كصوت شخص ميت، صوت العم

بازيليو أو صوت النسر العجوز المقتول، لا أدري فالأموات لا يتكلمون. ليس هذا إلا عواء كلب، ليس أكثر من عواء كلب.

ضحك يعقوب رويدًا رويدًا بينه وبين نفسه وشرع في النوم، وبدأ يُغلق جفناه، ولم يعد يرى تلك الخلفية البنفسجية الداكنة التي بدت كستارة على باب المنزل. بدا له كما لو سقطت عليه زكيبة مليئة بمادة رخوة ولكنها ثقيلة ولم يعد يستطع الحركة، ولكن منحه هذا السكون شعورًا بالمتعة والسعادة، ثم بدأ يحلم كثيرًا أحلامًا مُحيرة من بينها أنه حَلِم أنه مات بسبب لدغة أفعى وأن روحه دخلت في جسم كلب، وأن هذا الكلب الصغير النحيف الأصفر كان يجول في مطبخ العمة باكيزيا باحثًا عن العظم، وكان قسطنطينو يجلس بجانب الموقد مُرتديًا زيًا أحمر وفي قدميه سلسلة، وفجأة رأى الكلب وألقى له السلسلة، وظلت رأس الكلب داخل تلك الحلقة الحديدية التي تحاوطه بشدة، وحاول يعقوب الذي ملأه الخوف أن يتحدث ويفصح عن نفسه، ثم استيقظ يتصبب عرقًا صارخًا:

- يا طائر الربيع.

ساد الليل، وغمر هذا المرعى المهجور ضوء أحمر ناتج عن حرق البقع الزراعية تحت السماء الصافية المليئة بنجوم صفراء كبيرة.

ظل يعقوب طويلاً بلا نعاس، أخذ يتقلب في الفراش كثيرًا، فعندما أفاق من ثمالته التي لم تطل كثيرًا أحس بملوحة وجفاف في فمه، ثم نهض وشرب وتذكر أنه لم يأكل أمس وظل جالسًا لفترة طويلة على باب المنزل منغمسًا في التفكير، ينير وجهه الضوء الناتج عن الحريق.

- هل أكل أم لا؟

كان يتسائل دون أن يدرك متأملاً في النجوم وقد قرُب منتصف الليل، من أسكت هذا الحيوان الصغير الذي يملكه سيدي؟ تملك شعور من الغضب مرة أخرى يعقوب تجاه العمة باكيزيا التي وصلت هناك مُسرعة لتنفيذ خطة الشاب المالك، وحيث أن كل شئ كان مفهومًا لم يكن القرض سوى ذريعة قامت بها العجوز الجشعة لجذب برونتو والتخطيط له وإقناعه. كم كانت بغيضة تلك المرأة! ألم يكن لديها ضمير؟ ألم تؤمن بالله؟ فكر يعقوب ديجاس مرة أخرى في هذه الأسألة، ثم ذهب إلى النوم مُتسائلاً إذا ما كان جائعًا أو إذا ما كان سيأكل.

لا، لم يشعر لا بالجوع ولا بالعطش ولا بالنعاس، ولم يكن يشعر بالطمأنينة لا مضجعًا ولا جالسًا ولا واقفًا على قدميه ولكي يشرد قليلاً بدأ يتثائب على مضض ويتحدث بصوت مرتفع قائلاً أشياءً بلا معنى. كان يفكر بإصرار في هذا الأمر شديد الفظاعة وهو أن يتزوج امرأة متزوجة. وماذا لو عاد قسطنطينو؟ من يعلم؟ فكل شئ ممكن في هذا العالم، حتى وإن لم يعد قسطنطينو، فماذا عن الابن؟ ماذا سيقول عندما يصل إلى سن الرُشد ويعلم أنه أمه متزوجه من شخصين؟ من شرَع هذا القانون؟ يا إلهي، يا لحماقة رجال القانون! اعتلت يعقوب ضحكة ولكن داخله في أعماق قلبه كان يشعر بشئ أخر تمامًا.. نهض يعقوب وأخذ زجاجة البراندي مرة أخرى وقال:

- إن سألني برونتو من شرب البراندي، فساء ما يفعل حيث أنني سأخبره بأن الفئران هى التي شربته. هاهاها.

ثم ضحك وشرب وعاد إلى الفراش، ثم خلد مرة أخرى إلى النوم ورأى في منامه أنه عند أخته يقص عليها رؤية الكلب وقسطنطينو والسلسلة.

واستيقظ بعد أن كانت الشمس قد أشرقت على قمة الهضبة خلف مجموعة من الأبخرة الزرقاء. كان الصباح باردًا وملبدًا بالغيوم، ولمعت البقع الزراعية والشجيرات والقش والحشائش الجميلة المتألقة المبللة بالندي في أشعة الشمس المائلة، وسُمعت مرة أخرى زقزقة الطيور على الأشجار مُغردةً وهي تسير أسرابًا مُرفرفةً في هذا الهواء الضبابي، وكانت زقزقة الطيور الخافتة الكثيفة تشتد أحيانًا كهديل سقوط الأمطار البلورية بكثافة، ودوىَ صفير حاد وصرخات غراب أجش في تلك الخلفية التي تشبه الكورال الصاخب الشديد كوشاح فضي، ثم تلاشى كل ذلك في ظل الصمت الرهيب الذي خيم على المكان.

خرج يعقوب وهو يتمطع ويتثائب، فكان يتثائب كثيرًا فاتحًا فاه، فظهرت على وجهه المكشوف تجاعيد حول فمه المستدير المفتوح، ودمعت عيناه الحولاء التي تصفر في الشمس كعيني كلب.

ثم قال وهو يضم يديه إلى بطنه:

- إنني أشعر بتقلصات في معدتي، ماذا فعلت البارحة؟

ذهب وأخرج القطيع، فخرج الكبش ذو القرون الملتوية يشم في الأرض، تتبعه مجموعة من النعاج الصفراء عن قرب، تشم هي الأخرى في الأرض، ثم تبعتها مجموعة حيوانات أخرى حتى خرجوا جميعًا، ولكن ظل يعقوب ساكنًا ينتظر بجانب السياج مُنغمسًا في التفكير، ثم قال وهو يرتعش:

- حقًا، لم أكل ليلة أمس، فقد شربت البراندي الخاص بسيدي وغرقت في أحلامي. نعم، حَلِمتُ بقسطنطينو والكلب وأختي أنا روزا. تبًا له، لماذا لم يعد هذا الأحمق؟ لقد تَمِلتُ كالحيوان.

انغمس الرجل الثَمِل في التفكير وعاد إلى المنزل وباح بأفكاره بصوت مرتفع:

- لم يعد يدرك شيئًا كالحيوان. هذا ضار يا يعقوب ديجاس، ضع ذلك في الاعتبار أيها الأقرع. لا، لن أعد أشرب الخمر وإلا سيعاقبني الله.

عاد سيده بعد قليل، فحدق فيه يعقوب مُبتسمًا وقال مُتلهفًا مُتجهًا ناحيته:

- تبدو في هيئة رجل مضروب. ماذا حدث لك يا عصفور الربيع؟

- لا شئ، انصرف بعيدًا.

ولكن يعقوب لم يكن يعهده هكذا، فبدأ يحوم حول برونتو مُداعبًا له وقافزًا حوله كالكلب وألح عليه سائلاً عما به. أفصح الشاب عما بداخله حيث كان يشعر بحاجة ماسة إلى ذلك. حقًا، فقد طردته جوفانا كما لو كان متسولاً مزعجًا وسألته إذا ما كان يعرف أن لديها ولد قد يبصق يومًا ما في وجهها ويقول مستنكرًا: "لما لديكِ زوجين؟". صاح يعقوب قافزًا من الفرح:

- أعرف ذلك ياروحي.

- ماذا تعرف أنت؟

- لاشئ سوى أنها أنجبت ولدًا.

- كنت أعرف أنا أيضًا ذلك. إنها طردتني، هذا هو كل ما في الأمر، ثم سمعت ابنه تتشاجر بحدة مع أمها وأنا في الطريق.

بحث برونتو بعد ذلك عن زجاجة البراندي الخاصة به، فشعر يعقوب بالمرح والرغبة في الضحك، ثم قال:

- لقد شربت الفئران من زجاجة البراندي الخاصة بك. هاهاها، ولكنها لم تنتهي بعد.

شرب برونتو بشراهه دون أن يرد، ثم ألقى زجاجة البراندي غاضبًا في وجه الخادم الذي التقطها، وإن كان برونتو قد شرب لينسى الألم فقد شرب يعقوب للاستمتاع.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن

استيقظ قسطنطينو ذات صباح في أواخر فصل الصيف، بعد إدانته بثلاثة سنوات تقريبًا سئ المزاج، كان الحر شديدًا وهبت بالغرفة رائحة كريهة، كان أحد المتهمين يغط ويخرج أنفاسًا من فمه كقِدر يغلي.

نام قسطنطينو واضعًا تحت رأسه أخر خطاب تلقاه من جوفانا، وكان هذا الخطاب مُقتضبًا ومُحزنًا، حيث أوضح أن جوفانا وأمها في فقر مدقع، وكان الطفل قد أثقله المرض.

ولم ير قسطنطينو حتى أنها كانت قاسية عندما كتبت له بهذه الطريقة، فقد كان يسعى للحقيقة حتى وإن كانت مُحزنة، بدا يقاسم جوفانا آلامها ، كان يتألم من يأسه لعدم قدرته على مساعدتها، كما لو كان ذلك من واجباته، فكان يشعر بهذا الواجب بلا جدوى مما كان يزيد ألمه.

كان قد برع في عمله كإسكافي وعمل كثيرًا، ولكنه كان يكسب الفُتات ويرسل كافة ربحه، الذي كان يأخذه الشايب نظير خدماته، إلى جوفانا.

قال له القائد السابق:

- أنت أحمق، خذ الأموال لنفسك، فهم الذين عليهم أن يرسلوها إليك.

- هم فقراء جدًا.

قال الأخر:

- لا، فهم لديهم الشمس، ماذا يريدون أكثر من ذلك؟ ستفعل خيرًا إن أكلت وشربت فأنت رفيع كالعصى، أترى يا

صديقي؟ أنا أفضل حالاً يا صديقي العزيز فأنا يمتلئ جسدى حتى وإن لم آكل كثيرًا.

كان يبدو في واقع الأمر بدينًا، ولكنها بدانة بلا جدوى فقد كان ضعيفًا شاحبًا، بينما كان قسطنطينو نحيفًا وعيناه غويطتان ويداه ناصعتان.

قال وهو يشعر بالمرارة:

- الشمس! حقًا لديهم الشمس، ولكن بم تفيد الشمس عندما لا يوجد طعام وحينما يمرضون ويعانون بشتى الطرق؟

كان حقًّا حديثًا أحمقًا، ولكنه كان يبكي أحيانًا كصبي بينما كان مُستغرقًا في التفكير، ومع ذلك لم يفقد الأمل، مرت السنوات والأيام بطيئة ومتشابهة الواحدة تلو الأخرى كقطرات ماء تسقط ببطئ في مغارة، وكان الأمل يغمر تقريبًا كافة المتهمين وخصوصًا الغير محكوم عليهم بمدة طويلة حيث كانوا يستمتعون بحصر الأيام التي قضوها والأخرى المتبقية بوضوح مذهل دون أن يخطئوا يومًا، كما وصلت براعة أخرين منهم إلى حساب الساعات.

كان قسطنطينو يرى أنها حماقة، فكان يبتسم ويفكر في أنهم قد يموتون أو يتم الإفراج عنهم قبل الوقت المحدد. كل شئ في يد الله. كما كان يظن أنه سيُفرج عنه قبل الوقت المُحدد له، ولكن هذه اللحظة بعيدة وستأتي ببطئ، وتملَكه هذا الشعور عندما استيقظ ذات صباح مُحتضنًا خطاب جوفانا الدافئ.

استيقظ وارتدى ثيابه متنهدًا، وكان رفيقه الأيمن قد كف عن الشخير، ثم فتح عينيه المُغلقة وجلس ينظر إلى قسطنطينو كما لو لم يكن يعرفه، ثم أغلق عينيه مرة أخرى.

سأل وهو يسمع تنهد قسطنطينو:

- ألست بخير؟ حقًا فطفلك مريض، لماذا لا تخبر مدير السجن بذلك؟

- لماذا أخبره بذلك؟ سيضعني في الزنزانة إذا علم بأنني أتلقى أخبارًا هكذا، هذا هو الأمر برُمته.

سُمع صوت يقول بسخرية:

- خبز ودجاج

كان يريد أن يقول خبز وماء، ثم ضحك شخص أخر. شعر قسطنطينو بلامبالاة هؤلاء الذين يعيش بينهم، وبدا له أنه وحيدًا تائهًا في صحراء قاحلة، هوائها كريه الرائحة.

ذهب إلى العمل مُنتظرًا بقلق وقت وقت الترويح ليتحدث مع الشايب الذي كان بدينًا وشاحبًا ولم يكن يقدره على الإطلاق، ولكنه كانه يمثل شخصًا لاغنى عنه بالنسبة له، فقد كان مصدر راحته الوحيد، فقد كان فقط يفهمه ويتعاطف معه ويساعده حتى وإن كان يتقاضى أموالاً، ولكن ماذا يهم؟

فهذا لا يُنكر أنه كان لاغنى عنه لكثير من المتهمين خاصةً رفيق بلده الذي كان يفكر بالفعل قلقًا خائفًا أن يأتي الوقت الذي يفرجوا فيه عن الشايب بعد تخفيف سنوات عقوبته فيعتصره الألم.

أُدخل في ذلك اليوم متهمًا جديدًا في عنبر الإسكافيين، كان رجلاً نحيفًا وطويلاً من الشمال ذو وجه رمادي ملئ بالتجاعيد وعينين صغيرتين بيضاوين وعمره غير معلوم، ولكن ضحك رفاقه عندما أخبرهم بأنه في الثانية والعشرين من عمره، وعلى الفور اشتكى من الحر ومن رائحة القطران الكريهة التي أفسدت الجو.

لم يكن إسكافيًا، وكان الابن الوحيد لصاحب متجر أحذية بالجملة، عمومًا كان هو الأخر سيدًا. أخذ على الفور يروي قصته المؤلمة، فقد قتل منافسه في الحب الذي قد أثاره فأطلق عليه الرصاص، هذا كل الأمر. مرضت المرأة التي كانت سبب الجريمة الأول بمرض في الصدر وهى الآن تموت من الألم ، هذا كل شئ. عفوًا هناك شئ أخر وهو أن المتهم قد ترك طفلاً صغيرًا أنجبه من المرأة المريضة، وإن ماتت سيعيش الطفل يتيمًا ومُهملاً.

ارتعد قسطنطينو ليس لأن قصة المتهم حركت مشاعره، ولكن لأن هذا الطفل وهذه المرأة ذكراه بجوفانا ومالثيندو المريض.

ثم صمت أخيرًا المتهم الجديد وشرع في العمل بمهارة قاطعًا زوج من النعال، مُنحنى الرأس، مُنهمكًا في العمل، ترتعش شفته السفلى كطفل على وشك البكاء. رآه قسطنطينو واعتقد أن هذا الرجل سيعاني كثيرًا وحيث أن الأخرين لم يبالوا بألمه، لم يستطع أن يشاركهم ألامهم، شعر فقط بأنه أكثر حزنًا وزادت رغبته في الخروج.

عندما رأى الشايب جذبه إلى الحائط الساخن في إحدى الجوانب الظليلة، ولكن لم يستطع إخباره بأى شئ مما كان يعاني منه، ولكن ما السبب؟!

بل حكى له قصة المتهم الجديد، فرفع الشايب كتفيه، ثم استدار وبصق على الحائط قائلاً:

- إن أراد أن يكتب خطابات هو أيضًا أوصيكم بالحذر، فهناك شحصًا يفتش وراءنا.

ثم سأل قسطنطينو مُفكرًا:
- ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل بدونك عندما تخرج؟
فرد عليه مازحًا:
- أتريد أن أظل هنا للأبد يا أحمق؟
- أخرجنا الله من هنا! لا بل أتمنى لك أن تخرج قريبًا وحتى ولو غدًا.

وقال الشايب متنهدًا أن أعدائه للأسف يدبرون له دائمًا الحِيل الشيطانية ليبقوه داخل السجن. كان قد فقد الأمل في مساعدته، ولكن كان وقت الحرية يقترب على أى حال. وتابع حديثه قائلاً أنه ربما سيذهب إلى الملك ويحكي له كيف تسير الأمور، وسيأمر الملك على الفور بإعادة النظر في القضية وربما سيحصل الشايب بعد الاعتراف ببراءته على مكانه، ومن يعلم ربما سيعطى وسام شرف للأخرين، بل ووعد الجميع وخصوصًا قسطنطينو بأن يساعدهم بمجرد أن يحصل على حريته، ثم أنهى حديثه قائلاً من تلقاء نفسه:
- حسنًا.
ولأنه كان يطلق وعودًا، اعتقد في النهاية أنه سيمكنه الوفاء بها. أجاب قسطنطينو:
- حسنًا أم شرًا.
وتابع قوله:
- عندما أخرج ربما لن تعد بحاجة إلىَ.
وسرعان ما ندم على ما قاله، ولكن رأى قسطنطينو يهز رأسه مُرتابًا وهو يفكر:
"ربما يعتقد أنني ألمح إلى الحاجة لمساعدته، ولكني أنظر إليه بعين الشفقة الصادقة".
ثم سأله:

- ولكن هل أنت برئ؟ هل حقًا برئ؟ الآن يمكنك أن تخبرني بكل شئ يا صديقي العزيز. تذكر أنني عندما سألتك أول مرة أخبرتني بأنني لا يمكنني رؤية ابني إن كنت مذنبًا.

- هذا صحيح، والآن تقصد حضرتك أنني ربما لن أستطع رؤية ابني مرة أخرى؟ ستنفذ مشيئة الله، ولكنني برئ.

ثم اتجه الشايب من جديد تجاه الحائط وبصق مرة أخرى وقال لقسطنطينو بصوت دافئ وصادق:

- اصبر يا عزيزي، اصبر.

كان الشايب يرى نفسه رجلاً رفيع المقام، وكان يقدر نفسه لأنه كان يُقدر الأشخاص الأمناء، لذا فقد أحب قسطنطينو بطريقته حيث كان يراه شديد الطيبة والبساطة، معدنه أصيل ولم يفسده حتى الفساد الهائل الموجود بالسجن.

كان الضابط السابق أوربينى يسمح لنفسه بقراءة الخطابات التي تصل إليه بخصوص قسطنطينو، ووصل إليه مؤخرًا خطابًا مجهول المصدر مكتوبًا بشكل سيئ ببعض الحروف الكبيرة التي تشبه الحشرات والوحوش الصغيرة، وكانت هذه الحشرات السامة والوحوش الصغيرة تثير الرعب حيث أوضحت أن جوفانا زوجة المتهم كانت تقبل أن يغازلها برونتو ديجاس وأن العمة باكيزيا كانت تريد السفر إلى نورو للبحث عن محامى يتولى قضية طلاق ابنتها.

غضب الضابط ككلب مسعور، وسمعه صديقه المفوض الذي كان يعمل بالقرب منه وهو يأن وقد انتفخت وجنتاه الصفراء بشدة، ثم قال الشايب:

- إنهم أغبياء وحمقى أهل سردينا الذين يشبهون الحمير!

لماذا يكتبون إليه؟ ماذا سيفعل هو غير أن يصدم رأسه بالحائط؟

لم يسلمه الخطاب، وفي كل مرة كان يرى المتهم كان ينظر إليه بشفقة كبيرة، سعيدًا لشعوره بأنه هكذا طيب.

مات الطفل بعد ثلاثة أيام وتلقى قسطنطينو مباشرة خبر وفاته، وبكي خلسة في صمت فقد أراد أن يبدو متماسكًا أمام رفاق عمله ومحنته. علم ألنورفو بللينى الذي كانت امرأته مريضة بمصيبة زميله السردينى (من سردينيا) فشرع في البكاء بشكل غريب مُطلقًا بعض الصرخات التي تشبه صياح الدجاجة، وكان وجهه الرمادي الذي يشبه وجه طفل مهموم هزليًا عند البكاء مما جعل الشخص الأبروتسى (من أبروتسيا) الذي كان يتشاجر دائمًا مع شقيقه يشرع في الضحك، فلدغه مُتهمًا أخر في فخذه بمثقاب الأحذية، فكف عن الضحك وتوجع قائلاً (أه) ولم يعترض.

نظر قسطنطينو مندهشًا إلى بيلينو وهز رأسه ثم شرع في العمل. صمت الجميع وهدأ جأش ساكن الشمال إلى أقصى درجة، ومن أسفل جاء ضوء أبيض شديد من الفناء الظليل، ونظرًا لشدة الحرارة هبت رائحة الجلد ويدي المتهم المبتلة بالعرق وقدميه.

كانوا ثلاثة عشر متهمًا يحرسهم باستمرار حارس طويل بشارب أحمر ولم يكن يتحدث قط، كان المتهمون متشابهين حيث كانوا يرتدون زيًا مُوحدًا، بشعرهم ووجههم الحليق وتعبيرات الوجه المندهش وبدوا أشقاءً أو على الأقل أقارب ومع ذلك لم يكن قسطنطينو قد شعر قط بأنه أكثر اغترابًا وبعدًا عن رفاقه في السجن مثل هذا اليوم.

كان يَخِيط و يحيك مُنحنيًا، ويحمل حذاءً بين ساقيه ويرتدي مريلة من الجلد. وكان ينظر من حين لأخر بحرص إلى الحذاء ثم يعود إلى الحياكة ويشد الخيط بيديه بغضب. حقًا، كان من الضروري أن يعمل، ولكن الآن مات طفله. هل أحب كثيرًا طفله؟ لا يدري فربما ليس كثيرًا، فقد رأه مرة واحدة فقط في نورو عبر الشبكة المعدنية الموجودة بغرفة الزيارات عندما كانت تحمله جوفانا على ذراعها باكيةً، وكان وجه الطفل أحمر اللون وعذبًا كالمشمش الناضج، وعيناه اللامعتان البنفسجيتان تشبهان حبتان من العنب وتغطيهما أطراف قبعته، و أثناء الحديث بكى وصرخ خوفًا من الحرس الأشداء الواقفين ومن هذه الشبكة المعدنية التي كانت تتشبث بها يديه الصغيرتين الحمراوتين بشدة.

لم يكن قسطنطينو يحتفظ بأى ذكرى أخرى لابنه الصغير، مرت السنوات، وإن كان يتخيله دائمًا باكياً أحمر الوجه ذو عينين بنفسجيتين مختفيتين وراء أطراف قبعته الحمراء، إلا أنه كان يفكر دائمًا في المستقبل وفي الوقت الذي سيكبر فيه مالثيندو ويقود العربة ويمتطي الفرس ويبذر ويحصد ويريح ويساعد أمه. يا إلهي، كان المتهم يأمل دائمًا أن يعود قريبًا إلى بلدته، فإن كان أحيانًا يرى هذا الأمل بلا جدوى إلا أنه كان يفكر على الفور في ابنه، أحبه من أجل جوفانا أكثر من الحب الذي قد يولد عندما يكون قريبًا منه ومُعتادًا عليه.. الآن قد مات الطفل ومات الحلم، فقد نفذت إرادة الله، ولكن عانى قسطنطينو بشدة مُفكرًا في ألم زوجته.

عندما رأى الشايب ذلك اليوم رفيق بلدته في ظلال هذا الحائط الظليل أدرك على الفور أنه كان يعاني لتألم زوجته أكثر من معاناته لموت الطفل، ولكن شعر براحة غريبة وقال له ساخرًا:

- يا عزيزي، لقد فقدت عقلك بكآبتك هذه. فكر في نفسك. ألم تر أن الله إن كان قد اصطفى هذه الروح الطيبة كما تقول، فهذا لمصلحته!

سأل قسطنينو مُنحنى الرأس وذراعيه مرتعشتين ويديه مفتوحتين:

- لماذا؟ لأنه كان مسكينًا؟

أراد الشايب ذلك اليوم أن يتفلسف وقال أن الفقر ليس شرًا فهو أبعد ما تكون هكذا، بل خيرًا وخيرًا كثيرًا.

- هناك صور أخرى للشر يا صديقي العزيز، فكر في نفسك وسترتاح زوجتك.

قال قسطنطينو وهو يغلق يديه:

- بالفعل، فهي لديها الشمس، تلك الشمس التي تحرق. ماذا فعلت لها الشمس الآن؟

غنى الشايب (بلا بلا بلا) ونفخ وجنتيه الصفراوتين الممتلئتين ثلاث مرات، ثم شرد ونظر جيدًا إلى أظافر خنصره الأيمن وقال بصوت مرتفع:

- اخبرني يا صديقي، ماذا ستفعل إن تزوجت زوجتك رجل أخر؟

لم يعي قسطنطينو جيدًا ما قال، ومع ذلك تصلبت ساقاه وقال بصوت حزين:

- إنها ستفعل خيرًا إن لم تخبرني بهذه الأشياء اليوم.

واصل الضابط الغناء ونفخ وجنتاه. عم قليل من الصمت ثم قال:

- إذًا يا رفيق بلدتي العزيز أنت لم تعى جيدًا الأمر. زوجتك مخلصة ولا أشك في ذلك، ولكنى أفترض أنها تزوجت بالفعل؟ ألا تزال لا تفهم؟ كان قسطنطينو شديد البساطة بشكل عجيب فاستمر يقول له صارخًا:

- كلمة شرف، يبدو أنك رجل حر حيث أنك لا تزال برئ، هل من المعقول أنك لاتعرف أن الآن يوجد قانون الطلاق؟ فالمرأة المحكوم على زوجها بأكثر من عشرة سنوات يمكنها الطلاق منه والزواج من غيره.

رفع قسطنطينو رأسه وفتح عينيه الغويطتين حتى بدتا مستديرتين وكبيرتين، ولكن سرعان من أغلقهما وقال:

- هل تفعل جوفانا ذلك؟

ساد قليل من الصمت، ثم قال المتهم بينه وبين نفسه:

- جوفانا لن تفعل ذلك!

ثم شعر بشئ غريب كما لوكان قلبه انشق إلى نصفين بسكين بارد، جزء يعاني من ألم فظيع والآخر يصرخ بأن جوفانا لن تفعل ذلك، ونسيا تمامًا الطفل المتوفى. كثيرًا ما صرخ جزء من قلبه بأن جوفانا لن تفعل ذلك، بينما حاول الآخر أن يقتنع، ثم توحد مع الطرف الأول وعادا سويًا للتفكير في الفاجعة الأخرى، وقال الشايب:

- حقًا، اعتقد أنا أيضًا أنها لن تفعل. ولكن أخبرني بشئ يا صديقي قسطنطينو، الآن وقد مات الطفل وفقدت الأم الأمل فيه وفيك أليست محقة إن فعلت ذلك؟ أنا أرى أنها ستكون حمقاء إن حانت لها الفرصة ولم تفعل ذلك. فكر قسطنطينو وقال:

- برونتو ديجاس! لا لن تفعل.

- ولكنك أحمق يا عزيزي. إن فعلت هى ذلك ستكون مخطئة؟

- ولكنني سأعود.

- وكيف ستعرف هى ذلك؟

- أنا أراسلها دائمًا وسأبلغها بذلك دائمًا.

أراد الشايب أن يضحك، بل غضب من نفسه عندما شعر بذلك، وظل مُنغمسًا في التفكير ثم قال كما لو كان يرد على سؤال شخصي:

- إنها حماقة.

أجاب قسطنطينو:

- حقًا.

كان حينها يفكر في برونتو ديجاس ومنزله برواقه ومراعيه وقطيعه وبؤس جوفانا، وشعر كلا جانبى قلبه الآن بألم الجرح.

كتب في الليلة نفسها إلى جوفانا يطمئنها ويقول لها أنه يؤمن دائمًا برحمة الله وكتب بحسن نية: "ربما أراد الله أن يختبرنا وينتزع منا تلك الثمرة (ابننا) الذي أنجبناه من خلال ممارسة الخطيئة. نفذت إرادة الله، ولكن أشعر بأن شئ يقول لي قرُبت ساعة خروجى".

ثم تأمل طويلاً وتسائل إذا ما وجب عليه أن يكتب لها عن ذلك الشئ الفظيع الذي أشار إليه الضابط السابق أم لا، ولكنه لم يفعل، فكان يرى في نفسه فراسه تمنعه حتى من أن يلمح لجوفانا بذلك لتظن أنه يجهل حتى وجود هذا القانون المُهلك.

هدأ بعد أن كتب لها، ولكن ظل شيئًا يؤرقه كسوس يلازمه وينخر في عقله، ومنذ ذلك اليوم لم يتوقف الشايب عن بث سمومه في دمه ولكن بنوع من الشفقة، وقال الظابط السابق:

- عليه أن يتعود وإلا ستموت هذه النفس ببساطه من الحسرة.

كان يرى أحيانًا أن من الأفضل أن يتركه يموت، ثم تذكر أنه وعده بالمساعدة، وحيث أنه بدا له إمكانية الوفاء بالوعد

عـاد يفيقـه حتـى لا يمـوت حـسرة إن طلبـت جوفانـا الطـلاق. كانـت جوفانـا تفكـر في ذلـك مـن المؤكـد، وكانـت تُثـار عندمـا كان قسـطنطينو يتحـدث عنهـا عاشـقًا.

وقـال لـه في إحـدى أيـام شـهر أكتوبـر والـرذاذ يتطايـر مـن فمـه:

- أنـت لا تعـرف النسـاء يـا عزيـزي، إنهـا كالقواريـر الفارغـة، ليسـوا أكـثر مـن قواريـر. ذات مـرة خطبـت، أيبـدو لـك ذلـك مسـتحيلاً؟ حقًـا فيبـدو أيضًـا لي ذلـك مسـتحيلاً. ثـم مـاذا؟ كانـت تخوننـي بالفعـل حتـى قبـل أن أتزوجهـا. أنـت تثـير غضبـي، ولكـن وضـع زوجتـك مختلـف، فهـي مسـكينة وشـابة يجـرى الـدم في عروقهـا. أليـس كذلـك أم لا؟ إذا طلبهـا برونتـو ديجـاس هـذا للـزواج ورفضـت سـتكون حمقـاء.

ثم سأل قسطنطينو متعجبًا:

- ديجاس من؟ من قال لحضرتك؟

- ألست أنت من قلت لي ذلك؟

بـدا لقسـطنطينو أنـه لم يتحـدث معـه قـط عـن ذلـك، وكانـت أفـكاره مشوشـه منـذ وقـت مـا. يـا إلهـي الرحيـم، يـا أيهـا القديـس قسـطنطين الطيـب، كـما أمكنـه الحديـث عنـه؟ قـال:

- حقًـا، أنـا خائـف. لقـد غازلهـا وأراد أن يتزوجهـا إنـه ثَمِـل وثقيـل الظـل كالطـين.لا، لـن تفعـل جوفانـا أبـدًا هـذا الشـئ الفظيـع، لنتحـدث عـن شـئ أخـر رحمـةً بي.

ثـم تحدثـا عـن شـئ أخـر بلهجـة سرديـنيا حتـى لا يفهمهـما باقـي المتهمين.كانـا يتحدثـان عـن الطالـب المسـلول الـذي كان دائمًـا عـلى أبـواب المـوت، وعـن أندورفـو بيليني الـذي كان يبـكي بحماقـة كل مـرة يـرى فيهـا الطالـب المسـلول، وعـن المفـوض الـذي كان يتجـول حـول النافـورة وعـن غـراب العقعـق الـذي كان بـدأ ينحـل ويتسـاقط ريشـه بسـبب كِـبره.

نميمة وكره وحقد وحب وجبن ومزاح، كانت كلها مشاعر توحد وتدفع المتهمين فيما بينهم ومع الحرس والرؤساء. ظل قسطنطينو متبلد المشاعر تجاه كل شئ، وبدا هو والطالب والمفوض يعيشان بمنأى عن كافة الأخرين قريبين فقط من الضابط وهو تقريبًا محور كافة الأحداث السرية التي تحدث بالسجن، والذي ظل فوق الجميع ولا أحد يستغنى عنه.

كان الجميع يحسدون قسطنطينو على الأُلفة التي بينه وبين الضابط، ويرجونه بأن يتوسط لهم عن الشايب في بعض الخدمات. رفع المتهم كتفيه وعرض عليه البعض الأموال، فربما كان يحاول أن يأخذها حيث تملكته تلك الرغبة المؤلمة، مساعدة جوفانا قدر استطاعته، فلم يكن يفكر في شئ أخر.

أصبح الشايب بالنسبة له بغيضًا بسبب تلميحاته اللاذعة المستمرة التي تشبه الدبابيس، وذات يوم تشاجرا بشدة ولم يتبادلا السلام لوقت ما، ولكن شعر قسطنيطينو بالاختناق وبدا له كما لو كان بالزنزانة ومُنفصلاً للأبد عن العالم الخارجي وكان هو أول من يتنازل ويطلب الصلح.

مر الخريف، وانتعش الجو وبدت الشمس كمخمل أزرق وناعم وبعيد وعذب تمامًا كالحلم، كانت تهب الرياح في بعض الأيام مُحملة بعطر يشبه عطر عبير الفاكهة الناضجة.

شعر قسطنطينو أنه أقل تعبًا، ولكن مليئًا بالحسرة، وأصيب بالآنيميا لأنه كان يحرم نفسه من كل شئ لإرسال الأموال إلى جوفانا، بينما كان باقي المتهمين يتلقون أموالاً مَن أكثر ومَن أقل، كان يحرم نفسه حتى من الأموال التي كان يكسبها. قال الضابط السابق:

- لا أفهم، تبدو أحمر الوجه وتبدو وكأنك. تستعيد شبابك. أنت شخص شفاف يا عزيزي.

شعر قسطنطينو حينها أن وجهه مُتقدًا وأن الدم يتدفق داخل جسمه، ثم خر ساجدًا وشعر بالحنين كأول عام عانى فيه. بدت الهضبة الكبيرة الصفراء كما لو كانت نائمة في هدوء الخريف تحت السماء الصافية، وتلك الجبال التي تتخللها الشمس الدافئة، وكان يستنشق عبير الفواكه القليلة والكروم الذي يتأخر في نومه في بلدة الرعاة والنحل هذه.

رأى الثعالب والأرانب البرية وخلايا النحل والطيور البرية والخيول وسياجات مغطاه بنباتات العليق وبكل شئ ملأ وأثر في طفولته الحزينة المتمردة التي تتخللها سعادة وجودة في هذه الحياة البرية، وتذكر عمه النسر العجوز المتوحش الذي عذبه كثيرًا في حياته وأيضًا بعد موته، كما شعر بدافع كره تجاه عمه المتوفى، ثم قال:

- الآن لم يعد يوجد شئ من ذلك، وندم وترحَم عليه.

لم يكره أى شخص أخر مهما كان، فلم يكره القاتل الحقيقي ولا برونتو ديجاس الذي لم يفعل شئ أخر غير ذلك يستحق اللوم عليه، ولا الشايب الذي كان يعذبه باستمرار. لم يكن لديه دافع الكره وكان يشعر بسعادة مُحزنة تجري بدمه كشخص على وشك النوم، ومن هذه السعادة المُحزنة الواهنة وُلِدت مشاعر حب حانية وعذبة ورقيقة، ولكن مُؤلمة كسماء الخريف، فتلك المشاعر بأكملها كانت من أجلها، فطالما كان يفكر فيها دائمًا.

كلما مر الوقت كلما شعر بحبها، إنها وطنه البعيد وأسرته وحريته وحياته وكل شئ له، وجد فيها كل شئ، الأمل والإيمان والقوة والصدق وفرحة الحياة، إنها روحه.

عندما هدده الشايب القاسي بهذا الشئ الفظيع شعربأنه مُهدد بالموت. كان مُستعدًا أن يظل أربعين سنة في سجنه ولكن دون أن يفقد جوفانا، وفي الوقت نفسه كان يتوق إلى الحرية خصيصًا لكى لا يفقد جوفانا.

عانى كثيرًا في هذا الشتاء من البرد بوجهه الشاحب وأظافره الداكنة، ففي وقت الترويح كان يجلس في الشمس وترتجف أسنانه كالعجوز، كان كثيرًا ما يريد الاعتراف ويقول للكاهن الشاب عن كل ما شعر به من قلق. سأله كاهن الاعتراف بعينيه السودتين الوامضتين:

- من وضع برأسك كل هذه الأفكار يا ابني؟

أجاب الضابط السابق بوراي:

- إحدى رفاق بلدتي، إنه الشايب.

همهم الكاهن مُستغرقًا في التفكير، فقد كان يعرف جيدًا الشايب ثم قال:

- بارك الله فيك.

حاول أن يطمأن المتهم وسأله عما إذا ما كانت جوفانا تراسله، فأجاب بأنها الآن نادرًا ما تكتب له وإن فعلت فقليلاً. يبدو أنها لم يعد لديها ما تقوله بعد موت الطفل. كتبت لي مؤخرًا أن الجو بارد في البلدة حيث سقط الجليد مرتين وكتبت لي أخر مرة عن موت رجل متجمدًا وهو يعبر الجبل، كما أضافت أن هناك مجاعة كبيرة تهدد البلد.

أصاب كل هذا قسطنطينو بحسرة بالغة، فكثيرًا ما كان يحلم بالذهاب إلى نورو والحصول على حريته ومنها يتجه إلى بلدته سيرًا على الأقدام. كان يشعر بالبرد، ولم يستطع المُضي قُدمًا حيث كان يموت بردًا، واستيقظ مُتجمدًا، وغمرت قلبه حسرة بالغة. قال له كاهن الاعتراف:

- أنت ضعيف جدًا يا أخي العزيز. والضعف هو الذي يجعل تلك الأفكار السيئة تروادك، وامرأتك مسيحية حقة لن تخطئ أبدًا، انصرف وأخرج من رأسك هذه الأفكار السيئة. أنت بحاجة إلى استجماع قوتك، فلتأكل ولتشرب شيئًا. أليس لك دخل؟

- لي دخل قليل، ولكن أرسل كل شئ لزوجتي لأنها فقيرة جدًا. يا إلهي، أنا آكل بما يكفيني، لا لست ضعيفًا، ولكنني لا أهوى الشرب حيث يجعلني أشعر بالغثيان.

- اطمأن، سأتحدث أنا مع بوراي. سأتركك في سلام.

تحدث بالفعل مع الشايب ووبخه على الأفكار البغيضة التي بثها في رأس ليدا.

- إنه صبي فقير ومُصاب بالآنيميا. اتركوه وشأنه وإلا سيموت.

نظر إليه الشايب مُطمئنًا بدهاء عينيه المغلقتين اللتين تشبهان عيني الخنزير، ثم نفخ وهز رأسه قائلاً:

- أفعل ذلك لمصلحته.

- أي مصلحة؟ أي مصلحة؟!

- معذرة يا صديقي العزيز، أود أن أقول أنك يجب ألا تقلق كثيرًا هذا الشتاء بشأن المرأة الشابة حيث أن الجو شديد البرودة، فالآن أرى أن من يُقلق فقط هي العجوز، حماة قسطنطينو التى ستنصح الابنه، بل ستجبرها على الطلاق إلى أن يأتي الربيع. هذا كل الأمر.

تغير وجه الكاهن وتملكه الغضب ولم يدرك الموقف، بينما كان هولا يزال ينظر إليه بعينيه اللتين تشبهين عيني الخنزير المليئة بالخبث، ثم رأى من الأفضل أن يشرح له الوضع بوضوح

أكثر وأن يصف له جشاعة حماته، وأن امرأته شابة وأن الربيع سيكون مليئًا بالمخاطر، ومخاطر الربيع، فغضب الكاهن كثيرًا. ثم قال وهو يقفز هنا وهناك ضارب الكفين لامع العينين:

- تبًا، أنت لا تُطاق. لماذا تتخيل هذه الأفكار؟ لما تعذب هذا الصبي المسكين؟ حيث أن هذه المرأة جاء من يطلبها للزواج يعني ذلك أنك...

قال الشايب:

- لا تغضب هكذا يا صديقي العزيز.

ثم أراه الخطاب مجهول المصدر الذي تلقاه من بلدة قسطنطينو. بدا الكاهن أكثر جدية وطلب من الضابط أن يترك له الخطاب، ثم سأله:

- هل تأخذ أموالاً من ليدا؟

- بالطبع، بعض المبالغ الزهيدة. هل هذا أمر بغيض؟ هل سأُحبس بالزنزانة إن فعلت؟

- هل تعتقد أنك تقوم بواجبك إن فعلت ذلك؟

- ما هو الواجب؟ إن كان واجبنا هو الإحسان للأخرين فسأفعل.

واستمر الآخر في قراءة الخطاب بحرص.

- أنا أفعل ذلك ولا ليس بشئ، إذا لم يُعيدني ذوي السلطة إلى منصبي بعد أن يتم الإفراج عني سأتفرغ تمامًا لموضوع المراسلات السرية لكافة متهمي إيطاليا، وسأشكل وكالة لذلك.

- لا تُطيل الغياب.

- سأفعل ما يجب فعله، وكالة سرية ياعزيزى، ثم...

قال الآخر وهو يطوي الخطاب:

- وأيضًا المساعدات، لما تخدعون هكذا هؤلاء البؤساء المساكين.

أجاب بروراي ببرود:

- المساعدات أيضًا!

- إن كان ذلك يريحهم، ألا يكون ذلك عملاً طيب حتى وإن كان فقط خدعة لهم؟ ماذا لدينا سوى الأمل؟

قال الآخر بصوت عذب:

- من فضلك لا تضايق هذا الصبي المسكين، دعه يعيش في أمل، وإلا سينتهي به الأمر إلى المرض.

- قال الظابط السابق ولكن على مضض:

- أه، ألا تبدو لك هذه الطريقة حسنة؟

- في اعتقادي سيموت فجأة. يا إلهي، عندما سيحل الربيع سنعرف من يفهم العالم ومن المُحق ومن المُخطئ. ثم وضع يده على صدره.

وعندما تقابلا، سأله إن كان قدر رأي الراهب، وهو الأسم الذي كانوا يطلقونه على الكاهن فيما بينهم، وماذا قال له. كان القائد السابق مُتكئًا على الجدار الداكن الرطب، واضعًا يديه على ظهره وكان يسب بصوت منخفض لا يدرى من بلهجة سردينيا.

- تبًا له!

- ماذا بك؟ من أغضبك؟

- حسنًا، لا شئ. نعم رأيت الراهب وصرخ في وجهي كالطفل، يا له من طفل بدين! إنه كالخنزير، بالتأكيد كالخنزير، ولكن الخنزير شاحب وكريه. أتعلم أنني قرأت أن في روسيا يفضلون الخنزير الزنخ؟

- ماذا قال لحضرتك؟ اخبرني.

- ماذا قال لي؟ قال لي... لم أعد أتذكر. عفوًا قال لي أن هذا الموضوع ما هو إلا وهم يراودني، حقًا فأنا خيالي واسع. اعذرني يا صديقي العزيز فزوجتك لن تخونك أبدًا وأنا على ثقة بذلك كثقتي بأننا معًا هنا.

حدق فيه قسطنطينو بشدة وقال:

- لا، هذا الرجل لم يكن يسخر منه.. لم يكن يسخر منه على الإطلاق، بل يقول الحقيقة.

- ولكن صرخ في وجهه على أى حال. أهٌ يا جميلتي!

قال الشايب مُرتعشًا وناظرًا إلى يديه الحمراوتين المُشققتين المطويتين وظهره المنحني:

- انظر إلى هذا الحائط يا عزيزي، يبدو مصنوعًا من الشوكولاتة، إنه رطب وساخن. لدينا على الأقل ميزتان، أن نأكله، ثم نهرب. هل أكلت قبل ذلك شوكولاتة؟

- وكيف لا؟ بالطبع ستُعجب جوفانا كثيرًا. ولكنها غالية وباهظة الثمن. إذًا...

صاح الآخر قائلاً:

- إذًا؟ أنت تُغضبني، نعم ستنتظرك ثلاثة وعشرين سنة أخرى فلا تشك في ذلك.

- لا أنا سأخرج قبلك. وإن ذهبت حضرتك بعد ذلك إلى الملك فلن تتوسط لي عنده. (ثم غنى قليلاً).

- نعم، عند الملك، خصيصًا عند الملك. ألا تصدق؟ أنا سأذهب عند الملك. إنه يستقبل كافة الضباط، ألستُ ضابطًا؟ إنه يحب الجيش ويتمتع بالشباب. قرأت أنه زاد وزنه، ولكن لن يكون مثلي. (ثم ضحك).

واصل قسطنطينو حديثه عن نفس الموضوع، بينما حاول الأخر دائمًا التهرب بشتى الطرق، ولكنه لم يعد يضايقه، وفي تلك الأيام وُضعت خمسة ليرات على دفتر قسطنطينو، فقال:

- إنه الراهب، إنه هو، إنه هو، يالله من رجل طيب! ولكني لا أريدها، لا، لا أريدها.

قال له الشايب:

- أنـت أحمـق كالخـروف، خذهـا وإلا سـيغضب.لا تريدهـا! أهكـذا ترفـص النعمـة؟

- ولكني أشعر بالخجل، ثم ماذا سأفعل بها؟

- تـأكل، تـشرب، أنـت بحاجـة إليهـا. صدقنـي مـن فضلـك. أتريـد أن ترسـلها هنـا أو هنـاك كي لا تشـعر بالذنـب إن تصرفـت بهـذه البشـاعة سـأبصق في وجهـك. أرأيـت؟ إنهـا لـن تعـد حتـى تكتـب إليـك.

قال قسطنطينو مُحاولاً أن يتمالك نفسه:

- مـاذا لديهـا لتكتبـه لي؟ ربمـا تكـون منهمكـة في العمـل حيـث انتهـى الشـتاء.

صاح الأخر مُهددًا:

- حقًا، انتهى الشتاء وسيأتي الربيع.

- سيأتي.

- متى يأتي الصيف في بلدتكم؟ يبدأ لدينا بالفعل في مارس.

- يـا إلهـي، يبـدأ عندنـا في يونيـو، إنـه جميـل في بلدتنـا حيـث تنمـو الحشـائش ويخـرج القطيـع ويصنـع النحـل العسـل.

- يـا للحـن الرعـوي! هـل تعـرف مـاذا يعنـي؟ إنـه يعنـي... لننتظـر يونيـو! ألم تقـوم بالاعـتراف مـن وقـت طويـل؟

- نعم، منذ خمسة عشر يومًا.

- حقًـا منـذ وقـت طويـل. يـا إلهـي، كـم أنـك أحمـق يـا عزيزي، أنـا لم أقـم أبـدًا بالاعـتراف، فضميري شـفاف كالمرآه.

ثـم قـال مُشـيرًا إلى الطالـب الـذي كان وجهـه ناصعًـا وشـعره حليـق أبيـض:

- هذا حقًا في حاجة إلى الاعتراف. إنه يطرق أبواب الله.

ثـم تـوفي الطالـب بعدهـا بقليـل بإحـدى المستشـفيات في أواخـر مـارس. وعندمـا تـوفى كان الرجـل الـذى كانـت زوجتـه مريضـة

يملأه القلق كما لو كانت نار مشتعلة بداخله، وبكى كالأطفال طوال اليوم. كان يبكي لا من أجل المسكين المتوفى ولكن من أجل زوجته المريضة، ثم هدأ، وبدأ يفكر بشكل أقل في امرأته المريضة حيث أنه لم يعد يرى الطالب ولم يعد يسمع عنه شيئًا، فموت الطالب جعل الشايب يشعر بحسرة غريبة. بدأ يتفلسف مُتحدثًا عن الحياة والموت، وأجرى مناقشات طويلة مع المفوض التي كان يتحدث فيها بصوت منخفض مُحملقًا. ثم تطرق بوراى في حديثه مع قسطنطينو إلى ذكريات الحنين إلى وطنه البعيد، قائلاً:

- حسنًا! بينما كنت أمر ذات مرة بالقرب من بلدتك أو حولها لا أتذكر، رأيت غابةً من نباتات السنديان والقطلب وبدا لي كما لوكانت السماء قد أمطرت عليها دمًا، شعرت يا عزيزي برائحة شديدة جدًا بدت لي كرائحة التبغ. انظر! هناك صليبًا فوق الحجر، أرى البحر بعيدًا...

- إنها غابة كيربومينا، نعم أعرفها. ذات مرة رأى صياد بها أيلاً بقرون ذهبية، فأطلق عليه الرصاص وقتله. فأطلق الأيل صرخه أشبه بصرخة البشر أثناء موته قائلاً: "لن تعد هناك توبة، فقد كان يظن أن بجسمه روح أدمية قامت بعد موته بارتكاب جرائم فظيعة، ثم وُضع الصليب".

- والقرون يا عزيزي؟

- قال الصياد وهو يقترب منه أن قرونه أصبحت سوداء.

ثم قال الشايب مُتأملاً صفحة السماء:

- يا إلهي، كم أنتم حمقى يا اهل الريف! هاهو الربيع قادم، فالربيع يثير أعصابي، نعم فقد كنت أنا أيضًا ذات مرة صيادًا.

- كنت أصيد في المستنقعات بالقرب من كالياري، نعم بالمستنقعات، التي بدت لي كشظايا مرآه مُلقاه هنا وهناك

مـن أعـلى، وحولهـا لاحـت أزهـار الزنبـق البنفسـجية، وكانـت طيـور النحـام تمـر أسرابًـا في تلـك السـماء المتلألئـة التـي لم يسـتطع أحـد رؤيتهـا، ثـم أغلقـت عينـي. بـوم بـوم. سـقطت إحـدى طيـور النحـام، بينـما واصلـت الطيـور الآخـرى الطـيران أسرابًـا في صمـت، ألقيـت بنفـسي في وسـط المسـتنقع للإمسـاك بالطائـر، كنـت رشـيقًا، رشـيقًا كالسـمكة في الثامنـة عـشر مـن عمـري.

- بم تفيد طيور النحام؟

- لا تفيـد بشـئ، فقط.يتـم تحنيطهـا، فأقدامهـا طويلـة تبـدو كأنهـا مـن المخمـل. أرأيـت هـذه البـلاد مـن قبـل؟ حقًـا ، أنـت ذهبـت إلى منطقـة الألغـام ومـررت بكالـيري، سـأعود هنـاك لأمـوت في سـلام.

- مـاذا تريـد يـا عزيـزي؟ إننـا في فصـل الربيـع وكـم هـو مُحـزن قضـاء عيـد الفصـح في السـجن!

- لقد قضيته بالفعل.

- حقًّا فعلت؟!

صمت المتهمان بعد ذلك وانغمسا في التفكير.

مـر أبريـل ومايـو ويونيـو، وأصبحـت جـدران السـجن الكئيبـة شـديدة الحـرارة، واسـتيقظت الحـشرات القـذرة المزعجـة وبـدأت تمـارس عملهـا الوحـشي في مضايقـة المتهمـين والوقـوف عليهـم، وهبـت روائـح كريهـة أفسـدت الجـو، وانبعثـت رائحـة شـديدة البغاضـة ناتجـة عـن رائحـة الجلـد والقطـران والعـرق في عنـبر الإسـكافيين الـذي كان يحرسـه الحـارس الصامـت ذو البـشرة الحمـراء.

بـدأ قسـطنطينو، المصـاب بالآنيميـا، يعـاني كثـيرًا مـن لـدغ هـذه الحـشرات، فقـد كان ينـام في السـنوات السـابقة بعمـق دون التعـرض لهـذه اللدغـات، ولكـن **الآن** نومـه خفيـف، يسـتيقظ

فجأه مُرتعشًا بسبب بعض اللدغات، بدأ يعاني من الأرق أو نومًا أسوأ من القلق كان أحيانًا كالكابوس. تعرض للدغات حادة، ليست فقط من الحشرات التي شوهت جسده، وكان يتقلب باستمرار ويأن. كان شيئًا مروعًا، وغالبًا ما كان ضوء الفجر البرتقالي يصل قبل أن يغلق عينيه، كان يشعر بالإرهاق وبنعاس شديد ولكن كان عليه أن يستيقظ.

لم تعد جوفانا تكتب له، فقط في أواخر مايو كتبت له تترجاه ألا يرسل إليها أموالاً حيث أنها كانت تكسب لحد ما مما يمكنها من العيش بشكل معقول. ولم يعد يتلقى منها شيئًا.

الآن هو مطمأن من إخلاصها، وبدا له أن أخر خطاب منها هو دليل على عاطفتها.

كان الشايب ينتظره بنوع من القلق كل يوم في وقت الترويح، وكان يحدق فيه بعينيه الصغيرتين الشيطانيتين اللامعتين اللتين تتخللان هذه الرأس الحليقة الضخمة الصفراء، وسأله بحرص:

- ماذا لديك من مستجدات؟

لم يقل قسطنطينو شيئًا، ولكن كان يلاحظ في صمت حيث أنه اندهش من هذا السؤال كما اندهش أيضًا الضابط السابق.

- الجو حار.

- حقًا، الجو حار.

- مرَّ الربيع.

- أهناك شئ أخر غير أنه مر!

- ربما انتهت المجاعة الآن في بلدتك.

- من المؤكد أنها انتهت. وزوجتي لا تعد تريد أن أرسل لها شيئًا.

- أعلم جيدًا يا صديقي.

لم يستطع الضابط الأسبق التفكير، وبدأ يشعر بالغضب رويدًا رويدًا لأن نبوءته لم تتحقق.

ذات يوم لم يأتي قسطنطينو أثناء فترة الترويح، فشعر الضابط بانقباض قلبه بشكل غريب حيث علم أن رفيق بلده في المستشفى، ورفرف غراب العقعق العجوز حوله، وعندما وقف هز رأسه الصغيرة ذات الشعر القليل الأشعث مُناديًا بصوت حاد: "قسطنطي.. قسطنطي..."، فأجابه الشايب بصوت مرتفع:

- لقد صُعِق قسطنطينو.

تجمع كافة المتهمين حوله يتملكهم الفضول، ولكنه مدَ يديه إلى الأمام مشيرًا إلى رفضه لهم، ثم قال:

- لا أعرف شيئًا، اتركوني وشاني.

قال بيليني:

- كان قسطنطينو يعمل معهم حتى التاسعة، ثم جاء حارس وأخذه، ولم يكن أحد يعرف لماذا استيقظ مفزوعًا مفتوح العينين وشاحبًا، ثم ذهب مع الحارس ولم يعد.

تذكر قسطنطينو هذا اليوم طوال حياته، كان صباحًا حارًا غائمًا، وبدى ظل السحب يتدلى على عنبر الإسكافيين وتخلل ظل خفيف معتم غطى نصف الجدران، ولاحت للمتهمين بقع الظل، وكانوا يرتدون مريلة من الجلد كريه الرائحة وهم في مزاج سئ.

حكى إحدى المتهمين الذي كان يخاف من الموتى أنه رأى في بلدته في الليالي المعتمة أشباحًا مائية طويلة بيضاء تجري داخل ماء النهر وسأل بليني إن كان قد رآهم من قبل.

- أنا لا، لا أؤمن بهذه الحماقات.

قال الأخر بصوت رتيب وهو ينظر إلى الحذاء الذي كان يعمل به:

- ياإلهي، أنت تسميها حماقات؟

قال أخر بهدوء وهو يعمل:

- يا رأس الخروف...

حينئذٍ رفع من يعتقد في الموتى وجهه غاضبًا مُستاءً، ولكن احتج آخر قائلاً:

- ألا يمكنني التحدث بيني وبين نفسي؟ أقول رأس الخروف، رأس العجل، رأس الكلب. إنه أمر يخصني. ألا يمكنني الحديث مع الحذاء؟

جاء الحارس في تلك اللحظة ونادى قسطنطينو الذي قضى ليلة سيئة في أرق، ففتح عينيه الناعستين واستيقظ مفزوعًا وشحب وجهه، ثم سأل "من يريدني" وتبع الحارس.

أدخلوه غرفة مترية بها رفوف مليئة بأوراق، وكانت نوافذها الزجاجية المتسخة مُغلقة، وخلف الزجاج نافذة حديدية حمراء لاحت خلفها السماء الغائمة التي بدت هي الأخرى مغطاه بالتراب. وفي الغرفة كان يجلس رجلاً يكتب على مكتبه المرتفع المترب، ومعه أوراقًا كثيرة جدًا يختفي بينها وبين غبار الغرفة. عندما رأى المتهم رفع وجهه الذي كان صغيرًا ورديًا، وذقته صغيرة يغطيها بالكامل شاربه الأشقر. حدَق في قسطنطينو بعينيه الكبيرتين المستديرتين الساكنتين بلونهما الأزرق الفاتح، وبدا كما لو لم يكن يرى المتهم حيث واصل الكتابة سريعًا.

ظل قسطنطينو، الذي كان يعرف هذا الرجل، واقفًا على قدميه وقلبه يدق بشده، فتذكر قلِقًا قصة أشباح النهر،

وصوت المتهم الذي كان يقول (يا رأس الخروف)، وتسائل إذا ما كان الرجل الآخر مُحقًا أم لا عندما غضب، ولم يسمع في الغرفة سوى صرير القلم على الورقة الخشنة.

حدق بعينيه المستديرتين الصافيتين من جديد في المتهم، ثم خفضهما مرة أخرى، فارتجف قسطنطينو ونظر حوله وظل في انتظار مُقلق.

كان الرجل مستمرًا في الكتابة وقسطنطينو يشعر بخفقان قلبه بشدة، تراوده ألاف الأفكار الكيئبة التي أصفها بالصامتة والبغيضة مارةً برأسه كجحافل السحب المتلاحقة، والرجل يواصل الكتابة. وفجأة تلاشت هذه الأفكار الكيئبة البغيضة من رأس قسطنطينو لتفسح الطريق أمام بريقًا متلئلأ يحزنه.

- هل ستعترف ببرائتي؟

كان هذا هو البريق الذي ذكرناه، ولكن ترك داخله ضوء غامض. ثم سأل الرجل الذي كان يكتب ويواصل الكتابة بصوت غليظ:

- ما اسمك؟
- قسطنطينو ليدا.
- من أين؟
- من أورلاي بسردينيا، مقاطعة ساساري.
- حسنًا.

عم الصمت، والرجل مستمر في الكتابة، وفجأة كشط بشدة ورفع وجهه الوردي مُحدقًا في المتهم بعينيه الكبيرتين الصافيتين المستديرتين الساكنتين، فخفض قسطنطينو عينيه.

- حسنًا، هل أنت متزوج؟

- نعم.
- لديك أولادًا؟
- أنجبنا طفلاً ومات.
- أتحب زوجتك؟
أجاب قسطنطينو رافعًا عينيه الخائفتين:
- نعم.
رأى في يد هذا الرجل، الوردية الكبيرة، خاتمًا بفص بنفسجي، وبزغ سن قلم أسود مستقيم يدور بين سبابته وإبهامه. لم يعرف قسطنطينو إلى أين يتجه بعينيه الشاردتين فتأمل حركة القلم وشعر بشئ يغمره بالحسرة كما لو كان يحلم بأنه ينتظر طوفان، حينئذٍ تحدث الصوت الغليظ بنغمة هادئة وخافتة:
- هل تعلم أنك دمرت امرأتك؟ هذه الشابة الجميلة البريئة التي تقضي حياتها باكيةً في حداد مستمر، لم يعد أى شئ يسعدها، لم ترتكب قط أى سوء، ويا لصبرها قبل موت ابنها! كانت تأمل فيه خيرًا، ولكن بعد أن مات ماذا يبقى لها؟ وعندما ستعود إليها إذا منحك الله هذا الفضل ستكون عجوزًا مُنهكًا عاجزًا وستكون هى أيضًا هكذا. إذًا فهى ترى أمامها مستقبلاً مفزعًا مليئًا بالألم والخزى والبؤس. إنها عقوبة أسوا من عقوبتك.

احتج قسطنطينو وقد بدا شاحبًا كالميت وأراد أن يقول لاهثًا متألمًا أنه يأمل العودة إليها قريبًا، ولكنه لم يستطع التحدث، ثم تابع الرجل حديثه بعينيه المستديرتين الصافيتين الساكنتين:
- إنها أسوأ من عقوبتك، فأنت تفكر في ذلك وتيأس وتندم كثيرًا على جريمتك (تنهد الرجل واستمر في الكشط وتغيرت

نغمة صوته). الآن يضعون قانونًا لمواجهة هذا الظلم المفرط. أنت تعلم جيدًا بوجود الطلاق الذي يحرر المرأة إذا كان زوجها متهمًا. إن كانت زوجتك... "اجلس استريح" إن طلبت زوجتك الطلاق يجب عليك قبوله فورًا. أعرف جيدًا أنك في النهاية مسيحي حق وستثبت ذلك.

اتكأ قسطنطينو على المنضدة مُرتجفًا دون أن يهدأ، وسأله:

- هل قالت ذلك بالفعل؟

تعجب الرجل ماسكًا بالقلم في يده مشيرًا له ليجلس:

- اجلس اجلس هنا.

أراد مواصلة حديثه ولكن قال قسطنطينو بصوت أجش لا ينم عن أن جسده يرتعد:

- أعرف واجبي، ولن أوافق أبدًا على ذلك لأنني قريبًا سأعود حرًا وستندم زوجتي إن فعلت.

اعتلت وجنتي الرجل الورديتين شقين عميقين، وغمرت ضحكة مصطنعة عينيه الساكنتين وانغمس في التفكير.

- انصت! موافقة المُدان ما هي إلا شئ صوري ومن واجبه أن يعطيها ويؤخذ في الاعتبار حسن نيته، وحتى إن لم يعطها فلن يغير ذلك شيئًا.. ماذا؟ ماذا؟ ماذا بك؟

سقط قسطنطينو على الأرض كالخرقة مغشيًا عليه.

انتهى الجزء الأول

obeikandl.com

الجزء الثاني

obeikandl.com

الفصل التاسع

عـام ١٩٠٨، منـزل عائلـة بـورو، في غرفـة المسـافرين كانـت جوفانـا ترتـب بعـض ملابسـها التـي اشـترتها ذلـك اليـوم مـن نـورو، كانـت حينهـا أكـثر وزنًـا وفقـدت بعـض شـبابها ولكنهـا احتفظـت بجمالهـا ونضارتهـا.

نظـرت بحـرص إلى اللوحـات الزيتيـة والأقمشـة وأخـذت تقلبهـا وتلمسـها بقلـق كـما لـو كانـت مسـتاءة مـن اختيارهـا، و طوتهـا بعنايـة، ثـم غلفتهـا بالجرائـد ووضعتهـا في كيـس.

كانـت تعـد متاعهـا لـكى تنتقـل قريبًـا مـع برونتـو ديجـاس بمجـرد أن تحصـل بالفعـل عـلى الطـلاق، وكانـت قـد أتـت هـى ووالدتهـا إلى نـورو خصيصًـا لـشراء بعـض الأشـياء بعـد أن اقترضـت الأمـوال في سريـة تامـة مـن العمـة أنـا روزا ديجـاس، شـقيقة يعقـوب، تلـك المـرأة الشـابة التـي كانـت تحـب جوفانـا حيـث أنهـا كانـت قـد سـاعدت العمـة باكيزيـا في إرضاعهـا.

انطلقـت المرأتـان بشـجاعة في قلـب الشـتاء متحديـن ملـل تلـك الرحلـة الشـاقة متجهـين إلى نـورو ومعهـما اللوحـات والملابـس والمناديـل والقـماس.

كان لابـد أن يُعقـد هـذا الـزواج المـدني في سريـة تامـة، كزفـاف أرملـة أو أسـوأ، ولكـن لم يمثـل ذلـك أهميـة، وأرادت العمـة باكيزيـا أن تدخـل ابنتهـا المنـزل الجديـد مُجهـزة بـكل شـئ كعـروس شـابة مـن أسرة ثريـة.

كانت البلدة لا تزال تتعجب وتهمهم متحدثة عن هذا الحدث المخزِ، و قيل أن هناك زوجين أخرين كانا يفكران بالفعل في اتفاق طلاق بالتراضي.

كان الكثيرون ينظرون إلى المرأتين نظرة سوء، قال أحدهم مشيرًا إلى سوء نية برونتو تجاه جوفانا، ولم يعد يعقوب ديجاس وإيزيدورو باني وأصدقاء أخرون يذهبون إلى المرأتين بعد أن تصرفا بعنف معهم، كان قد صرخ يعقوب كالكلب مُهددًا ومتوسلاً، ولكن طردته العمة باكيزيا من المنزل.

واستقبلت أيضًا العملة بوريدا صديقتيها في نورو ببرود على الرغم من أن ابنها تولى قضية طلاق جوفانا، بينما كان "الدكتور" كما كانت تناديه والدته، بدا مُهذبًا ولطيفًا مع الضيفتان.

كانت جوفانا تضع أمتعتها ببطئ مستغرقة في التفكير، ولكن كان كل تفكيرها وقلقها منصبًا على تلك الخُرق، فبدا لها أنهم خدعوها قليلاً في تلك اللوحة، وكانت أطراف المنديل الأسود المزركش بورود قرمزية قصيرة جدًا ووجدت بقعة على الشريط، فكان كل ذلك يُشغلها.

حل المساء كالمرة السابقة، ولكن الأشياء التي حولها والوقت وقلبها تغيرت، كل شئ كان قد تغير، وصمت.

فالآن يوجد "بغرفة المسافرين" نافذة جميلة، يتسلل عبر زجاجها ضوء شفق الشتاء، المنعش البارد، وأثاثًا جديدًا تفوح منه رائحة الخشب المدهون يلمع بعض الشئ من البياض كما لو كان مُغطى بالندى، وبابًا يطل على رواق مُغطى وسلم جرانيتي جديد يؤدي إلى الفناء القديم. تم تجديد المنزل بأكمله، أصبح "الدكتور" رجل أعمال وامتلك مكتبًا في أكثر

مناطق المدينة شهرةً وكان مشهورًا جدًا في القضايا المدنية وكذلك الجنائية وفي كافة القضايا المستعصية، وكان أبشع المجرمين وكافة من يخشون من القوانين، يثقون فيه.

انتهت جوفانا من طي وتغليف ووضع اللوحات والملابس والمناديل، وكانت الحقيبة ممتلئة من كافة الأطراف، فرفعتها الشابة وهزتها حتى تهبط الأمتعة قليلاً إلى أسفل، ثم تحركت بجدية وقطبت حاجبيها وهبطت ببطئ درجات السلم واضعةً يديها داخل فتحتين صغيرتين موجودتين في الجزء الأمامي من تنورتها الصوف ككافة تنورات سردينيا.

كان مساء شهر يونيو صافيًا وإن كان شديد البرودة، وفي تلك السماء الزرقاء الصافية بدت بعض النجوم الفضية ترتجف من البرد. عندما عبرت جوفانا الفناء، رأت من خلف زجاج غرفة الغذاء المضئ وجه جراتسيا ووجهها الأبيض وعينيها المتقدتين وهى تحمل في يدها صحيفة من صحف الموضة، أصبحت الصبية طويلة وجميلة، ترتدي على أخر صيحات الموضة، بساقيها الكبيرين اللذين يشبهان الأجنحة، يتحركان خلف أكمامها من أعلى كتفيها مما جعل النساء تمر عبر باب موارب تُشبهن ملائكة في قمة نضارتها.

رأت جراتسيا الضيفة وحيتها بابتسامة دون أن تتحرك. دخلت الضيفة المطبخ الذي تم تجديده هو أيضًا، فالجدران بيضاء والأفران من الطوب اللامع ويتدلى مصباح وقود من السقف.

لم تكف العمة باكيزيا عن النظر حولها بعينيها الصغيرتين الخضراوتين اللامعتين ووجها الأصفر الملفوف بعصابة سوداء

الذي يشبه وجه طائر مفترس. لا.. لكنها لم تتغير تلك الساحرة العجوز، كانت تجلس بالقرب من النار بجانب خادمة، فتاة ليست نظيفة شعثاء، كانت تضحك بشدة كاشفة عن أسنانها البارزة. كانت العمة بوريدا تطهي وتصرخ في الخادمة بسبب طريقة ضحكها. هاهي سيدة المنزل تطهي والخادمة تجلس ضاحكة بالقرب من النار. ماذا تفعلين يا بائسة؟ ولم تستطع تلك المرأة النشيطة أن تجلس في كسل حتى وإن كانت الآن أمًا لمحامي مشهور.

جلست جوفانا بعيدة عن موقد النار مُنحنية قليلاً ويديها دائمًا داخل جيوب تنورتها، فقالت العمة باكيزيا حاسدةً:

- هذا المطبخ يبدو كصالة، عليكِ تنظيم مطبخك.

فأجابت شاردةً:

- حقًا.

- نعم، بالتأكيد يا روحي. إن السيدة مالثينا بخيلة، ولكن عليكِ أن تفهميها أن الأموال خُلقت لتُتنفَق. إن مطبخك هذا يشبه الجنة ياروحي، هذه هي الحياة.

سألت الخادمة الحمقاء:

- لماذا تقولون دائمًا (ياروحي)؟

قالت جوفانا متنهدةً:

- إن لم تكن تريد الإنفاق يا سيدتي فالأموال أموالها.

واصلت الخادمة الضحك، ولكن أمرتها العمة بوريدا التي لم تكن تريد الخوض في أحاديث الضيوف بأن تبشر الجبن بجدية لوضعه على المكرونة، فأطاعتها الخادمة.

سألت العمة باكيزيا ابنتها التي كانت تتنهد:

- ماذا بكِ؟

قالت العمة باكيزيا:

- إنها تتذكر! مستحيل أن تكون قد نسيت، إنها في نهاية الأمر مسيحية وليست حيوانًا.

قالت جوفانا غاضبة:

- حسنًا هاهم خدعونا، فاللوحة ليست جيدة والقماش مُلطخ بهذه البقعة.

تعجبت الخادمة مُقلدةً صوت العمة باكيزيا وقالت (ياروحي)، بينما كانت تبشر الجبن.

قامت العمة بوريدا بالتنفيس عن كافة مشاعر غضبها في تلك الفتاة، وعن كافة الرعب الذي أثاره الضيوف داخلها، فنادتها بالأسماء التي كانت ربما تريد أن تنادي بها جوفانا كوقحة وحقيرة وبائسة وجاحدة، ثم هددتها بأن تضربها بالمغرفة. حكت الخادمة الصغيرة إصبعها ورفعت يدها الدامية إلى أعلى من الخوف.

عاد في تلك اللحظة الشاب المحامي يعرج قليلاً مُرتديًا معطفًا أسمرًا طويلاً واسعًا، بدا كعباءة ذات أكمام، واعتلت وجهه الصغير الوردي المستدير ذو الشارب الأشقر سعادة غامرة كطفل رضيع. سأل على الفور عن الطعام، ثم جلس بجانب العمة باكيزيا وثرثر معها حتى وقت العشاء.

عادت بعده ابنه اخته مينيا ببشرتها الحمراء وشعرها الأشعث لاهثةً، بعد أن مات الطفل الأخر منذ ثلاثة سنوات، وذهبت لتجلس بجانب الخادمة مُرتديةً ثوب حسن من قماش الفانيلا الأحمر والأسمر، ولكن كان حذائها بالٍ ويديها متسخة، حيث كانت عائدة من بستان مُلاصق للمنزل، كانت ترتع فيه

طوال اليوم، ثم أخذت في التسامر مع الخادمة وائتمنتها على بعض الأشياء راويةً لها إياها بصوت منخفض ولاهث، فأجابت الخادمة بنفس النغمة:

- يا روحي!

ثم عاد العم إيفيس ماريا ذو الوجه العجوز الذي يشبه قطعة الرخام وشفتيه الكبيرتين المفتوحتين، وأراد أن يذهب مباشرةً لتناول العشاء. وفي غرفة الغذاء لمع بوفيهين كبيرين من الخشب الأصفر، وبدا هذا المكان فاخرًا إلى حد ما، فكانت هناك أبسطة على الأرض ومدفأة وهكذا.

كانت العمة بوريدا تتحرك في عُسر بقدميها الكبيرتين في حذائها الصلب، والعم إيفيس ماريا لا يكف عن النظر حوله بلطف، وجراتسيا الطويلة الآنيقة تتضايق في كل مرة يدخل فيها أقاربها عليها وهي تقرأ صحيفة "الموضة البديعة" و"الباريسية الصغيرة" وموضوعات الموضة الخليعة واللا أخلاقية من إحدى الصحف التي كانت تقرأها العائلات.

يا لتلك الملابس المكشوفة المُطرزة بالورود والسُتر المبطنة بالذهب، وتلك القمصان ذات أكمام الدانتيل الفضية وخامات لامعة كالندى، يا لشعرها المزين بالورود، وأكاليل الزهور الكبيرة وأشرطة التنانير التي يصل المتر منها إلى ثلاثين ليرة والقفازات المزركشة ومراوح من الجلد الفاخر. يا لجمال كل ذلك، يا لروعته، فعندما كانت تقرأ عن هذه الأشياء كانت تشعر بأنه كحلم جميل حيث كانت في غاية الجمال. وبعد أن قرأت ذلك بدا لها كل شئ آخر قبيحًا، وبدت كل من الجدة الطيبة ذات الوجه العجوز الممتلئ والجد الوقور الذي كان ينظر حوله بطيبة الفلاحين ببساطة مزعجين.

دخلت العمة بوريدا في إحدى الليالي حاملةَ المكرونة الساخنة في خيلاء، وجلس الجميع حول مائدة طعام الضيوف. جلست العمة باكيزيا بجانب جراتسيا وبدأت تتعجب تحديدًا من أكمامها التي تشبه الأجنحة:

- لا، لا توجد لدينا قط، فليس لدينا سيدات. هنا تبدون جميعًا كالملائكة، والسيدات...

قال العم إيفيس ماريا:

- أيها الخفافيش، إنها الموضة يا أعزائي. هأنا أتذكر ذات مرة عندما كنت صغيرًا أن السيدات كانت ممتلئة وضخمة كالأكواخ، إذاً فلم يكن يتواجد منهن إلا القليل أيها السيدات.. زوجة المدير والسيدات...

قاطعته العمة بوريدا:

- وماذا عن ذلك الشئ الخلفي، أتذكر أنه كان يبدولي كنجمة، حسنًا أعتقد أنكم لا تصدقونني إن قلت لكم أنني بدا لي ذات مرة أن رأيت شخصًا يجلس فوقه.

قالت العمة باكيزيا:

- كانت هذه الأجنحة صغيرة في أخر مرة جئتي فيها، ولكنها الآن كبرت.

كانت جراتسيا تأكل وبدت كما لو لم تكن تسمع شيئًا، وكان أيضًا "الدكتور" يأكل بكفيه وينظر إلى الحفيدة كطفل مبتهج، وابتسم قائلاً:

- إنها تكبر وتكبر، خلال قليل ستطير.

رفعت جراتسيا كتفيها، أو من الأفضل أن نقول جناحيها دون أن ترد ولم ترفع عينيها. كانت قد ضاقت ذرعًا بعمها الشاب وبحلمه الأول القديم، وكانت تراه أحيانًا سخيفًا أكثر من كونه لا يُطاق.

أكدت المدينة بأسرها على خبر زواج العم من ابنه أخته، وعندما سُأل "الدكتور" لم يجب بنعم أو بلا.

تحدثوا لفترة طويلة في حماقات، وكانت العمة بوريدا تنهض من حين لأخر من على الطاولة فتخرج وتعود، وكانت تتوقف المحادثة أحيانًا ويسود صمت مُريبك. حاولوا كما فعلوا المرة السابقة تجنب الحديث في الموضوع الذي يهم الضيفات كثيرًا، ومع ذلك لم يشعرن في النهاية بالسخط، ولكن كانت العمة باكيزيا نفسها هي التي أثارت هذا الحوار البغيض دون قصد حيث سألت إذا كان ما الجميع يؤكدون أن زواج "الدكتور" من ابنه الأخت حقيقيًا.

كان أفراد عائلة بورو ينظرون إلى بعضهم ضاحكين بصوت منخفض، بينما كانت جراتسيا منحنية تنظر في طبقها. نظر باولو إلى الفتاة وقال بسخرية يشوبها بعض الحزن:

- لا، ستتزوج معالي السيد المستشار.

رفعت الفتاة رأسها بسرعة ثم خفضتها مرة أخرى فاتحةَ فمها وقد لمعت عينيها واحمرت جبهتها، فقالت مينيا:

- إنه عجوز وأنا أعرفه فهو يمر دائمًا على المحطة، ولديه لحية طويلة حمراء. وقبعة!

- أيضًا قبعة. إنه أرمل؟

- نعم، إنه أرمل.

- من يكون أرمل؟ القبعة؟

قالت الفتاة بعنف مُتجهةً إلى أختها:

- اصمتي.

- لا، أنا لن أصمت. إنه أيضًا ماسوني ولن يُعمِد أبنائه ولن يتزوج في الكنيسة. لا، الأمر هكذا، لن يتزوجكِ في الكنيسة.

قال العم إيفيس ماريا بلطف كعادته:

- الآنسة تعلم ذلك جيدًا.

قامت العمة باكيزيا، التي كانت تنصت إلى الحديث مُحاولة بالكاد أن تكتم صيحتها عندما سمعت كلمة "ماسوني"، بتحريك ذراعيها وصرخت:

- نعم، إنه ماسوني ممن يعبدون الشيطان. أعتقد أن حفيدتي مستعدة للزواج منه في جميع الأحوال. إنا جميعًا لخاسرون، كما أن جراتسيا تقرأ الكتب السيئة والجرائد الشيطانية ولم تعد تريد الاعتراف، فهي تقرأ هذه الكتب المُحرمة، والتفكير في ذلك الأمر يُشعرني بالأرق. إذًا ما أود أن أقوله هو أن جراتسيا تقرأ كتبًا سيئة. أترى يا دكتور بيديدو باولو الواقف هناك؟ لقد درس في قارة لم يعد يؤمن فيها أحد بالله، يستحلون الحرام، يطمسون الحقائق لكي لا يؤمنا بالله.

ولكن نحن الذين لا نعرف شيئًا عن هذه الكتب، نحن الذين لم نسافر أبدًا يا لهاذا الشيطان اللعين!

لماذا لا نؤمن بالله وبنبينا الطيب الذي مات مصلوبًا من أجلنا. لماذا؟ أتسائل أنا لماذا؟ ولكن لماذا؟ لماذا تريدين يا جوفانا الزواج مدنيًا من شخص إن كان لديكِ زوج أخر.

كانت لكلمات العمة بوريدا وقع على الحاضرين حولها كما لو كانت كرات حديدية ثقيلة سقطت عليهم. فقامت جراتسيا التي ابتسمت لكلمات الجدة وهي تمسك بقطع من الخبز برفع رأسها في جدية، وباولو الذي كان يجعل السكين يعانق أطراف الشوكة مُبتسمًا لكلمات الأم تصرف بعنف، والعم إيفيس ماريا حزين الوجه كان ينظر إلى جوفانا.

وَجِلت جوفانا، ولكن قالت بسخرية:

- ليس لدى زوج يا عمتى بوريدا الحبيبة، اسألي ابنك.

قالت المرأة غاضبة:

- ليس لدى أبناء، هذا ابن الشيطان.

بدا أن جوفانا كانت تُحمل باولو مسؤولية تصرفاتها رويدًا رويدًا حيث أنه تولى قضية طلاقها.

حينئذٍ ضحك الجميع لغضب العمة بوريدا بما فيهم مينيا والخادمة التي كانت تدخل حاملةً الجبن. وأخذت العمة بوريدا الجبن رغم غضبها ومررته بلطف إلى العمة باكيزيا التي قالت بصوت حزين وهي تقطع بحرص شريحة جبن:

- ياروحي، أنتِ طيبة كطعم الخبز الطيب، ولكنكِ بحال جيد في منزلك، فأنتِ ثرية ولديكِ منزل يبدو ككنيسة وزوج قوى كالبرج (هاهاها ضحك العم إيفيس ماريا وهو يبشر الجبن)، أنتِ مُحاطة بتاج من النجوم، ها هي حولك لذا فأنتِ تتحدثين هكذا. إن كنتِ تعرفين معنى البؤس وتجدين نفسك مُجبرة على التفكير في التسول والشيخوخة، لفهمتِ ذلك.

قال باولو:

- أحسنتِ! اعطوني سكينًا نظيفًا.

ردت العمة بوريدا:

- هذا لا يهم يا باكيزيا إيرا. أنتم تثقون في العناية الإلهية، إذاً فلم لم تؤمنوا بالله بعد؟ كيف عرفتم إن كنت ستشحذون أم ستكونون أثرياء؟ ألن يعد قسطنطينو ليدا؟

أجابت العمة باكيزيا ببرود:

- سيشخذ هو الأخر.

قال المحامي بحدة وهو يأخذ السكين الذي أعطته له الخادمة من طرفه:

- يعلم الله إن كان سيعود.

كانوا يعرفون أن قسطنطينو قد مرض، بل قيل أنه أصيب بالسل. ولكي تبدو جوفانا مُتأثرة أو ربما كانت كذلك، أخفت وجهها بين يديها مرتين، ثم قالت منفعلةً:

- إن تزوجت فقط زواجًا مدنيًا سيكون لأن... (ثم توقفت عن الكلام)

تعجب باولو قائلاً:

- حسنًا تفضلي أكملي. تتزوجين فقط زواجًا مدنيًا لأن الرهبان لا يريدونكِ أن تتزوجي زواجًا دينيًا، إنهم لا يفهمون ذلك ولم يصلوا للمستوى الذي يجعلهم يفهموه تمامًا مثلك يا أم بوريدا. ومن جانب أخر، ما هو الزواج؟ إنه عائق ابتدعه رجال الدين ويُعترف به فقط أمامهم. الزواج الديني باطل.

صرخت العمة بوريدا في يأس:

- إنه سر مقدس.

تابع باولو:

- إنه باطل، كما سيصبح الزواج المدني يومًا ما هو الأخر باطلاً. يجب أن يرتبط الرجل والمرأة بعفوية وينفصلان في حالة عدم اتفاقهما. فالرجل ...

صرخت العمة بوريدا على الرغم من أنها ليست أول مرة يتحدث ابنها هكذا:

- يا إلهي، كم أنت حيوان! هذه نهاية العالم. أغضبنا الله، فهو مُحق إن عاقبنا وسيرسل علينا الطوفان، وسمعت بالفعل أن هناك زلزال.

قال العم إيفيس ماريا، الذي لم يكن يعرف إلى أيٍ يميل في الرأي لزوجته أم لابنه:

- الزلزال كان موجودًا دائمًا.

ربما كان يميل من داخلة إلى الزوجة، ولكن لم يرد إظهار ذلك حتى لا يفقد تقدير ابنه "الأديب".

صمت باولوا نادمًا بالفعل على ما قال، فقد أغضب أمه التي يحبها كثيرًا بلا جدوى.

رفعت جوفانا يديها من على وجهها وقالت بعذوبة وتواضع:

- عندما تزوجنا، أقصد أنا وهذا البائس، تزوجنا فقط زواجًا مدنيًا وإن لم يتم القبض عليه، من يعلم متى كان سيمكننا الاحتفال بالزواج الديني. حسنًا ألم نكن زوجًا وزوجة؟ لم يقل أحد شيئًا، كما أن الله المطلع على ظروف حياتنا لم يغضب.

قالت العمة بوريدا:

- ولكنه عاقبكم.

صرخت العمة بوريدا بعد أن بدأت تغضب:

- سنعرف ذلك، إما بهذا الأمر أو بموت بازيليو ليدا.

قالت العجوز ذات العينين الخضراوتين المبتهجتين:

- حسنًا؟ هذا لا يعني أن عقاب جوفانا انتهى إلا إذا أرسل لها الله حظها بالزواج من شاب يحبها ويُنسيها أى ألم عانت منه.

قال العم إيفيس ماريا:

- وأن يكون غنيًا. لم يعرفوا إن كان جادًا في حديثه أم يتهكم.

كانت جوفانا قد تاهت في حديثها، ولكنها أرادت أن تنهيه على أى حال، فقالت بصوت عذب ومتواضع:

- عزيزتي العمة بوريدا، الله ينظر إلى القلوب وسيغفر لي إن عشت في الخطيئة المميته، لأنه ليس ذنبي، فأنا أريد أن أتزوج زواجًا دينيًا ولكن لا يمكن ذلك.

- لأنك متزوجة بالفعل من أخر يا ابنه الشيطان.

- ولكن قولي لي، إن كان في عداد الأموات؟ إن لم يستطع أن يساعدني في الحياة؟ إن كان رجال القانون الذين ينظرون في تلك القضايا يشعرون بضرورة الحياة ويحلون الزواج المدني فلماذا لم يستطع رجال الدين أن يحلوا الزواج الديني؟

هل من الممكن أنهم لا يدركون ذلك؟ وهذا الراهب إلياس بورتولو الموجود لدينا والذي تعروفنه جيدًا بطيبته الكبيرة فهو يتحدث كقديس ولا يغضب أبدًا، هو أيضًا يقول: لا لا لا يجب حل الزواج فقط عند الموت. إن لم تفهموا الدين فاذهبوا إلى الجحيم. هل الحياة ضرورية أم لا؟ وإن لم نستطع العيش؟ أنكون فقراء كيعقوب؟ ألسنا بلا شئ بدون العمل؟ ولكن قولي لي أنتِ يا عمة بوريدا، إن كان بداخلي امرأة أخرى؟ وإن لم يكن قد حدث طلاق؟ إذًا ماذا ربما قد حدث؟ الخطيئة المميتة، نعم ربما قد حدثت إذًا الخطيئة المميتة.

قالت العمة باكيزيا:

- الخطيئة المميتة والبؤس في الشيخوخة.

أحضرت الخادمة الفاكهة، زبيبًا أسمرًا لامعًا وكمثرى صفراء ذابلة كأوراق الخريف.

قدمت سيدة المنزل العجوز سلة الفاكهة إلى الضيفة العجوز ونظرت إليها بشفقة بالغة، أظهرت غضبها وسخطها وازدرائها الكامل حيال ضعف هاتين المرأتين. وقالت في نفسها:

- سامحهم يا قديس فرانسيس الطيب لأنهما جاهلات وساذجات وحمقى.

ثم قالت بصوت عذب:

- نحن طاعنات في السن يا باكيزيا إيرا، وأنتِ أيضًا ستصبحين عجوز يا جوفانا إيرا، فقولا لي ماذا يتبقى بعد الشيخوخة؟

- الموت!

- الموت، هناك الموت. وماذا بعد الموت؟

قال باولو ضاحكًا بهدوء بينما كان يأكل العنب كطفل نَهِم مُقربًا العنقود من فمه مُقطعًا حبيباته بأسنانه الصغيرة:

- الخلود.

- الخلـود، بالتأكيـد سـتكون حيـاة الخلـود. لمـاذا تريديـن الانـصراف يـا مينيـا؟ (ولكـن انصرفـت الفتـاة شـاعرةً بالملـل). مـا رأيـك يـا جوفانـا إيـرا هـل تعتقديـن الخلـود أم لا؟ وأنـتِ يـا باكيزيـا إيـرا نعـم أم لا؟

أجابت الضيفتان:

- بالتأكيد.

- بالطبع، ولكنكما لا تفكران حاليًا في الخلود.

قال باولو ناهضًا ومُنظفًا فمه بالمنديل:

- لا جدوى من التفكير في ذلك.

كان عليـه الانـصراف بعـد أن تأخـر كثـيرًا بسـبب هاتـين المرأتـين اللتـين لم يكـن يهمـه مـن أمرهـما سـوى أنهـما سـيدفعان لـه.

- هناك من ينتظرني بالمكتب. أراكما لاحقًا، لن ترحلا.

- فجر الغد.

قال بصوت غير مبالٍ مُرتديًا عباءته الواسعة:

- ماذا؟ لن ترحلا.

عندمـا ارتـدى العبـاءة حدقـت فيـه العمـة باكيزيـا بعينيهـا الخضراوتـين، واعتقـدت أن الدكتـور الصغـير بعباءتـه هـذه كان يبـدو سـاحرًا، أى إحـدى الشـخصيات السـخيفة أو المرعبـة التـى تبتدعهـا السـاحرات بغـرض السـحر.

ثـم انـصرف، وخرجـت بعـده مـن الغرفـة الآنسـة جراتسـيا التـي لم تتحـدث قـط إلا أثنـاء تنـاول العشـاء، والعـم إيفيـس ماريـا الـذي اسـتراح جالسًـا عـلى جنبـه واضعًـا سـاقيه الواحـدة عـلى الأخـرى وشرع يقـرأ صحيفـة "سردينيـا الجديـدة".

سُمعت ضحكات الفتيات العالية في المطبخ، ثم خيم صمت رهيب على الثلاثة نساء اللاتي كانت كل منهن تأكل الكمثرى. أحيانًا كانت تثقلهم بعض الأشياء وكذلك العمة بوريدا التي كانت تشعر بفطرتها أن روح الضيفتين الفظة وروح أسلتهما المدنيين يغمرها نفس الشر.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل العاشر

في فجر اليوم التالي، كانت جوفانا هي أول من استيقظ كما حدث في إحدى الأيام الأخرى الماضية، بينما كانت العمة باكيزيا التي كانت تنام متأخره شأنها كشأن كافة المُسنين قد راحت في سُبات خفيف وتتنفس بشدة.

بزغ فجر الشتاء البارد الصافي مُسدلاً ستائره البيضاء خلف النوافذ. الزجاجية المشبرة، وجوفانا، التي قد نامت الليلة السابقة حزينة بعض الشئ مُستاءةً من كلمات العمة بوريدا أكثر من تأثرها بها، كانت تنظرإلى هذا الزجاج وشعرت ببهجة، فبدا لها يومًا جميلاً ومن ثم رحلة ممتعة.

حقًا، فقد نامت الليلة السابقة حزية بعض الشئ مُفكرةً في قسطنطينو وحياة الخلد وطفلها المتوفى وأشياء أخرى مُحزنة، فكانت تفكر قائلةً:

- إن قلبي طيب، والله ينظر إلى القلوب ويجازي الناس على نيتهم أكثر من أعمالهم. فكرتُ في كل شئ، لقد أحببت قسطنطينو وبكيته حتى سقطت دموعي وقد نفدت الآن. أعلم أنه لن يعود الآن، ربما سيعود عندما نكون طاعنين في السن. لم أعد أستطيع البكاء.ما ذنبي إن لم أعد أستطع البكاء عندما أفكر فيه؟ كما أعتقد أنني كائن بشري ككافة المخلوقات الأخرى، فأنا فقيرة، أخضع للاغراءات وللخطيئة ولكى أتجنبهما أقبل ما كتبه الله لي. نعم يا عمتي بوريدا، أفكر في حياة الخلد، فأنا أفعل ما أفعله لأحافظ على نفسي. لا، أنا لست شريرة، وقلبي ليس بشرير.

بـدأت تعتقـد أنهـا طيبـة القلـب وسـخية شـيئًا فشـيئًا، فحتـى وإن لم تكـن عـلى الأقـل تـرى تحديـدًا نفسـها هكـذا في أعـماق ضميرهـا الصـادق، ذلـك الضمـير الـذي لا يكـذب قـط والـذي تدفـق منـه شـعور الحـزن الـذي انتابهـا، سـيطر ذلـك عـلى عقلهـا المدبـر، ثـم خلـدت إلى النـوم شـاعرة بالارتيـاح.

بـدأ الفجـر الصـافي يحـرك أجنحتـه الكبـيرة الشـفافة البـاردة النقيـة كالثلـج لتصطـدم بزجـاج نافـذة غرفـة الضيـوف، ولاح لجوفانـا قـرص الشـمس فابتهجـت، ثـم اسـتيقظت أيضًـا العجـوز ونظـرت عـلى الفـور إلى الزجـاج وقالـت بسـعادة:

- حقًا، سيكون يومًا جميلاً.

نهضتـا، وكانـت العمـة بوريـدا بالفعـل في المطبـخ فقامـت بتقديـم القهـوة إلى ضيفاتهـا بـأدب ولطـف وسـاعدتهما عـلى تحميـل الفـرس ووضـع الـسرج عليـه. بـدت كـما لـو لم تكـن تتذكـر عـلى الإطـلاق حديـث الليلـة السـابقة، ولكـن بمجـرد خـروج المرأتـين لاح لهـما في السـماء شـئ يشـبه صليـب صغـير، وبـدا لهـما أنهـما تخلصـا مـن الخطيئـة المميتـة برحيلهـما.

قالت العمة بوريدا وهى تغلق البوابة:

- إلى اللقاء، رحلة سعيدة في رعاية الله.

في هـذا الصمـت الشـديد الـذي سـاد ذلـك الوقـت، كانـت الديـوك تغنـي صائحـة بصوتهـا الأجـش قريبًـا فأبعـد، ونامـت المدينـة الصغـيرة تعلوهـا السـماء الزرقـاء الصافيـة.

سـافرت المرأتـان هـذه المـرة بمفردهـما، وكان عليهـما أن يهبطـا الـوادي مارين بقاعـه، وصعـدوه مـرة أخـرى، ثـم صعـدا فجـرًا الجبـال الرماديـة التـي يغطـى الثلـج الأبيـض الصلـب قممهـا والتـي لاحـت بشـدة في الأفـق.

كان الجو باردًا، لم تكن تهب الرياح ولكن كانت البرودة شديدة، وخيم صمت رهيب على هذا الوادي الكبير المقفر الممتد، الذي اجتاحته رتابة صوت سقوط بعض السيول، وحشائش الشتاء القصيرة شديدة الإخضرار التي يغمرها الندى تغطي منحنيات الممرات الضيقة الداكنة، ورائحة الطحالب الرطبة تفوح فوق الصخر، والبقع الزراعية تقطر بالندى، وتلك الطراوة التي تجدد من جمال الوادي، وبزغت الأشجار المتناثرة الملتوية بلا أوراق على مساحات كبيرة مُعرضة للبرد ولضوء الفجر كُنسًاك مجردون من ملابسهم للتكفير عن ذنوبهم. كانت الأرض سوداءً ورطبة، وكانت الأسوار الطويلة الضخمة المغطاه بالطحالب تصعد وتهبط ملتوية وتبدو من أعلى كدودة ضخمة. سارت المرأتان بعد أن تجدمت أيديهما ووجهما وأرجلهما، وعبرا السيل وصولاً إلى منطقة منخفضة وصامتة تمر فيها المياه بغزارة، ثم صعدا مرة أخرى الوادِ وشرعا في صعود الجبال. كانت الشمس قد سطعت مشرقةً ولكن كان الجو باردًا، ولاحت جبال الساحل زرقاءً في عنان السماء الذهبية، وهبت الرياح بين البقع الخضراء المنخفضة باعثةً رائحة صخور رطبة.

انطلقت المرأتان في صمت وانتباه عبر منحدر تظلله أشجار الكينا المرتفعة البارقة بفعل قطرات الندى، وقابلا رجلاً يُدعى بيتي مُسافرًا على قدميه، فحيوه مع أنهما لا يعرفونه، ثم تابعا سيرهما.

أثناء صعودهما رويدًا رويدًا سطعت الشمس وأدفئتهما، وكانوا يفكرون في هدفهم الذي كان يقترب، فيما كان لديهم بالحقيبة، وفيما يجب عليهم أن يفعلوه بمجرد وصلوهم إلى البلدة. كانت العمة باكيزيا تفكر في العمة مارتينا، ومدى

ارتياح العجوز البخيلة عندما ترى جهاز عُرس جوفانا، وكانت جوفانا تفكر في برونتو وفي كافة الأشياء المشوقة التي كان يقولها عندما كان ثَمِلاً. وعندما كان يرى كلاهما كنيسة القديس فرانسيس ناصعة البياض في ضوء الشمس الكائنة وسط أشجار الكينا والبقع الخضراء اللامعة كانا يفكران في قسطنطينو وصلا من أجله. وصلا إلى أورلاي بعد منتصف اليوم بقليل تحاوطهم الحقول الرطبة، وتلك الرياح الباردة التي تمر عبر الجبال الضخمة التي يحيط الجليد بقممها كعصابة تحاوطها. كانت أورلاي أشد برودة من نورو، وأدفئت الشمس قليلاً حشائش تلك الممرات الكيئبة. كانت المضاجع قد صدأت وغطتها الأعشاب، وبدت الجدران السوداء الرطبة والأشجار الجرداء دامية من البرد الذي ساد هذا المكان المعزول وتصاعد دخان أغبر في عنان السماء الصافية.

كانت البلدة كعادتها غارقة في الصمت وبدت كصحراء مهجورة، وعلى الأسواء كانت تتفتح زهرة السرة الصخرية بأورقها الصغيرة الخضراء التي تشبه الكأس، والسحالي الرقطاء تنعم بأشعة الشمس والقواقع والصراصير اللامعة تصعد من حجر إلى حجر.

كانت العمة مارتينا تغزل عند الرواق حيث كانت تتوغل أشعة الشمس، وعندما كانت ترى جاراتها عائدات، كانت تغمرها الرغبة في معرفة ما يحملونه بحقائبهم، ولكنها لم تتحرك وكانت تجيب على تحيتهم برصانة.

عاد برونتو نحو المساء، فقد كان يزور خطيبته كل ثلاثة أيام، فأرادت أمه أن تصحبه، كلها فضول لمعرفة ماذا أحضرت جوفانا وباكيزيا من نورو.

أُشعِل موقد العمة باكيزيا بالقليل من أخشاب العرعر المشتعلة بالنار باعثةً ومضات ضوء خافت يميل للاحمرار على الأرض وجدران المطبخ المغبرة، وأرادت جوفانا أن تشعل الشمعة ولكن منعتها العمة مارتينا تلقائيًا وبرونتو من ذلك حيث أنه سيرى هكذا خطيبته أفضل في هذا الضوء الخافت.

كم كان رائعًا سلوك جوفانا مع حماتها المستقبلية ومع برونتو، فقد أصبحت لطيفة جدًا وبدا صوتها كصوت طفلة وإن كانت كلماتها ذات حكمة وعمق، وكانت تخفض رموشها الطويلة مما يحجب رؤيتها. بدت فتاة في الخامسة عشر، بريئة وطيبة، ولم يكن ذلك تصنُع منها ولكن طبيعتها. كان برونتو يعشقها بجنون حتى أنه عندما كان يثمل كان يسرع إليها راكعًا مُرتلاً بعض الترانيم الطفولية التي تعلمها في طفولته، ثم بكى لأنه أدرك أنه قد ثَمِل وأقسم أنه لن يشرب أبدًا.

كان برونتو في تلك الليلة تمامًا في وعيه، ويتحدث بهدوء مُحاوطًا جوفانا بنظرته الحانية باستمرار مُبتسمًا حتى لمعت أسنانه في انعكاس ضوء النار.

أخذت العمة باكيزيا تروى مغامرات الرحلة، تحدثت عن عباءة المحامي والأجنحة التي كانت تستخدمها السيدات ومطبخ بورو وذلك الرجل الغريب الذي قابلته في الطريق، ولكنها لم تتطرق إلى مناقشتها مع العمة بوريدا ولا إلى ما قامت بشرائه حتى وإن توقعت رغبة وفضول العمة مارتينا لمعرفة ذلك، وقد اشتعلت بداخلها هى الأخرى الرغبة في إظهار الأشياء الجميلة التي اشترتها. سأل برونتو وهو يقلب في النار بعصاه:

- وأنتِ ماذا تقولين يا جوفانا؟ تبدين مشغولة البال الليلة، ماذا بكِ؟

أجابت، ثم سالت فجأة عن يعقوب ديجاس:

- أنا مُرهقة.

- هذا المجنون؟ إنه يزعجني باستمرار. في الحقيقة سأركله بقدمي. لم يعد بحاجة إلى أن يعمل خادمًا.

قالت العمة باكيزيا:

- لا أدري، كان قبل ذلك رجلاً مرحًا. الآن امتلك منزلاً هذا الحيوان ويقولون أن على وشك الزواج هو الأخر. إنه متقلب المزاج. أتعلمون أنه أراد أن يضربنا؟

- لم يعد هنا؟

- لم يعد أبدًا.

قالت جوفانا بصوت رتيب:

- ولا حتى إيزيدورو باني؟

قالت العمة مارتينا:

- بدا لي أن رأيته أمس يمر من هنا.

رفعت جوفانا رأسها بقوة ولكن لم تقل شيئًا، بينما تعجب برونتو ضاحكًا:

- أنتم لستم بحاجة إلى مصاصي دمائكم.

ثم سألت العمة مرتينا بعد أن صمتت قليلاً:

- حسنًا، ألم تحضروا لي أى هدية من نورو بعد أن طال انتظارها؟.

تظاهرت المرأتان اللتان قد أحضرا لها مريلة بأنهما أرادا أن تكون مفاجأة وشعرا بالأسف.

- حقًا لم نتذكر، معذرةً!

ضحكت العمة باكيزيا مُصدرة صوتًا كعقعقة الصقر، ولكن سرعان ما استعادت جديتها ورأت جوفانا لا تزال في حالة حزنها.

- لا، لم نتذكر، ولكن جوفانا ستريكِ بعض الاشياء التي اشترياها.

نهضت جوفانا واشعلت الشمعة، وذهبت إلى الغرفة المجاورة، تبعها برونتو بعينيه المُتقدة، ففهمت العمة مارتينا أنها ذهبت لتحضر الهدية. مرت عدة دقائق ولم تعد جوفانا. سأل برونتو:

- ماذا تفعل هناك؟

- لا أعلم.

مرت دقيقة أخرى، ثم نهض وتحرك قائلاً:

- سأذهب لأرى ما حدث.

قالت العمة باكيزيا بصوت منخفض لكي لا تحرج العمة مارتينا ونادت ابنها بقوة قائلةً:

- اصمت، اصمت!

ولكنه ذهب على أطراف أصابعه، كانت جوفانا واقفة أمام الدُرج المفتوح تقرأ مرة أخرى خطابًا كانت قد وجدته هي وأمها عند عودتهما من السفر تحت الباب، فقد وضعه شخص تحت فتحة الباب أثناء سفرهما. لقد كان خطاب قسطنطينو المؤلم، كتبه بشكل غير واضح وبدائي متوسلاً جوفانا ألا تفعل ما كانت على وشك أن تفعله. ذكرها بأيام حبهما الماضية ووعدها بالعودة وأقسم لها أنه برئ، وختم خطابه قائلاً: "إن لم تأخذكِ رحمة بي، فرحمة بنفسكِ وبروحكِ، فكري في الخطيئة المميتة وفي حياة الخلود".

حقًا، إنها تمامًا نفس كلمات العمة بوريدا، كان من المفترض أن يقوم العم إيزيدورو بإعطائها الخطاب حيث أن جوفانا لم تتلقى منذ وقت طويل أى أخبار من المتهم مباشرة. أغرقت الدموع عينيها، من يعلم فربما جاشت مشاعرها تجاه ذكرى ماضيها أكثر من تفكيرها في المستقبل الأبدي، وفجأة سمعت صوت الباب يُفتح ببطئ ودخل شخص خلسة، فانحنت بسرعة متظاهرة بأنها تفتش بالدُرج مُرتعشة اليدين وعينيها غارقة في الدموع.

وقف برونتو خلفها مُحاوط كتفيها بذراعيه المفتوحتين، فتظاهرت بالخوف واهتزت، فسألها بصوت عطوف وحاني:

- ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟

أجابت مُحاولةً التحرر من ذراعي برونتو:

- أبحث عن مريلة والدتك، لا أعرف أين وضعتها. اتركني اتركني.

ولكن عندما استدرات رأت أسنانه تلمع بين شفتيه الحمراوتين مبتسمتين ولامعتين كالكريز، وشعرت على الفور بيده خلف رأسها، وشفتيه الحمراوتين اللامعتين المُتقدتين كالنار يلامسا شفتيها، ثم قال بصوت لاهث بمجرد أن قبَلها:

- نحن لا نفكر في حياة الخُلود.

عادا بعد قليل إلى المطبخ، وأخذت تضحك بنضارة وجمال كالفتاة، بينما كان برونتو ينظر إليها بشكل خاص تمامًا كما كان يراها عندما كان ثمِلاً.

مر الشتاء، ولم يكف أصدقاء قسطنطينو عن التأمر والكفاح حتى لا يتحقق هذا الزواج اللعين ولكن بلا جدوى، فقد بدت عائلة ديجاس وعائلة إيرا في تلك المناسبة كسحرة مُحصنة، فلم تحركهم التوسلات ولا التهديدات ولا الإشاعات.

وكان أيضًا العمدة، ذلك الراعي الذي يشبه نابليون الأول بشحوب وجهه وغطرسته، مُعارضًا لهذا الزواج اللعين، وعندما ذهبت جوفانا وبرونتو في سرية تامة لإشهاره تعامل معهم ببرود واحتقار باصقًا على الأرض كل ثانيتين، وكانت الناس تهدد بالفضيحة. اندهش الناس من موضوع الطلاق ولكنهم لم يتأثروا، ثم همهموا عندما ذُكر حُب برونتو وجوفانا، ولكن أسعدتهم في واقع الأمر هذه الفضيحة المُسلية لهم إلى أن ضحك الناس عندما تعلق الأمر بزواج بدا مستحيلاً، ولكنهم أمِلوا أن يخدع برونتو المرأتين، وربما حينها لن يقل الناس شيئًا أو يضحكوا إذا عاش برونتو وجوفانا معًا في تلك الخطيئة المميتة (ربما لم يكن ذلك أول أو آخر حالة يحدث فيها ذلك حيث كان بإمكان جوفانا أن تتحجج بصغر سنها وفقرها)، ولكن تزوج امرأة متزوجة بالفعل هذا ما لم يستطع الناس تحمله.

ماذا تريدون؟ فالناس هكذا. لقد كان شيئًا مروعًا، خطيئة وفضيحة لا مثيل لها. كانت البلدة خائفة من أن يعذب الله كافة أهل القرية بذنب هؤلاء الاثنين، وهدد شخص ما بأن يفضحهما ويلقيهما بالحجارة ويضربهما في ليلة العرس. عَلِما بذلك، فغضب برونتو، وقالت العمة باكيزيا "اتركوا الأمر لي". رفعت العمة مالثينا رأسها كمُهره تشم رائحة البرود. حقًا، كانت تريد أن تحارب وتنتصر، شعرت بأنها عجوز وأن العمل أنهكها، فكانت تريد خادمة تعمل في بيتها بلا أجر. كانت جوفانا تعجبها، فكان على برونتو أن يتزوجها.والناس تأكلها نار الحسد.

في مساء اليوم الذي تم فيه إشهار الزواج، كان العم إيزيدورو يعمل في منزله البسيط على ضوء النار الساطع الأرجواني. وكان العم إيزيدورو باستطاعته على الأقل إشعال

النار حيث كان يحمل بنفسه الخشب من الحقول ومن ضفاف الآنهار ومن الغابة.

أثناء الشتاء، كان ينسج حبالاً من شعر الحصان، وكان باستطاعته القيام بالعديد من الأشياء كالخياطة والغزل والطهي (عندما كان لديه ما يطهيه) وتصليح الأحذية وإن ظل دائمًا في بؤس.

وفجاة، فُتِح الباب ولاحت من خلفه بوادر ليل مارس الصافي، ولكن كان غائمًا بعض الشئ، فجاء يعقوب ديجاس وجلس صامتًا بجانب النار.

بدا مطبخ الراعي كلوحة فلمنكية بعناصرها الرائعة في ذلك الضوء الأحمر الذي يزيد من رونق الأشياء تاركًا خلفيات سوداء يظهر فيها نسيج عنكبوت رمادي يتوسطه العنكبوت، وإبريق زجاجي ملئ بالماء حتى عنقه بإحدى جوانب الموقد، والعلقيات السوداء العائمة، وسلة صفراء معلقة على الحائط، وصورة رجلين متأملين، وحبل مصنوع من شعر الحصان الأسود يتدلى بين أصابع الراعي العجوز النحيفة الحمراء.

سأل يعقوب:

- ماذا سنفعل؟

كرر الأخر:

- ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل؟ لا أدري.

أجاب يعقوب وقد بدا أنه يتحدث مع نفسه:

- لقد أشهرا الزواج. لقد تمَ كل شئ، تمامًا كل شئ. لم يأتِ الثَمِل اليوم حتى إلى الحظيرة، وأنا أيضًا عدت إلى البلدة. حسنًا، فليسرقوا نعاجه. لا يهمني كثيرًا. أنا أتيت، يجب أن نفعل شيئًا يا إيزيدورو باني. يا إيزيدورو باني، اترك حبلك وانصت لي. يجب أن نفعل شيئًا هل فهمت؟

- فهمت. ماذا يمكننا أن نفعل؟ فعلنا كل ما باستطاعتنا، فقد صرخنا وتوسلنا وهددنا وتدخل العمدة وسكرتيره والراهب إلياس.

- يا لطيبة القديس إلياس! ماذا فعل؟ وعظ ولكن برفق، كان عليه أن يهدد وأن يقول "سألعنكم في الكتب المقدسة وسوف يتم إقصائكم من الكنيسة، لن يشبعكم قط الماء ولا الخبز ولا أى شئ أخر وستكون حياتكم جحيمًا". كنتم ستروا حينها تأثير ذلك، ولكنه أحمق، إنه راهب مُهمل لم يقم بواجبه، فلا تذكر اسمه وإلا غضبت.

ترك العم إيزيدورو الحبل.

- لا فائدة من غضبك، فلم يكن يجب على الراهب إلياس أن يهدد وبالفعل لم يفعل، ولكن صدقني ستحل اللعنة في كافة الأحوال على هذا المنزل.

فقال يعقوب وقد سيطر على وجهه خوف شديد:

- سأنصرف، نعم سأنصرف. لم أعد بحاجة إلى هذا العمل الملعون، ولكنني أريد أولاً أن أنال من هؤلاء الزوجين الملعونين.

قال إيزيدورو بابتسامه حزينة مُقلدًا يعقوب:

- أنت مجنون يا طائر الربيع.

- حقًّا، أنا مجنون، حتى وإن كنت هكذا فما شأنكم وأنتم لم تفعلوا شيئًا لتمنعوا هذا الرجس. يا له من شئ مقرف! لقد أفسد سعادتي.

- أشعر بأني كبرت عشرة سنوات!

- ...سعادتي!، افكر دائمًا فيما سيقوله قسطنطينو عنا لأننا لم نستطع منع هذا الزواج. هل حقًّا هو مريض؟

أجاب العم إيزيدورو محركًا رأسه:

- لم يعد الآن مريضًا، لقد كان كذلك، ولكنه فقط يائسًا.

ثم أخذ يضفر الحبل وهمهم:
- اللعنةُ! اللعنة!
تابع يعقوب بصوت مرتفع:
- أغضب تمامًا حتى يسيل لعابي على شفتي كالكلاب، نعم كالكلاب. لن أترك هذا المنزل ولو كلفني ذلك حياتي، أريد أن أرى اللعنة التي ستحل عليهم. حقًا، فالله يعاقب في الحياة وفي الممات وهذا أمر مؤكد، وأريد أن أراهم يتعذبون. وأنت ماذا تعمل؟
- أُصنع حِبال من الشعر.
- أة، حبال من الشعر.

ثم صمتا، ونظر يعقوب إلى الحبل وغرقت عيناه في حلم ملئ بالألم والغضب.
- إلى من تبيع هذه الحِبال؟
- أبيعها في نورو، وأبيع منها هنا أيضًا للفلاحين الذين يستخدمونها في ربط الثيران، لماذا تنظر إليها هكذا، أتريد أن تشنق نفسك؟
- لا ياطائر الربيع، ستشنق أنت نفسك إن شاء الله.
ثم قال بصوت مرتفع:
- لقد أُشهر الزواج.

صمتوا مرة أخر، ثم قال إيزيدورو:
- من يعلم؟ أتدري، أتمنى دائمًا ألا يتم الزواج، آمل في الله وآمل في معجزة القديس قسطنطين.
قال الأخر بسخرية:
- حقًا، معجزة.
- لماذا لا؟ أليس من الممكن أن يتم القبض مثلاً على قاتل

بازيليو ليدا ويعترف؟ وبذلك سيكون الزواج باطل.

أجاب الأخر بسخريته المعتادة:

- حقًا، هذا صحيح! في هذه الأيام! أنت ساذج كطفل في الثالثة من عمره في الديانة المسيحية.

- من يدري؟ أو ربما يتم الكشف عنه.

- نعم، صحيح! في هذه الأيام! ثم كيف لنا أن نعرف ذلك؟ من قد يمكنه الكشف عنه؟ وكيف؟

- من؟! أنا أو أنت أو شخص أخر...

- أنت ساذج، ليس فقط كطفل في الثالثة من عمره، بل كحيوان بلا عقل. كيف يمكننا الكشف عنه؟ ومن جانب أخر وبصرف النظر عن كل شئ، إذًا هل نحن متأكدون من أن قسطنطينو لم يقتله؟

قال إيزيدورو:

- نعم، نحن متأكدون من ذلك. ربما نكون نحن من نفعل ذلك، أما هو لا، ربما أكون أنا أو أنت.

حسنًا ماذا يمكننا أن نفعل؟ هل هناك حل؟ فلتقله لي.

كرر العم إيزيدورو دون أن يرفع رأسه:

- إلا هو، هناك حل وهو أن يكون بين يدي الله.

صاح الآخر متنقلاً عبر منزله المتواضع كوحش محبوس:

- يا إلهي كم تجعلني أشعر بالغضب، أسألك عن حل وتجيبني بهذه الطريقة كالأحمق. سأذهب لأخنق باكيزيا إيرا. هذا هو كل الأمر.

ثم ذهب كما عاد دون أن يلقي التحية وقد استشاط غضبًا، ولم يرفع العم إيزيدورو حتى رأسه إلا بعد لحظات قليلة حيث ترك يعقوب الباب مفتوحًا فنهض ليغلقه، ثم اتجه ناحية العتبة.

كانت ليلة دفيئة ومقمرة، ولكنها غائمة من شهر مارس، وهب نسيم رطب من الخضرة المتنامية، وحول بيت العجوز بدت السياجات والنباتات البرية كأشخاص نائمة يتخللها ضوء القمر الخافت الضعيف في خلفية الأفق بين الأبخرة البيضاء المنتشرة، ولاحت السماء الصافية كخط منحني وبدت كنهر أزرق يتدفق عبر سهل على ضفافه نار ليلية.

أغلق إيزيدورو الباب، ثم عاد إلى عمله مُتنهدًا.

obeikandl.com

عشية عيد انتقال العذراء، يوم أربعاء حار غائم.

كانت العمة باكيزيا تغزل عند الرواق، وجوفانا الحامل تُنقي القمح، كانت تفعل ذلك بمفردها خالطة القمح في الغربال لتغربله مما يشوبه من حصوات ثم تقوم بتنقيته بحرص في سلة كبيرة موضوعة فوق طاولة، وإن كان ذلك العمل يتطلب عادة امرأتين.

جلست جوفانا على الأرض أمام السلة وبجانبها قُفة مليئة بالقمح الذهبي المغبر، وبدلاً من أن يزيد وزن "زوجة الرجلين" كما كانوا يسمونها في البلدة، قلَ وزنها، وكان أنفها منتفخًا قليلاً وأحمرًا وعيناها مستديرتين، وشفتها السفلية بارزة بشكل يشير الاشمئزاز. وكان بعض الدجاج منفوش الريش يتحرك من حين لأخر متساقطًا منه ريش غزير على الأرض ويحاوط السلة واضعًا منقاره أحيانًا فيها، وجوفانا تصيح وتشتم لإبعاده، فكان يفر بعض الشئ، ولكنه منتبه ومستعد بأرجله المرفوعة ليعاود الهجوم بمجرد أن تشرد عنه جوفانا.

غالبًا ما كانت تشرد وعيناها حزينتين، بل غير مباليتين كشخص أناني لا يفكر إلا في مصيبته، فلا تهتم ولا تعتني إلا بنفسها حتى وإن سقط العالم حولها، وكانت حافية القدمين ومتسخة بعض الشئ لأن العمة باكيزيا كانت تقتصد في الصابون.

لم تكن المرأتان تتحدثان، ولكن لم ترفعا نظرهما من على جوفانا، وعندما لم تقم جوفانا بإبعاد الدجاج في الوقت المناسب، كانت العجوز هي التي تصرخ لإبعاده.

ذات مـرة تجـرأت إحـدى هـذه الدجاجـات المزعجـة عـلى الصعـود عـلى حافـة القُفـة وأخـذت تـأكل داخلهـا. صرخـت العمـة مارتينـا "هـش هـش هـش"، فالتفتـت جوفانـا بقـوة، فرفرفـت الدجاجـة بقـوة ثـم طـارت تاركـةً ورائهـا سـحابة مـن القمـح ملئـت الأرض.

خشـت جوفانـا أن تصيـح حماتهـا فيهـا، كانـت دائمًـا تخـشى ذلـك، أخـذت تجمـع حبـات القمـح وهـي تشـكو قائلـةً:

- يا له من دجاج مزعج.

قالت مارتينا بصوت عذب:

- يـا إلهـي، حقًـا إنـه مزعـج جـدًا. لا تظـلي هكـذا طويـلاً يـا ابنتـي كي لا تشـعرين بالتعـب. سـأتي أنـا.

تركـت فلكـة المغـزل، ثـم ذهبـت تجمـع كافـة القمـح المتناثرحبـة حبـة، بينـما كانـت تنقـر دجاجـة في وبـر فلكـة المغـزل. صرخـت العجـوز عندمـا رأتهـا فأبعدتهـا، بينـما كان باقـي الدجـاج يبـدو كـما لـو كان يسـاعدها في جمـع حبـات القمـح:

- تبًا لكِ سأقطع ريشك!

أخـذت جوفانـا تُغربـل القمـح مُنحيـة الـرأس في صمـت وحـذر. لاحـت مـن الـرواق الفسـحة الخاويـة، وبيـت العمـة باكيزيـا الـذي بـدا مُغـبرًا في ضـوء العـصر الرمـادي الغائـم، وجـزءًا مـن البلـدة الخاويـة، وحقـولاً صفـراء خاويـة، والأفـاق البرَّاقـة، وسُـحب كثيفـة مـلأت السـماء، بعثـت حـرارة شـديدة وهـدوء كبـير. مـر أمـام الـرواق صبـي طويـل حـافي القدمـين، يقـود ثوريـن صغيريـن أسـودين، ثـم مـرت امـرأة شـابة حافيـة القدمـين هـي الأخـرى، كانـت تنظـر إلى جوفانـا بعينيهـا الكبيرتـين الصافيتـين، ثـم مـر كلـب أبيـض سـمين وأنفـه بـالأرض، ولم يفسـد شـئ آخـر هـذا الصمـت إلا هـذا الحـر الخانـق الشـديد.

كانت جوفانا تغربل وتنقي القمح دائمًا ببطئ، فشعرت بالتعب، شعرت بالجوع ولكن ليس للطعام، وبالعطش لكن ليس للماء. شعرت بحاجة جسدية لا توصف لأشياء لا توجد.

انتهت من عملها، ثم نهضت ونظفت ثيابها وانحنت أخذةً القمح من السلة لتضعه في القُفة.

قالت لها العمة مارتينا بلطف:

- اتركيه اتركيه وإلا ستشعرين بالتعب.

أرادت جوفانا أن تحمل بنفسها القمح إلى الطاحونة (وهي طاحونة يجرها حمار تطحن هيكتوليتر من القمح كل أربعة أيام)، ولكن لم تدعها تفعل ذلك وذهبت بنفسها.

ظلت جوفانا بمفردها ودخلت المطبخ، ثم نظرت حولها وأخذت تفتش هنا وهناك، فلم تجد شيئًا، فلا فاكهة ولا نبيذ ولا حتى القليل من الكحوليات التي ربما تُشبع الرغبة الشديدة التي كانت تعذبها، فقط القليل من القهوة، فأدفئت منها القليل ووضعت بداخلها القليل من السكر الذي كان بحقيبتها، ثم أشعلت النار بحرص، ولكن بدا أن هذا المشروب الساخن القليل قد زاد من عطشها. كانت جوفانا تريد أن تشرب كحولاً رطبًا لذيذًا لم تكن قد شربته قط وربما لن تشربه. غمرها غضب صامت، ولمعت عيناها. ذهبت إلى باب حجرة الطعام وهزته مع أنها كانت تعلم أنه مغلق بالمفتاح، وهمهمت بشفتيها الشاحبتين قليلاً لا عنةً.

ثم خرجت هكذا حافية كما كانت ومرت بالممر في صمت ونادت أمها. قالت العمة باكيزيا من داخل المطبخ:

- احضرى!

- لا أستطع، فالمنزل بمفرده.

فخرجت العمة باكيزيا متأملةً السماء، ثم قالت:
- ستمطر الليلة، وسيكون الجو عاصفًا.
قالت جوفانا بصوت أجش:
- يا ليت السماء تهطل مطرًا ورعدًا على الجميع!
ثم أضافت بصوت عذب:
- ولكن باستثناء ما بنهدي...
- ماذا يعكر صفوك ياروحي؟! أين ذهبت حماتك؟ رأيتكِ تغربلين القمح.
- إنها ذهبت لتحمله إلى الطاحونة. خشيت أن تتركني أذهب أنا حيث خافت أن أسرقه.
- اصبري يا ابنتي، فالأمر لن يكون هكذا.
- يا إلهي، الأمر هكذا، هكذا. لقد ضاق بي ذرعًا. ما هذه الحياة؟ هي مُرفهة وأنا أفعل كل شئ.
- إنها تنهكني كالبهيمة، أحمل الخبز بالشعير والماء والقاذورات وأجلس في الظلام حافية القدمين وغير ذلك.

أنصتت إليها العمة باكيزيا عاجزةً عن مواساتها، فهذه الشكوى تتكرر كل يوم، حتى العمة باكيزيا أيضًا كانت مهيضة الجناح، فعليها الآن أن تعمل أكثر مما كانت، ولكنها لم تكن تتألم من ذلك، فقط كان يؤسفها حالة جوفانا شديدة البؤس.
- اصبري اصبري ياروحي. ستتحسن الأمور، لن يمنع أحد مستقبلك الذي كتبه الله لكِ.
- وما الفائدة؟ حينها سأكون عجوز، إن لم أمت قبل ذلك من الغيظ. ما فائدة أن نشعر أننا بخير في الشيخوخة؟ حينها لن نتمتع بشئ.
فأجابتها العمة بعينيها الماكرتين الخضراوتين اللتين يشبهان خنفستين ليليتين:

- لا ياروحي. أنا أستمتع كثيرًا بحياتي حتى الآن، فأنا أجلس دون أفعل شيئًا، آكل لحمًا مشويًا، وخبزًا طريًا وتورتة وسمك الثعابين، وأشرب نيذ أبيض وعصائر وشيكولاتة.

صاحت جوفانا في غضب "كفى!"، وأخذت تحكي كما لو لم تجد شيئًا يشبع رغبتها المتأججة.

- اصبري، سبب ذلك هو حالتك، حتى وإن وجدتِ أجمل أشياء العالم والكحوليات الفاخرة التي يشربها الملك لن تشعري بالرضى.

كانت جوفانا تنظر دائمًا تجاه الرواق حزينة الوجه ووجهها يثير الاشمئزاز، ثم كررت الأم:

- الليلة ستمطر.

- حسنًا، دعيها تمطر.

- هل سيعود برونتو؟

- أجل سيعود، وهذا المساء أود أن أخبره بذلك، نعم أود ذلك.

- ماذا تريدين أن تقولي له يا روحي؟

- أود أن أقول له أنني ضاق بي ذرعًا، وأنه إن اعتقد أنه تزوجني لأعمل له خادمة فقط لا غير فقد أخطأ وأن...

قالت العجوز بقوة:

- لا تقولي له شيئًا. اتركيه في سلام، فهو أيضًا يعمل ويعيش كخادم، لماذا تريدين تعذيبه؟ وربما سيطردك ويتزوج امرأة أخرى في الكنيسة.

ارتجفت جوفانا بشدة ورقت، ودمعت عيناها، ثم قالت:

- إنه ليس سئ، ولكنه يشمل دائمًا وتنبعث منه رائحة خمر البراندي العفنة التي تهيج معدتي، ثم يغضب بلا سبب. كم أنه مقرف! إنه حقًا مُقرف. كان أفضل...

فصرخت العمة باكيزيا بعنف:
- حسنًا، ماذا كان أفضل؟
- لا شئ.
دائمًا هكذا، تتذكر جوفانا قسطنطينو الطيب الجميل النظيف اللطيف نادمةً على الماضي، فيغمر روحها ذلك الحزن الدفين الأكثر مرارةً من الموت، ولم يهدأ بداخلها حلم الأمومة، بل كان يزيد ألمها بشدة.

أسدل الليل الحزين الرمادي ستائره الذي بدا ثقيلاً كقطعة جرانيت لا كنسيم الرياح مُفسدًا هذا الهدوء.

ذهبت جوفانا وجلست على المصطبة تحت شجرة اللوز الساكنة وجلست أمها بجانبها، ظلا قليلاً في صمت ثم قالت جوفانا كما لو كانت تتابع حديثها:
- حقًا، بالتأكيد، أفكر في الأيام الأولى من إدانته. أحلم كل ليلة بعودته، وما يثير فضولي أنني لا ينتابني الخوف مع أن يعقوب ديجاس يقول أن قسطنطينو إن عاد سيقتلني، لا أدرى فقلبي يخبرني بأنه حقًا سيعود، لم أكن أعتقد ذلك من قبل، ولكني الآن أعتقد ذلك. لا جدوى من أن تنظري لي هكذا ألست أنا من يجب أن يلومك؟! لا لا لا بل يجب علىَ أن أخشى تأنيبك. هل تستمتعين بحالتي هكذا؟ لا شئ، لا تأتي هنا حتى مرة أخرى لزيارتي في هذا المنزل.
ثم أشارت بشفتها إلى المنزل الأبيض قائلةً:
- لأن حماتي تخشى حتى من أن تحملى معكِ في حذائك حتى تراب المنزل. لن أستطيع أن أعطيكي شيئًا. أفهمتي؟ لا شئ، ولا حتى عملي. كل شئ مُحرم، فأنا خادمة.
قالت العمة باكيزيا بصوت عذب:

- أنا لا أريد شيئًا يا قلبي، لماذا تتألمين لهذه الحماقات؟ لست بحاجة إلى شئ. لا تفكري في. يحزنني فقط دين أنا روزا ديجاس، فأنا لن أستطع أبدًا رده، ولكنها ستصبر.

استشاطت جوفانا غضبًا وانتزعت يديها، وقالت بصوت مرتفع:

- نعم، هذا ما أريد ان أقوله هذا المساء لهذا الحيوان القذر، سأقول له ادفع على الأقل ثمن الخُرق التي أرتديها، ليدفعها. أحرق الله قلبه!

- لا ترفعي صوتك ولا تغضبي يا روحي. انظري لا جدوى من غضبك. لماذا تغضبي؟ قد يطردك؟

قالت خافضة صوتها حيث ظهر شبح العمة مارتينا الأسود في خلفية الصالة المغبرة:

- حسنًا سيطردني أيضًا. سيكون أفضل، على الأقل سأعمل لحسابي، من أجلك لا من أجل هذه الأشخاص اللعينة. هاهي قد عادت. الان ستصرخ في وجهي لأنني تركت المنزل بمفرده فهي تخشى أن يسرقوا أموالها التي تمتلك منها الكثير ولا تعلم عددها، لا الورقية ولا المعدينة. تمتلك عشرة ألاف ليرة وألفًا من العملات.

- لا يا روحي، ألفين ليرة.

- حسنًا مائتي عملة مخبأة، وأنا لا أجد شفطة مشروب يروينى ويزيل المرارة التي أتجرعها.

قالت العمة باكيزيا:

- ستكون كلها ملكك. اصبري وانتبهي، عندما ستأتي الملائكة لحملها إلى الجنة، سيكون كل هذا ملكك.

سَعُلت جوفانا وهرشت في قفاها، ثم قالت في حماسة مريرة:

- لا يهمني حتى وإن طردوني. يقول العمدة أنني زوجة برونتو الحقيقية، ولكن يبدو لي أني أعيش معه في خطيئة مميتة. أتتذكرين كيف تزوجنا؟ سرًا في الظلام دون حضور أى شخص، بلا حلويات، بلا شئ.وكان يعقوب ديجاس أماته الله يضحك ويقول: "الآن يأتي الجميل"، وقد وصل الجميل.

قالت العمة باكيزيا بصوت منخفض:

- انصتي، أنتِ دائمًا مجنونة. لقد كنتي دائمًا هكذا واعتقد أنكِ ستظلين هكذا. لماذا تيأسين؟ بسبب حماقات؟ كل نساء نورو الفقراء يعيشون مثلك. سيأتيكي أيضًا الفرج، اصبري، اطيعيني وستري أن كل ذلك سيمر، وسترين أن كل ذلك سيتغير بمجرد وصول طفلاً منه.

- لن يتغير على الإطلاق، أو على الأقل لن ينجب مني. سيربطوني في هذا الحجر وسيسحبوني ويطأوني بأقدامهم. إن زوجي الحقيقي هو قسطنطينو ليدا، أتسمعين؟

- أنتِ تهزي يا روحي. اصمتي وإلا أغلقت لكِ فاكِ.

- وإن عاد لن أستطيع العيش معه، لأنني ساكون قد أنجبت.

كررت العمة باكيزيا (سأغلق لكِ فمك!) مرتعشةً ناهضةً على قدميها وهى تهز يدها كما لو كانت تغلق لها فاها ولكن لم تكن هناك ضرورة حيث رأت جوفانا حماتها تمر عبر الصالة فصمتت.

كانت العمة مارتينا تسير وتغزل، ثم اقتربت ببطئ من المرأتين، ثم قالت بينما كانت تنظر إلى فلكة المغزل وهي تدور:

- لنذهب إلى الهواء الرطب؟

أجابت العمة باكيزيا:

- يا لجمال الهواء الرطب! نموت من الحر. ولكن ستمطر هذه الليلة.

- بالتأكيد ستمطر، ولكن بلا رعد فهو يخيفني، إنه الشيطان يفرغ جوز الهند من جعبته. حسنًا نامل أن يعود برونتو مُبكرًا. ماذا سنعد على العشاء يا جوفانا؟

- ما تريدين.

- أتظلي هناك؟ ألا يُتعبك؟ ربما سيُتعبك.

- ماذا تريدين أن أفعل؟

تابعت حديثها متوجةً إلى العمة باكيزيا:

- إن هواء المساء دائمًا مضر، فالأفضل أن تظلي بالداخل، هكذا يمكنك إعداد العشاء. يوجد بيض يا ابنتي، بيض بطاطم. حسنًا أعديه لكِ ولزوجك، فليس لدي شهية، حقيقية ليس لدي شهية هذه الأيام، ربما بسبب الجو.

-قالت الأخرى:

- تبًا لكِ، إنه البُخل الذي يمنعك من الأكل.

صمتت جوفانا ولم تتحرك غارقةً في الحلم الحزين:

- غدًا حفل التأبين في الحادية عشر وهو وقت غير مناسب. ستذهبين أنتِ يا جوفانا؟ كانوا يقيمونه السنوات السابقة في العاشرة.

أجابت جوفانا بصوت رتيب:

- سأذهب أنا.

كانت تخجل حينها من الذهاب إلى الكنيسة، ثم قالت العمة مارتينا وهي تشد على يدها:

- حقًا في هذه الساعة سيكون الجو شديد الحرارة، فمن الأفضل ألا تذهبي. ولكن سوف تمطر إن لم أخطئ.

سقطت قطرة ماء كبيرة متسخة على شعر ظهر يدها الشاحبة، ثم سقطت قطرات أخرى على شجرة اللوز الساكنة وعلى الأرض تاركةً على أرضية هذه الفسحة فقاعات صغيرة. في الوقت نفسه، بدت السماء صافية باعثةً ضوءًا أصفر، في خلفية السُحب البرونزية مرت سحابة صفراء بها بقع صفراء داكنة كقطعة إسفنج ضخمة مبتلة بالماء.

انسحبت النساء وعلى الفور بدأت السماء تمطر مباشرة، مطرًا شديدًا عنيفًا بلا رياح أو عواصف استمر عشرة دقائق فقط، غمر البلدة. قالت العمة مارتينا وهي تأن:

- يا إلهي، يا قديس قسطنطين، يا مريم المقدسة.إن كان برونتو في الطريق ليُغرقه المطر كالكتكوت.

كانت تنظر في بؤس إلى السماء دون أن تتوقف عن الغزل، بينما كانت جوفانا تعد العشاء. بينما كانت تستمع إلى هدير المطر كانت تشعر هي الأخرى بالقلق، ليس من أجل زوجها ولكن بسبب أشياء أخرى غامضة كخطر مجهول. وفجأة، اندمج الضوء الأصفر الذي تخلل المطر في ضوء أزرق أتيًا من الغرب، ثم توقف المطر فجأة. تفتحت السحب كالأزهار، ثم تفرقت وسارت الواحدة فوق الأخرى، والواحدة خلف الأخرى كأُناس تتشتت بعد أن توحدت، وساد الوهج الأخضر في الهواء الرطب، هبت رائحة الأرض والأعشاب الجافة المبتلة، وسُمع غناء الديوك التي بدا لها أنه الفجر.

ثم عمَ الصمت. كانت العمة مارتينا تغزل دائمًا في الرواق، حيث لاحت سوداء في خلفية الشفق الخضراء الشاحبة. أشعلت جوفانا النار منحنية تجاه الموقد، فشمت رائحة حمض النتريب

في الجو، وشعرت باهتزاز غريب، فنهضت مرتعدةً ونظرت إلى الخارج، كان برونتو عائدًا، فانتابها الخوف، من ماذا؟ من كل شئ؟ ومن لاشئ؟

في منزل العمة باكيزيا المتواضع لمع شئ أصفر ولاحت العجوز وهى تقوم بتنشيف المياة التي أغرقت عتبة الباب بالممسحة، وبدا الأفق وراء الحقول المائلة للاصفرار كبحر أخضر هادئ، ولاحت شجرة اللوز فوق كل شئ وفي الأفق. مبتلة بقطرات الماء، وبجانب شجرة اللوز ظهر برونتو ممتطيًا فرسه مع خفوت أخر بصيص من ضوء هذا اليوم، فكلاهما الفرس والفارس بدا أسمرين داكنين بطيئين كما لو كانت مياة المطر التي أغرقتهما جعلتهما منتفخين وأثقلتهما.

خرجت المرأتان إلى الفَسَحة متعجبتان يملئهما الألم، ولكن ربما ألم يتخلله قليل من السخرية، ولم يبدو أن برونتو كان مهتمًا بهما.

همهم وهو يخرج قدمه من الركاب (حلقة يضع فيها الفارس قدمه متصلة بالسرج):

- تبًا تبًا، اذهبا إلى الجحيم.

ثم قال بسخرية متجهًا نحو المطبخ وكان واقفًا على قدميه مبتلاً بأكلمه:

- والآن رتبا أنفسكما.

قامت المرأتان بتحميل الفرس، ثم عادت جوفانا وعلى الفور طلب منها برونتو شيئًا يشربه حتى يجف، فقالت:

- غِير ملابسك.

ولكنه لم يريد أن يفعل، بل أراد فقط أن يشرب حتى يجف، فكررت جوفانا مما جعله يغضب لإصرارها، ثم انتهى

بـه الأمـر إلى تنفيـذ مـا طلبتـه، فقـام بتغيـير ملابسـه ولم يـشرب، وبينـما كان ينتظـر العشـاء قـام بتجفيـف شـعره بحـرص بخرقـة، ثـم مشـطه.

تابع:

- يـا لمـاء المطـر! تمامًـا كـماء البحـر. هـذه المـرة جعـل شـعري أكـثر نعومـة (قالهـا وهـو يضحـك). كيـف حالـك يـا جوفانـا؟ ألسـت بخـير؟ أبلغـكي تحيـات يعقـوب ديجـاس. إنـه ينظـر إليـكي دائمًـا باهتـمام.

قالت العمة مارتينا:

- أوقفـي لـه لسـانه، هكـذا يمكنـه أن يـأكل جيـدًا، كـما هـو بـارع في أن يلقـى احـترام هـؤلاء الخـدم القذريـن.

- سـأوقف لـه شـئ أخـر غـير لسـانه. عمومًـا كان يريـد العـودة هـذا المسـاء. لا ليبقـى هنـاك، سـيعود صبـاح الغـد.

- صبـاح الغـد! ولا حتـى صبـاح الغـد! يـا ابنـي، أنـت أحمـق ولسـتَ نافعًـا في شـئ.

فقال بصوت مرتفع، بينما كان مستمرًا في تمشيط شعره:

- عمومًـا غـدًا عيـد انتقـال العـذراء، ويعقـوب مـن أقاربنـا. كفـى! والآن يـا جوفانـا ألسـت جميـلاً!

ابتسـم لهـا كاشـفًا عـن أسـنانه، فقـد كان حقًـا جميـلاً نظيفـاً لامـع الشـعر، فَرَقـت جوفانـا، وأخـذ يغنـي أغنيـة طفوليـة يغنيهـا الأطفـال عندمـا تمطـر السـماء.

أمطرى أمطرى .. عنبًا ناضجًا .. وتينًا...

ثـم تنـاول الجميـع العشـاء في فـرح وسـعادة، وأكلـت العمـة مارتينـا خبـزًا وبصـلاً وجـبن، فهـذا هـو الطعـام التـي كانـت تحبـه كثـيرًا بحجـة أنهـا ليـس لهـا شـهية، ولكـن لم يفسـد هـذا مـن جـمال لحظـة العشـاء.

بعد الانتهاء من العشاء، أراد برونتو أن تخرج جوفانا معه للفسحة والتنزه في شوارع البلدة الخاوية دون تحديد مقصدهم. كانت السماء شديدة الصفاء، ولاحت بعض النجوم مُرسلةً بريقها الذهبي في الأفق البلورية، وظُللت السماء بعبق الحشائش الجافة والأحجار المبتلة، وكانت الطرقات مملوءة بالرمل والطين، وكانت جوفانا ترتدي تنورة قصيرة جدًا وحذاء ضخم مُحدثة بخطواتها صوت أشبه بصوت المعادن عند وقوعها على الحجر، فضمها جوفاني تحت ذراعه وأخذ يروي لها أكاذيبه التي كان يقصها غالبًا عليها ليسليها.

- أتدرين ماذا وجد زاكيني (فلاحًا كان يخدمه)؟! طفلاً.

- متى؟

- أعتقد اليوم. بينما كان زاكيني يقتلع نبات البطم العدسي سمع بكاء، فنظر فإذا بطفل لا يتجاوز عمره أيام قليلة، ما قصصته حتى الآن لا يمثل شئ مقارنه بما سأحكي الآن، حينئذٍ لاحت سحابة صغيرة في السماء وسقطت بكبرها وخطفت منه الطفل. لقد كان نسرًا، ومن المؤكد أن هذا النسر قد خطف الطفل وحمله إلى إحدى الأمكان وأخفاه في إحدى البقاع الزراعية، وعندما رأى زاكيني يمسك الطفل سقط عليه و...

قالت جوفانا:

- اصمت، فلم أعد أصدقك.

- إن لم يكن ذلك حقًا، فليجعلني الله ثريًا (قال وهو يمزح).

كررت جوفانا قائلةً: "صمت اصمت اصمت".

شعر برونتو أن صفوها قد تعكر بدلاً من أن تشعر بالتسلية وسألها إذا ما رأت كابوسًا، فتذكرت حِلمها ولكن لم تجب. وصلا في تلك الأثناء إلى الجانب الأخر من البلدة أى بالقرب من بيت إيزيدورو باني المتواضع.

غطى مشهد شديد العذوبة المكان، فالقمر يطل كوجه ذهبي كبير على الأفق التي لاحت بالسماء الفضية، ولمعت الأرض السوداء بأشجارها المبتلة والمنازل الصخرية الصغيرة والبقاع النباتية والسهل الخاوِ بأكمله حتى أخر خطوط لاحت بالأفق بدت كأبتسامة تملأها الدموع.

مرا بجانب منزل الراعي وسمعا صوت إيزيدورو يغني، فتوقف برونتو. قالت جوفانا وهى تشده من ذراعه:

- لنذهب!

- انتظري، أريد أن أطرق على هذا الباب الذي من المفترض أنه باب بيته.

فقالت مرتعدةً:

- لا، لنذهب لنذهب وإلا تركتك بمفردك...

- حقًا، أنتِ تشاجرتي معه، أما أنا فلا. سأطرق على بابه.

- وأنا سانصرف.

قال برونتو مُقتربًا:

- إنه يغني قصائد مديح القديس قسطنطين التي يعطيه إياها القديس على ضفة النهر، هاهاها، كم هو مجنون ذلك العجوز!

كانت تعلم من أَلَفَ هذه القصائد، فشعرت بالحزن والغضب، فاحتضنها برونتو مرة أخرى بذراعه وبدأ يروي لها أكاذيبه مازحًا، فقد كان طيب المزاج، ولكنه كان يضحك بمفرده لأن جوفانا صمتت تمامًا.

عندما سمع البعض ممن رأوهما يمران مُزاح وضحكة برونتو، ظنوا في نهاية الأمر أن جوفانا كانت امرأة محظوظة جدًا ولكنها كانت تفكر حينها في قسطنطينو.

في صباح اليوم التالي قُرابة العاشرة بدأوا يقيمون الشعائر الدينية في الكنيسة، وقد تأخروا هكذا لأنهم كان لزامًا عليهم انتظار وصول كاهن شاب من نورو، وهو من أصدقاء الراهب إلياس وقد جاء لإلقاء خطبة مديح على أهل أورلاي متطوعًا، وكان هذا المديح يشكل حدثًا كبيرًا حسنًا كانت الكنيسة ممتلئة بحشد كبير، وكانت أرجاء الكنيسة بالفعل تهتز من كثرة من بداخلها، وتخللت خطوطًا شديد الزرقة الجدران الحمراء، وكان المِنبر من الخشب الأصفر، والقديسون الشقراء والحمر يسطعون من محاريبهم الحمراء كقديسين ألمان، فقط القديس قسطنطين، القديس الحامي كان يرتدي زى المحاربين، وكان وجهه أسمرًا وعنيفًا، وشاعت في البلدة الأسطورة القائلة بأن القديس نيقوديموس قام بنحت هذا التمثال القديم الذي تُنسب إليه المعجزات.

تسلل من الباب المفتوح في الخلفية الزرقاء الساطعة سيل ضوء شديد تخلل هذا الحشد وغمره بضوء مُحمل بالغبار. وفي قاع الكنيسة ظل المذبح شبه مظلم على الرغم من أنه كان مضاءً بالشموع التي بدا لهيبها الساكن سهامًا ذهبية تخرج من عصا خشبية بيضاء. كان الراهب إلياس يحتفل بالقُداس، ويغني صديقه الشاب بصوت مرتفع مُرتديًا ثوبه المزركش ووجهه أسمر صغير يشبه وجه طفل ماكر. تعجب الحضور من هذا الشاب الصغير الذي يغني على الرغم من أنه يجب أن يلقي خطبة وعظية، فقد جاء الكثيرون خصيصًا للإنصات إليه، وفي الحقيقة كان الجميع لا يصغون بورع إلى القداس، فكانوا يثرثرون وينظرون إلى بعضهم بفضول.

ولكن ينبغي أن نضيف أنه هذا الحشد قد عانى من الحر الخانق والحشرت العديدة التي لا تُرى. وفجأة بعد أن رتل القديس إلياس آيات الإنجيل، التفت إلى الحاضرين بوجهه الشاحب الهادئ واهتزت شفتاه.

ظهر في تلك اللحظة يعقوب ديجاس من خلف الباب الأزرق اللامع، وكان وجهه الساخر يبدو عليه البهجة، وعندما رأى الخادم الكاهن يتحدث وقف على عتبة الباب مُمسكًا قبعة كبيرة سوداء بين يديه، ولكن لم يسمع شيئًا، ثم تقدم وسأل بصوت منخفض عجوز ذو لحية صفراء:

- ماذا قلت؟

أجاب العجوز غاضبًا:

- أنا لم أسمع، فهناك ضجيج كضجيج الميدان.

التفت شاب ذو بشرة وردية، وشعر أسمرمُصفف وأنف يونانية ناظرًا إلى يعقوب، وعندما رأه مرتيدًا زيًا جديدًا نظيفًا فاخرًا ابتسم في خبث، ثم قال:

- أعتقد أن الراهب إلياس قد قال أن الراهب الآخر سيُلقي الآن قصيدة المديح

قال العجوز غاضبًا:

- أسمعت أنت ذلك؟

- أنا لم أسمع شيئًا.

تابع يعقوب السير مندفعًا بين الرجال الذين استداروا للنظر إليه. وفجأة، خيم صمت رهيب على الحشد ورجع الرجال تجاه الجدران، وجلست النساء على الأرض. وفي وسط الكنيسة الغارقة في الضوء المتلألئ الذي كان يغمرها ظهر شيئًا كسرير من الخشب الأزرق يحرسه أربعة ملائكة لهم

لـون وردي بأجنـة خـضراء بـدوا كأربعـة فراشـات. في هـذا السريـر عـلى الوسـائد المزركشـة تتمـدد عـذراء صغـيرة مُغلقـة العينـين، ولمعـت حلقـات ذهبيـة وحلقـان وقلائـد عـلى فسـتانها المصنـوع مـن السـاتان الأبيـض.

ثـم صعـد عـلى المنـبر الراهـب الصغـير بوجهـه البرونـزي الماكـر، فنظـر إليـه يعقـوب ديجـاس مُحدقًـا والتفـت إلى جانبـه مُطقطقًـا في أذنـه اليُمنـى كي يسـمع جيـدًا، ثـم سُـمع صـوت طفـولي جهـور يقـول:

- سـكان أورلاي، أخـوتي وأخـواتي، لقـد دُعيـتُ لألقـي عليكـم خطبـة قصـيرة في هـذا اليـوم المهيـب أنـا...

أعجـب هـذا الاسـتهلال يعقـوب، ولكـن لأن الصـوت كان مسـوعًا جيـدًا اسـتدار مـرة أخـرى وأخـذ ينظـر إلى النـاس مُتحدثًـا مـع نفسـه دون حتـى أن يفقـد كلمـة مـن الخطبـة.

"هـا هـو إيزيـدورو بـاني لعنـه اللـه، يرتـدي أيضًـا زيًـا جديـدًا. هـل يفكـر هـو أيضًـا في الـزواج؟ وهـذا الشـاب الأحمرالوجـه هناك في قـاع الكنيسـة قـد سـخر منـي عندمـا رآني مبتهجًـا وأرتـدي زيًـا جديـدًا لأنهـم أشـاعوا أننـي أريـد الـزواج. إذًا هـل هـذا صحيـح؟ مـا شـأنكم أيهـا الـكلاب الجُـرُب؟ ألا يمكننـي الـزواج؟ الآن أمتلـك منـزلاً وماشـية، أمـا أنتـم فلديكـم فقـط عقـول الماشـية. توفـت أختـي رحمهـا اللـه بـلا ورثـة، كانـت صغـيرة ونـضرة ومشرقـة كفتـاة. مـن قـال أنهـا أكـبر سـنًا منـي؟ أرادت أن أتـزوج، حسـنًا سـأتزوج، ولكـن مـن؟ أنـا لا أقتنـع بسـهولة، بـل أنـا خائـف بشـدة مـن هـذا القانـون الجديـد، لعـن اللـه رجـال القانـون، فمـن يمكنـه أن يثـق في هـذا العـالم؟ هاهـو سـيدي الشـاب، هـا هـو بوجهـه المُدنـس بالخطيئـة المميتـة مـاذا يفعـل هنـا؟ لمـاذا لا يجلـدوه؟ لمـاذا

لا يطردوه كالكلب؟ وأيضًا هذه هي أمه التي تشبه الطائر المفترس والفرس العجوز، إنها هناك هناك. لماذا لم يطردوهم؟

ثم فكرت، إن طردوا كل من ارتكبوا الخطيئة، ستصبح الكنيسة خاوية، ولكن هؤلاء، نعم هؤلاء، أنا أكرههم وأود أن أجلدهما حتى يدميان مع أنني لستُ سيئًا. لقد جئت اليوم متأخرًا لأنني أصلحت التلفيات التي سببها سيل المطر أمس في الحظيرة، وعندما عدت وجدت جوفانا تعد الغذاء متسخةً وتعاني بحسرة ولم تشعر بالعيد. خرجت الأم وابنها، بينما ظلت الخادمة تعمل بالمنزل، يريدون تعذيب هذه المرأة الشاردة وإن كانت تثير هذه المرأة شفقتي، أعانني الله، إنها تثير شفقتي. لقد قلت لها كلمات سيئة ولم تجبني على الرغم من أنها هي السيدة وأنا الخادم. يا طائرة الربيع، ما ذنبي إن أهنتكِ؟ لا أستطيع رؤيتك مع أنك تثير شفقتي. هذا كل الأمر. لنستمع إلى وعظ هذا الراهب الذي يبدو عصفورًا، حقًا، إنه عصفور يغرد في عشه. هاهو"

قال الشاب الكاهن مُحركًا يديه الصغيرتين الشاحبتين بتلك اللهجة الناعمة التي تشبه اللغة الإسبانية:

- إخواني وأخواتي الأعزاء، الإيمان بسيدتنا هي أسمى وأفضل العبادات، إنها المرأة الجميلة، ابنة وزوجة وأم سيدنا. اصعدي إلى السماء مضيئة عطرة كسحابة وردية واجلسي في الأمجاد بين الملائكة والسيرافيم.

قال يعقوب مُوجهًا عينيه الحولتين اللتين بدتا في ضوء الكنيسة كمعدنين لامعين تجاه المذبح:

- هاهو الراهب إلياس، ها هو الذي يشبك يديه، ها هو راهب مدلل. لا يستطيع أن يفعل أى شئ سوى الوعظ بالأعمال

الطيبة مع أنه بحوذته الكتب المقدسة وبإمكانه أن يصعق المخطئين. ياليته هدد جوفانا إيرا! يبدو أنه يحلم، الآن...

- لم يقل أحد أنه لم يحصل على ما طلبه بإيمان حقيقي من سيدتنا القديسة.

تابع الواعظ الصغير واقفًا على المنبر الأصفر:

- إنها زنبق الوادي، ووردة أريحا...

ولكن بدأت الناس تتعب، فالنساء تجلس على الأرض كشقائق النعمان والخشخاش الأحمر المتناثر على التربة. تحركوا واستداروا دون أن يعيروا أى اهتمام. فهم الراهب الشاب وأنهى خطبته مباركًا شعب الرعاه هذا الذي لبىَ نداء الله على الرغم من أشغاله ومشاغله الأخرين.

حينئذٍ أفاق الراهب إلياس من حلمه وعاود الاحتفال بالقداس. ربما كان فقط هو وإيزيدورو باني هم من أصغوا إلى الخطبة، وعندما انتهى القداس بدأ صائد السمك يغني قصائد المديح بصوته الجهوري الذي بدا كسيل ماء صافٍ متدفق. بين الوهج الوردي للأزهار والطحالب.

كان الشاب الواعظ يصغى إلى هذا الصوت الجهوري الجميل مُنتشيًا، إنها صورة إيزيدورو، هذا العجوز ذو اللحية الطويلة والعينين الفاتنتين وتشتبك مسبحة من العاج بأصابعه الخشنة، فتذكر بعض شخصيات الحجاج "كالبوث" الذين كان قد قابلهم في روما.

أراد أن يتعرف عليه، ولكن أوقف الراهب إلياس صائد السمك عند باب الكنيسة. نظر يعقوب فرآى صديقه يقف مع الكهنة وشعر بحسد كبير تجاهه. انتظره وسط الميدان وقال له:

- خسئت! ماذا قال لك هؤلاء؟

قال إيزيدورو بغطرسة:

- كانوا يدعونني لتناول الغذاء معهم.

- يدعونك لتناول الغذاء معهم؟ يا طائر الربيع، لقد أصبحت شخصية مرموقة كما يبدو لي. إذًا فلتأتي معي.

قال إيزيدورو خائفًا:

- عند ديجاس؟ لن يحدث أبدًا.

- لا، اليوم لن أكل البطاطس تلك البطاطس اللعينة. لا سآكل في بيتي! فلتأتي.

حمله إلى منزل أخته. كان قد مر منتصف اليوم، وحرقت الشمس الشوارع التي كان قد جف بها الطين، ولاحت الأشجار في عنان السماء الزرقاء المتوهجة في تلك الخلفيات البرية. كانت الناس عائدة إلى منازلها، وتُسمع أصداء خطوات الرعاة الثقيلة فوق الحصى، وكان الأطفال الذين يرتدون زى العيد ينظرون من خلف الأسوار والأبواب المفتوحة إلى داخل المطابخ المظلمة والتي كانت تلمع كميدالية ضخمة وعدد من الأوعية النحاسية، وهب دخان يميل للاصفرار في الهواء المؤكسد، ونغمة أكرديون حزينة تخرج بشكل متقطع من فناء مهجور عادةً، وسُمع صوت من تحت الأرض منبعثًا من ألة قديمة لها نغمات حزينة.

كانت البلدة بأكملها في حالة احتفال غير عادية، ومع ذلك بدا هذا المناخ الاحتفالي، فبدت تلك الأبواب المفتوحة، والدخان المتصاعد، وأطفال يرتدون ملابس جديدة، ونغمة الأكرديون، ومنازل بلا ظل، وفي هذا الضوء الشديد بدا شئ شديد الحزن.

اصطحب يعقوب صائد السمك إلى أخته وتناولا الغذاء سويًا. كانت المرأة الشابة الأرملة بلا أبناء وتعشق أخيها، بل وكانت تدعوه "أخي الحبيب"، وكانت تحب المستقبل بأكمله، وعيناها الحولتان بعض الشئ بلونها الغير واضح، واللامعتان الصافيتان كبحيرتين صغيرتين مُضيئتين بنور القمر، بدت كعيني طفل رضيع. لم تكن تتجاهل الشر، ولكنها كانت تخشى من أن يقوم الرجال بارتكابه. وكان أكثر ما جعلها تشعر بالأسف هو طلاق جوفانا وزواجها مرة أخرى وهى أختها في الرضاعة على الرغم من أنها أقرضتها الأموال لجهاز عُرسها، وكان أخوها دائمًا يسخر منها. قال لها:

- هذا صديقنا إيزيدورو يريد الزواج وجاء ليتشاور معكِ.

- بارك الله فيك يا إيزيدورو باني، هل تريد الزواج حقًا؟

أجاب صائد السمك بطيبة نفس:

- انصرفي! انصرفي!

صاح يعقوب وهو لا يزال يقطع بأسنانه القوية قطعة لحم مشوي كان يمسكها بيديه:

- أنت لا تريد الزواج؟ أنتِ حيوان قذر. يا أختي، لديه محبين.

- هذا لا أصدقه.

- فليُميتني الله إن كنت أكذب. لديه حقًا محبين يمصون دمه.

ضحكت المرأة وإيزيدورو ضحكة أطفال أبرياء حيث فهما أن يعقوب يُلمِح إلى مصاصي الدماء.

بدأ الخادم يُقطع اللحم بسكينه المسنون، ثم يضعها بين أسنانه ويده اليسرى قائلاً أنها تشبه الجيفة حيث أنها غير ناضجة. كان هؤلاء الاثنان اللذان قد شرعا في الحديث يضحكان

على أي شئ حتى ولو صغير، بينما يعقوب لم يكن يضحك دون أن يعرف السبب ولكنه لم يكن طيب المزاج كما كان منذ ساعتين.

- سأصطحبك بعد ذلك لترى قصري، فخلال أيام سأكون انتهيت من بنائه. إن أردت تأجيره، سأجد بالطبع مستأجرين، ولكني لن أؤجره، لا بل سأذهب وأسكنه أنا.

- إذًا، هل ستترك الخدمة؟

- نعم، سأترك الخدمة خلال قليل، عملت بما يكفي، فقد عملت أربعون عامًا أتدرون؟ نعم أربعون عامًا. لن يقول أحد أنني سرقت الأموال التي سأعيش بها في شيخوختي.

- هل ستتزوج؟

- لا أدري من ستريدني؟ أنا نفسي سأبصق على المرأة الشابة التي تقبل الزواج مني، وأنا لا أريد الزواج من عجوزات. اشرب يا ايزيدورو باني.

- هل ستجعلني أثمل؟ نعم، إنه عيد؟ في صحة الضيوف.

- أى ضيوف؟

قال صائد السمك بعد أن أصبح مبتهجًا:

- يعقوب ديجاس وباكيزيا إيرا.

تظاهر يعقوب بأنه يلقيه بشئ، ثم صرخ وعيناه الخضراء يملأها الغضب:

- أنا سأقتلك!

- هاهاها قاتل!

قالت العمة أنا روزا:

- اصمت، هذه أشياء يجب ألا تقولها.

شرب يعقوب كوبين من الخمر وبدأ يضحك قليلاً على مضض ناظرًا إلى أخته وصائد السمك.

- حسنًا تزوجا بعضكما! يابـاني، زوجتـي ثريـة ألم تـرى نضارتها؟ تبدو كوردة بريـة. قالوا أنها وجدت عشبة رائعة واستخلصت منها مادة ترطب الجلد.

قالت المرأة الشابة:

- بارك الله فيك. هل أنت هكذا فضولي؟

- نعم أريد أن تتزوجا. إن أختي ثريـة، فما أملكه هو ملكها لأنني سأموت قبلها، لا أعرف لماذا، ولكنني أعتقد أنني سأموت مبكرًا، أعتقد أنهم سيقتلوني.

- اصمت، إنه الخمر هو الذي سيقتلك اليوم.

تعجبت الأخت خائفة وقالت:

- أخي الحبيب، ما رأيك؟ بالنسبة لأرواح المُطهر، ما رأيك؟

قال صائد السمك:

- لست لديك أعداء. اجرح فقط من جرحك.

أجاب يعقوب بلهجة حادة وهو يبتلع في فمه قطعة بطيخ:

- كم شخص برئ جرحت! يا إلهي، أنتم لا تفهموا أيها النعاج والخراف.

رفع وجهه المُلطخ بالبطيخ الأحمر الوردي وضحك.

ثم ذهبوا لرؤية المنزل الجديد الذي كان في دور فوق الدور الأرضي، ويتكون بأكمله من أربعة غرف رحِبة ومطبخ واصطبل، وهذا يكفي، حيث كان يعقوب وكافة سكان البلدة يسمونه "قصرًا". قال يعقوب وهو يشير إلى كل جزء من المنزل ووجهه الناعم بلا حاجبان بدا شابا:

- انظروا هذا! انظروا ذاك! وكرر:

- تزوج أختى، فهذا المنزل سيصبح ملكًا لها.

أجاب صائد السمك:

- أنت تسخر مني، تسخر مني لأنني فقير.

سار على استحياء فوق الأرض الخشبية، بينما كان يعقوب يطأ بكعبه الصلب سعيدًا بما يبعثه من صدى في الغرف الكبيرة التي تفوح منها رائحة الجبس الرطب.

وفي لحظة ما طل الرجلان من نافذة كانت واجهتها الحجرية متقدة بفعل الشمس، وحيث أن المنزل في دور مرتفع لاحت هذه البلدة السوداء ككداسة من الكربون المنطفئ تحت ظلال الأشجار الخضراء، والسهل الأصفر، والجبال الشاهقة بلون رمادي مائل إلى البنفسجي ممتدة في عنان السماء المتوهجة، وجرس الكنيسة يدق ويدق، وفي هدوء الظهيرة كانت السماء زرقاء متوهجة، وبدا هذا الصوت الشديد بين الصخور الصلبة وكأنه يأتي من بعيد وبعيد، من قلب هذه الجبال الضخمة التي يعمل فيها حجَّار شاعرًا بالملل والنعاس.

أجاب يعقوب وهو يطل بسخافة من النافذة:

- حسنًا، لماذا لا تريد الزواج من أختي؟ هذا المنزل سيصبح ملكًا لها، وستكون هذه غرفة النوم، ويمكنك أن تطل من هذه النافذة يا طائر الربيع مُدخنًا البايب...

قال إيزيدوروا فاقدًا صوابه لأن كلمات الخادم بدأت تضايقه:

- أنا لا أُدخن، دعني وشأني.

قال يعقوب:

- أنا لا أمزح أيها العجوز الأشبه بالسحلية، هل أنت هكذا أحمق لتعتقد أنني أمزح؟

قال إيزيدورو:

- انصت! أنت اليوم أطعمتني، ولهذا المعروف الصغير الذي قمت به تجاهي تسخر مني. إذًا اتركني في هدوء إن أردت أن أظل ممتنًا لك.

نظر إليه يعقوب مُحدقًا، ثم شرع في الضحك وقال له:
- الآن، فلنذهب لنشرب.

ثم خرجا. اتجه يعقوب إلى الحانة، ولكن لم يرد إيزيدورو أن يتبعه قائلاً أنه يريد الذهاب إلى الكنيسة. ذهب الخادم إلى الحانة وهناك وجد برونتو وأخرين يلعبون لعبة الأرقام ماديـن أذرعتهم بعصبية صائحين بأرقام بأعلى صوتهم.

في الخامسة، وهي الساعة التي كان لا بد أن يبدأ فيها الموكب، كان الجميع قد ثَمِلوا وكان يعقوب أكثر من ثَمِل، وتجرأ على أخذ سيده تحت ذراعه حيث بدا له أن برونتو ربما قد يقع من لحظة لأخرى، ثم دعى كافة المتواجدين بالحانة للذهاب إلى قصره لمشاهدة الموكب.

بعد قليل، سُمعت في الحجرات الكبيرة الخاوية أصوات عالية وضحكات طائشة وخُطى ليست ثابته، وكانت النوافذ تُفتح وتملأها وجوه ملتحية حمراء خشنة. كان يعقوب وبرونتو يطلان من النافذة التي كان صائد السمك متكئًا عليها. غربت الشمس، ولكن ظلت النافذة ساخنة، وتحت وأمام منظر البلدة والسهل والجبال بدت مليئة بظلال كبيرة. صاح برونتو وعينيه مستديرتين وجاحظتين (كو كو).

قلده الجميع صائحين كلُ منهم بأقصى شدة صياحًا دوىَ في جنبات الغُرَف وامتلأت الشوارع بأشخاص أُثير فضولهم لما يحدث وفي وقت وجيز اشتعلت معركة الحجارة والبصق والكلمات البذيئة بين الثُمَل الواقفين بالنافذة وهؤلاء الذين كانوا بالشارع. وفجأة عم الصمت وسُمع صوت صرخة قوية حزينة تقترب، ولاح صفان من الوحوش البيضاء في نهاية الشارع، ولمع صليب فضي في الأفق الزرقاء.

انضم الرجال بالشارع إلى الصف الموجود بجانب الحائط، وخُفِضت الوجوه التي كانت بالنافذة وخلع جميع الحاضرين قبعاتهم.

قام أحد الأخوة، الذين كانوا غالبًا من الصبيان الذين انتهت عندهم المسيرة وكانوا يأخذون ثلاثة ليرات وشريحة بطيخ، بالطرق على باب المنزل الجديد ثم مضى قُدمًا وقلده الأخرون الذين تبعوه. فقال يعقوب طالاً من النافذة:

- لعنكم الله يا عديمي التربية!

ثم انصرفوا إلى المسيرة، وأراد يعقوب أن يبصق عليهم، ولكن قال له برونتو أنه لا يصح ذلك.

هاهي رايات البروكار الخضراء تتخللها مئات الأشرطة متعددة الألوان، وهاهي العصى الذهبية، وهاهي مريم العذراء تصعد إلى السماء على فراشها المحمول مُغلقة العينين وزيها مُغطى بقلائد وخواتم بدت ترجع إلى العصر البرونزي، ويحرسها ملائكة صغيرة خضراء يسيرون في الأربعة جوانب، وبجانب حاملي الفراش كان هناك أربعة رجال في زي أبيض وأربعة أطفال يرتدون زي الملائكة وأربعة طفلات جميلات، اثنتان شقرائتان وأخرتان سمرائتان يتحدثن ويصحن ليفهمن بعضهن، وشخص مُدغدغ انتهى به الحال تحت ركبة الرجل الذي يحمله وهو يضحك منحنيًا .

ثنى يعقوب وبرونتو والرفاق ركبتيهم في شكل صليب ناظرين بحنان إلى الأربعة أطفال. نظر هؤلاء إلى أعلى، وتعرف أحدهما على عمه الذي كان بالنافذة، فألقى عليه قطعة حلوى حمراء سقطت في الشارع.

كان الراهب إلياس والكاهن الصغير الذي يأتي من نورو، اللذان كانا يرتديان ملابس من البروكار المُطرز، شا حبا الوجه، يُجملهما هذا القماش القَيِم الذي كانا يرتديانه، ويداهما متقاربة ووجههما النضِر، يغنيان باللغة اللاتينية.

قال يعقوب غاضبًا:

- لعنة الله عليه، هاهو إيزيدورو باني القذر، هاهو يبدو كما لو كان صاحب المسيرة. سأبصق عليه.

قال برونتو:

- لا تفعل!

كشط يعقوب ليسترعي انتباه صائد السمك، ولكنه لم يرفع حتى عينيه، فقد كان يُرتل الصلاوات والحشد يجيبه بصوت واحد. ثم ملأ حشد كبير من الناس الشارع، وتلاشى الصليب الفضي في الأفق: رجال مكشوفي الرأس ورؤسًا صلعاء تلمع من العرق وشعرأسمر مدهون، وشعر أسمر مُجعد خشن، ورؤس نساء مغطاه بمناديل كبيرة من الصوف المُزين، وقاع أسمر ذو بقع صفراء، وخطوط حمراء في بقع خضراء، بياض القمصان على صدور النساء، ووجوه وردية، وأيادي حمراء، وعيون بارقة، وشفاه تتحرك، وعجوز أعرج، وامرأة بطفلتين، وثلاثة طاعنات في السن، وصبي يضع زهرة صفراء في فمه، يملؤون كلهم الطريق، ثم ابتعدوا وتلاشوا مع صوت تراتيل الصلاة العالية الحزينة. وبدا قط بمخالبه ووجهه الأبيض وعينيه الخضراوتين الكبيرتين، ثم قفز ونظر إلى الجدار الموجود أمام بيت يعقوب.

قال برونتو وكأنه يحييه:

- فات الأوان!

بـدأ الجميـع يضحكـون ويصرخـون، وترجاهـم يعقـوب أن ينصرفـوا، وحيـث أن الأصدقـاء لم يطيعـوه انتهـى بـه الأمـر أن طردهـم مُمسـكًا بيـده عصـاه متسـخة مـن الجـير. حينئـذَ بـدأ الرجـال المتغطرسـون الأقويـاء بفظاظتهـم في الجـرى هنـا وهنـاك في الغـرف وعـلى السـلم، يدفعـون أكتاف بعضهـم البعـض، يتدحرجون ويصيحـون مُحدثـين ضجيجًـا كبـيرًا ويضحكـون كالأطفـال وواصلـوا أيضًـا اللعـب بالشـارع بعـد أن أغلـق يعقـوب بـاب قـصره بالمفتاح، ثـم عـادوا جميعًـا معًـا إلى الحانـة.

عـاد برونتـو ولخـادم إلى المنـزل عنـد الغـروب وكلاهـما يتـكأ عـلى الأخـر. كانـت العمـة مارتينـا تجلـس عنـد الـرواق بمفردهـا ويديهـا أسـفل المريلـة ترتـل الصلـوات مُمسـكة بمسـبحة، ولم تتحـرك عنـد رؤيتهـا الرجلـين ولـن تقـل شـيئًا، ولكنهـا هـزت رأسـها ببطـئ وضمـت شـفتيها ولسـان حالهـا:

- أنتم جميلون حقًا.

صاح برونتو:

- أين جوفانا.

- عند أمها.

- حقًـا، عنـد أمهـا؟ عنـد العجـوز الجشـعة؟ هـى دائمًـا هنـاك لعنهـا اللـه.

- لا تصرخ يا ابني.

- سأصرخ، فأنا في منزلي.

صرخ واستدار تجاه الصالة وشرع يصرخ:

- جوفانا، جوفانا.

ظهـرت جوفانـا عنـد بـاب المنـزل واتجهـت ناحيـة الفسـحة خائفـة، فكلـما اقتربـت بـدا عـلى وجههـا احتقـار واشـمئزاز، ثـم

وصلت أمام الرجلين ونظرت إليهما نظرة كراهية، ضحك يعقوب بينه وبين نفسه واحمرت أذني برونتو من الغضب.

قالت جوفانا:

- ماذا بك؟ أتعاني من مغص؟

تعجب يعقوب:

- ربما سيأتيه بعد!

حرك برونتو شفتيه بشدة، ولكن لم يستطع أن يقول شيئًا وزال غضبه كما جاءه بلا سبب.

تمتم:

- إنني أريدكِ معي، فاليوم لم نرى بعضنا قط ماذا كنتِ تفعلين عند أمك؟ من كان هناك؟

قالت بمرارة لاذعة:

- بحياتي، لا أحد. من تريد أن يأتي؟

- ربما جاء القديس قسطنطين ليعطيكي قصيدة.

وغنى يعقوب بشفتيه المبتلة:

- أه أنت لم تراها يا قديس قسطنطين؟ ها هو إيزيدورو باني كالمجنون لا يريدها.. لا يريدها.

قالت العمة مارتينا:

- اصمت أنت! لا تظل الحظيرة مهجورة. هكذا ترعى شؤون سيدك؟ حقًا نسل لعين! لصوص!

فنهض يعقوب شاحبًا مُتصلبًا، وجوفانا تخشى من أن يلقي بنفسه على المرأة العجوز ويظل أمامها. جلس يعقوب مرة أخرى دون أن يفتح فمه وبث في جوفانا الرعب حيث ظلت هذه الشابة بالقرب من حماتها في وضع دفاع، ولم يكن إلا أن يغضب برونتو من أمه.

قال لها:

- ما هذه الطريقة؟ أنتم تعاملون الناس كال.. كالحيوانات فاليوم.. اليوم. نعم اليوم عيد. إن أراد أن يثمل؟ ما شأنك؟

قال يعقوب:

- أنا ثَمِلٌ بهذا السم.

أجاب برونتو:

- حقًا، إنه سم. أنا أيضًا، الآن سئمتُ من الأمهات والزوجات و... و...، من كل شئ. حسنًا سأذهب، سأذهب وأظل في قصرك، ففي نهاية الأمر نحن أقارب و...

صاح يعقوب:

- حسنًا فأخبرني، أتطمع في إرثي؟ هاهاها يا إلهي.

بدأ يضحك ضحكة عالية تنم عما بداخله من رعب، ثم شرع أيضًا برونتو في الضحك وأراد أن يقلد الخادم، ولكن بدا صوته كصرخة حيوان مبتهج في شهر مايو. حينئذٍ خافت جوفانا مرة أخرى، خافت من الظلام المحيط، ومن العزلة التي خيمت على الفسحة، ومن صحبة هذين الرجلين الذين جعلهما الخمر كالحيوانات الشرسة المتوحشة، وبدا لها أن اللعنة حلت عليهم، على الخادم الذي يثور على سيده، على الابن الذي يهين أمه، وعلى جوفانا التي كانت تكرههم جميعًا.

نهضت العمة مارتينا ودخلت المطبخ، ثم أشعلت المصباح، فتبعتها جوفانا وأعدت الغذاء. تناول الجميع الغذاء معًا وظل الجميع قليلاً في هدوء، ثم بدأ برونتو يحكي عن المسيرة التي رأها من نافذة قصر يعقوب، فأضحك العمة مارتينا للحماقات التي كان يرويها وأراد مداعبة زوجته.

كان قلب جوفانا غارقًا في مرارته، فقد مر العيد عليها أكثر حزنًا من الأيام الآخرى، فقد عملت ولم تذهب إلى الكنيسة، ولم

ترتدي حتى ملابس جديدة، وفي اللحظة الوحيدة التي سمحت لنفسها فيها بالخروج ذهبت إلى المنزل التي عانت فيه كثيرًا ومع ذلك فقد شعرت فيه أيضًا كثيرًا بالمتعة، كانوا ينادونها صائحين كما تنُادى الكلاب في حظائرها.

رفضت جوفانا إذًا مداعبات برونتو وقالت له أنه ثَمِل، فشرع يعقوب في الضحك، وأثار ضحكه جوفانا أكثر وأغضب برونتو كثيرًا وصاح:

- لماذا تضحك كالكلب الأجرب؟

- كان من الممكن أن أجيبك بأنكِ أكثر جربًا مني، ولكن... ولكن أريد أن أقول بأنني أضحك لأنني ليس لدى رغبة أن أقول لك ذلك.

- حسنًا سأضحك أنا أيضًا.

قالت جوفانا باحتقار:

- أنتم حمقى وتثيرون الاشمئزاز.

حينئذٍ غضب برونتو وضاق ذرعًا.

ثم سأل جوفانا بصوت أجش:

- ماذا بك؟ هل من الممكن أن أعرف؟ أتعلمين أنكِ تضايقيني؟ أنا أداعبك وأنتِ تهينيني، بل عليك أن تقبلي الأرض التي أمشي عليها بقدمي، أتفهمين؟

أصبحت جوفانا شاحبة الوجه وقالت بصوت حاد:

- لماذا؟ ألم يكفيك أنني خادمة هنا؟

- نعم، الخادمة تبقى دائمًا خادمة. ماذا تريدين غير ذلك يا امرأة؟

لمعت عينا يعقوب الحولتان، ونهضت جوفانا بسرعة شاحبةً وحزينة وأفرغت كل السم الذي تجرعته في وجه زوجها

وحماتها ووصفتهما بالقسوة وهددت بالرحيل وبالانتحار ولعنت الساعة التي دخلت فيها هذا المنزل، ثم صرخت كاشفة عن دينها تجاه شقيقة يعقوب.

حينئذٍ شرع الخادم يضحك بينه وبين نفسه مهمهمًا بكلمات عتاب فكاهية ضد أخته، ولكن سرعان ما صمت وأنطفأ وجهه عندما رأى صورة العمة باكيزيا السوداء وقد لاحت من فتحة الباب.

سمعت باكيزيا ابنتها تصرخ في صمت هذه الليلة الصافية حيث كانت قد أتت. وقالت العمة مارتينا بهدوء تام:

- يبدو أن ابنتك أصبحت مجنونة.

تمالك برونتو نفسه وأشار إلى حماته بأن تذهب وتهدئ غضب جوفانا، فمضت العمة باكيزيا، ولكن ها هو يعقوب يقفز على قدميه تمامًا كالمجنون ووجهه منقبض كقناع من الزيت. صاح مُشيرًا بسبابته إلى الباب:

- اخرجي من هنا.

- صاحت العمة باكيزيا بسخرية:

- هل أنت سيد البيت؟

كرر يعقوب قائلاً:

- اخرجي من هنا.

كانت العمة باكيزيا تمضي قُدمًا وهو يجري ورائها، فهربت. خرج الخادم إلى الرواق وجلس هناك، جلس وأراد أن يواصل الضحك، ولكن حدث شئ غريب، فبدلاً من أن يضح بكى بشدة بلا دموع.

كان الوقت لا يزال يمر، وتتغير السماء ومشهد الطبيعة حسب تغير الفصول، ولكن لم تتغير هيئة الأشخاص والأشياء الموجودة بالبلدة. وفي الشتاء، أنجبت جوفانا طفلة معاقة شاحبة، وجاء من نورو خصيصًا الدكتور بورو أو بيديدو كما كانوا يسموه دائمًا لتعميد هذه الطفلة المسكينة.

عندما وصل في العربة الحنطور ملتفًا في معطفه كاللفاقة بوجهه الصغير الوردي المبتسم، جرى العديدون نحوه ليروه. ثم حيا العديد من أصدقاء برونتو الذين ذهبوا للقائه وابتسم لهم وقال أنه رآهم في نورو وكانوا سعداء كثيرًا بذلك، ولكن قال أحدهم بأنه لم يذهب قط إلى نورو.

أجاب المحامي الصغير:

- لا يهم، ستذهب أنت أيضا هناك.

لقد كانت أمنية قبيحة حيث كان هؤلا الرجال يذهبون غالبًا إلى نورو لشؤون قضائية، ومع ذلك كان صديق برونتو يشعر بالسعادة.

عندما رأت العمة باكيزيا المحامي راودتها فكرتها القديمة وهى أنه يشبه الساحر. خلع الشاب معطفه والشال والأشياء الأخرى التي كان مُلتفًا بها، وقالت له العجوز أن وزنه قد زاد كثيرًا. فقال لها:

- لا يمثل لي أى شئ.

فضحك الجميع كالمجانين. تم التعميد في بزخ، ربما كانت هذه المرة هى الوحيدة التي أنفقت فيها العمة مارتينا كثيرًا

في حياتها، وأحضرت من نورو خمورًا وحلويات شهية، ولكنها لم تنم ليلاً وكانت تحضر في الصباح شاردة قلقة خشيةً أن يأخذ أحد هذه الأشياء.

نهضت جوفانا في يوم التعميد وساعدت حماتها لإعداد المكرونة للغذاء، ثم عادت إلى الفراش، ولكن ظلت جالسة متكئة على الوسادة، ومغطاه بغطاء الفراش حتى خصرها، وقميصًا وفستانًا ضاغطًا من خصرها حتى أعلى جسمها يشبه فستان العروسة، وقبعة من البروكار ومنديل أشبه بمنديل العروسة. كانت شاحبة بعض الشئ، ولكنها بدت جميلة وعيناها بدت أكبر من المعتاد.

وفي الغرفة تم إعداد مائدة الطعام، وأخرجت العمة مارتينا المفرش الصوفي الذي لم تستعمله قط منذ أن قامت بشرائه.

تم التعميد حوالي الساعة الحادية عشر وكان الصباح باردًا وغائمًا، وتدلى من السماء الصافية حول البلدة ضوء أبيض كثيف، وكانت الشوارع خاوية مليئة بمستنقعات مليئه بالثلج كانت تبدو كشظايا زجاج متسخ. خيم صمت كبير على الفسحة الموجودة أمام منزل عائلة ديجاس حيث كانت شجرة اللوز تبعث خطوط ظل أسود بفروعها العارية في دخان الضباب الأبيض.

وفجأة امتلأت الساحة بشرزمة من الناس ترتدي جلودًا وخُرقًا وبعض القبعات الحمراء المزينة وأحذية قديمة أكبر من أجسام الأشخاص الذين كانوا يرتدونها، وظهرت في الساحة هنا وهناك مجموعة من الأشخاص خصوصًا نساءً محمومات يعطسن ويسعلن مُصدرين رائحة تشبه رائحة الدخان والعوادم الكريهة. ثم لاح موكب التعميد.

تقدم طفلان يمسكان بحرص شمعتين يلمع حولهما شريطان أحمران، ثم جاءت امرأة تحمل بين ذراعيها المولود، مُغطاه بشال وترتدي زيًا من البروكار الأخضر الذي يشبه راية القديس قسطنطين. ثم ظهر الأب مُرتديًا معطفه والشال الأبيض والأسمر الذي يبزغ منه وجهه الصغير الوردي المبتهج دائمًا، والأم، إحدى أبناء العمة مارتينا، طويلة القامة ووجهها طويل حيث بدت كظل شخص في وقت الغروب وكانت تنحنى لتتحدث مع الأب، وجار برونتو على جانبها حليق الوجه وسعيد، وفي الخلف لاحت مجموعة من الأقارب والأصدقاء يسيرون كالسائرين في مسيرة مُصدرين صوتًا كصوت حوافر الحصان، وأخيرًا جاءت خادمة الأم تشعر بالبرد وتحمل أسفل ساقها وعاءً وتضع يديها في جيوب تنورتها وتخرج لسانها من حين لأخر لتلعق السائل الذي كان يسقط من أنفها الشاحبة.

شكَلَ الأوباش جناحًا في المسيرة منتظرين الأب وهم ينظرون إليه، ثم بدأ هو الأخر في النظر إليهم مُبتسمًا وحياهم بفكاهة.

- أيها الماهرون، عما تبحثون يا حيوانات الشتاء؟

قال صبي:

- إنه أعرج.

- اصمت وإلا لن يعطينا شيئًا.

مر الموكب وتغير وجه الصبية، فبعضهم غضب وأخرون كانوا على وشك البكاء، ثم شرع أحدهم في الصياح دون أن يتوقف "أعرج".

كان الأب قد ألقى في الهواء حفنة من العملات النحاسية الصغيرة، فألقى الأوباش بأنفسهم عليها صائحين مُجتمعين وهو يضغطون ويطأ بعضهم البعض حتى سقطوا على الأرض،

ودفعوا الخادمة التي بدأت تسبهم وتنهال عليهم بركلات ولكمات عددها أكثر من عدد هذه العملات. استمرت عملية إلقاء العملاء النحاسية كالمطر المتزايد دائمًا وبالتالي زاد هجوم الأوباش عليها حتى وصول الموكب إلى الكنيسة.

كان الراهب إلياس ينتظر مُتبادلاً بعض الكلمات مع خادم الكنيسة ذو الزي الأحمر الذي كان يخشى أن يقوم الراهب إلياس بفضل تسامحه باصطحاب المولود إلى منزله، بينما اعتادوا في البلدة أن يفعلوا ذلك فقط عندما يكون والدي المُعمد معًا ومتزوجين دينيًا وحثه أن يكون قاسيًا مع برونتو ديجاس ومع الآباء ومع الجميع.

قال:

- سيادتكم، لا تحمل إلى منزلك الطفلة، لا فهي إبنة زنا ولا يجب أن تنعم بهذا الشرف.

قال الراهب:

- اذهب وانظر إن كانوا قد وصلوا!

- لا، لا أرى أحدًا. سيادتكم لن تذهب؟

سأل الراهب بابتسامة صافية:

- وأنت ستذهب؟

- شأني مختلف، فأنا أذهب لإحضار الحلوى، لا لتشريف هذه الشرذمة.

وصل الموكب بعد قليل وبدأت مراسم الاحتفال، وبمجرد أن تم كشف رأس الطفلة الصغيرة الحمراء الصلعاء شرعت في البكاء كثغاء نعزة أجش، وأمسك الأب الشمعة المشتعلة وابتسم مُحاولاً أن يتذكر جيدًا الترنيمة حيث أن جوفانا طلبت منه أن يرتلها بضمير ليصبح التعميد صحيحًا.

كان كافة الأوباش تقريبًا قد تسللوا داخل الكنيسة مُحدثين ضجيجًا كصوت الفأران، عندما كان خادم الكنيسة يطردهم كانوا يخرجون ويدخلون. جلست الخادمة ومعها الوعاء والمرأة التي كانت قد حملت الطفلة على درجات مذبح الكنيسة مُنتظرة بتلهف الإكرامية (البقشيش) من الأب.

بعد أن انتهت مراسم الاحتفال وأُعطى البقشيش وارتدت الطفلة ملابسها، سادت لحظة انتظار قلقة من قبل برونتو والأصدقاء. فقد ذهب الراهب إلياس إلى غرفة الملابس ليخلع ملابسه، ولكن هل عاد؟ هل اصطحب الطفلة إلى المنزل؟

إنه لم يعد، وسار الموكب حزينًا بعض الشئ، وتبعه خادم الكنيسة مُظفرًا، وشعر برونتو برغبة شديدة في أن يعطيه بدلاً من الحلوى جرعة كبيرة من الجبس.

نظرت الناس لترى الموكب، وابتسمت وجوه كثيرة خصوصًا من النساء بخبث لعدم رؤيتها الراهب. لا أدري، فقد بدا تعميد ابنة زنا.

على الرغم من أن جوفانا لم تكن تنتظر الكاهن، إلا أنها أصبحت أكثر شحوبًا عندما غزا الموكب الغرفة، وقبلت بحزن الطفلة الشاحبة وبدت لها هذه التهاني كعزاء يغمر هذه الطفلة المسكينة.

قال الأب:

- تذكرت الترنيمة من أولها لأخرها.

- افرحي يا حبيبتي، فطفلتك ستكون معجزة، طويلة كالأم ومبتهجة كالأب.

همهمت جوفانا:

- شريطة أن تكون ذو حظ كأبيها.

تعجب الشاب المحامي ضاربًا كفيه بعضهما ببعض:
- والآن إلى المائدة! هذه عادة جميلة، كلمة شرف، رائعة.
ضرب مرة أخرى على كفية كما يُفعل لاستدعاء الأطفال، فحضر الجميع على الفور إلى المائدة أمام المكرونة التي أحضروا بعدها خنزيرًا مشويًا كبيرًا تفوح منه رائحة عطره.

بعد مرور أيام قليلة، حدث شئ غريب غير معتاد في أورلاي. بالقرب من منزل إيزيدورو باني كان هناك روثًا قد جف بمرور الوقت، وحشائش غريبة ذابلة، وسيقان نباتات ذات لون أخضر ذابل تغطيها نباتات الحرامة المقفرة، والتي بدت كأشخاص واقفة ولكن لم يعد لها رائحة.

ذات مساء، سمع إيزيدورو باني بينما كان يعد العشاء عند الغروب صخبًا يأتي من جهة هذه النباتات الواقفة، كما كان يسميها، فاتجه إلى الباب ليرى ما يحدث.

كان الشفق بارد في السماء المضيئة المائلة إلى الاخضرار، وتقدمت مجموعة من الأشخاص معظمهم من نساء سمراء تحت السماء الصافية تجاه "النباتات الواقفة"وهو يعزفون ويغنون، ففهم إيزيدوروا بم يتعلق الأمر وذهب للقائهم. كُنَ حوالي عشرين امرأة مُسناتِ وشابات يغنون بصوت منخفض يتزايد على الرغم من أنه حزين أغنية غريبة أو من الأفضل أن نقول أنها تعويذة ضد لدغة العنكبوت السام، مصحوبة بنغمات رتيبة صادرة من آلة بدائية تُسمى البوق وهى تشبه القيثار بصندوق يشبه زلعة العسل الجافة، وكان هناك شابًا شحاذًا شاحبًا وأعمى يرتدي بشكل غريب زى امرأة رثًا ومتسخًا يعزف على هذه الألة الغريبة.

ظهر ثلاثة رجال في هذه المجموعة، كان أحدهم ملتهب الوجه ومحمومًا ويده معصوبه، فعرف إيزيدورو باني أنه يعقوب ديجاس.

تقدم صائد السمك وانضم إلى هذه المجموعة ولمس بإصبعه يد الخادم المعصوبة، بينما كان يعقوب يحق فيه وعينيه مليئة بخوف شديد.

قال العم إيزيدوروا مبتسمًا:

- أتخشى الموت بسبب لدغة عنكبوت؟ ماذا؟ ماذا؟

كان النساء مستمرة في الغناء، سبعة أرامل وسبعة متزوجات وسبعة فتيات. من بين الأرامل كانت هناك أخت يعقوب التي كانت بجانبه، فقد كانت ذو بشرة وردية ونضرة على الرغم من الألم الشديد الذي يعتصرها، ودوَّى صوتها الصغير الحاد المرتفع والثائر كغناء صرصار فوق الجميع.

قال أحد الأصدقاء الذين كانوا يصطحبون يعقوب بصوت منخفض لإيزيدورو:

- إنه ليس بخير.

تعجب صائد السمك وأظهر جدية:

- حقًا!

وكانت النساء تغني دائمًا هذه الآنشودة:

ذهب القديس بطرس إلى البحر

وسقطت منه المفاتيح فيه

فأجابه الله

ما بك يا بطرس يا حبيبي؟

لدغني العنكبوت السام في قدمي
وفي قلبي وفي ظهري
خذ هذه النبتة المقدسة
وضع أوراقها مكان اللدغة
ضعها لمدة ثلاثة أيام
وسوف تشفى
يا أيتها العنكبوتات ذات البطن المزينة
ظلي في الجبل
ظلي في الوادِ
ترك واحدة في الجبل
واحدة في الجبل، وواحدة في الوادِ
قتلتني وقتلتلك

حينئذٍ كانت المجموعة قد اقتربت، وشرع رجلان مُسلحان بالفؤوس في حفر حفرة، وظل إيزيدورو بجانب يعقوب بين المرأتين اللتان كانتا تغنيان وبين الضرير الذي كان يعزف.

صمت يعقوب ونظر إلى ما كان يفعله الصديقان، بينما كان إيزيدورو يحدق في المريض حيث بدا له شخص أخر، فقد تغير، فأصبح وجهه أحمرًا ملتهبًا تبدو عليه علامات المعاناة الشديدة، وعيناه الصغيرتان الماكرتان جدًا يعلوهما الحاجبان الخاليان من الشعر يغمرهما خوف طفولي من الموت.

وعندما انتهت النساء من غناء البيت الأخير، بدأنَ الغناء مرة أخرى من البداية، وعزفوا بألة القيثار الغريبة من جديد تلك النغة المرتفعة الرتيبة التي تشبه طنين الكثير من النحل الطائر.

هبت رياح شديدة البرودة من الغرب الصافي مارةً كأنصال قاطعة على وجوه الأشخاص المحتشدين عند النباتات. كانت السماء زرقاء بنفسجية، ولكن غربت واتسعت أفاقها وأصبحت مائلة للإخضرار كبحيرة غربت عن الشمس. خيم حزن عميق على هذا الشفق البارد، فوق الهضبة التي أظلمت بالفعل، بالبلدة السوداء، على هؤلاء الأشخاص السود الذين كانوا يقومون بهذه الشعيرة الخرافية بإيمان كالوثنيين الضالين.

حفر الرجلان حفرةً بحماسة كبيرة، فبدت الأرض سوداء تشوبها قاذورات عفنة وطين وخُرق، وكان الرجلان الحفّاران يزيلونها بأرجلهما وسقيقانهما فتصعد على الكُداسة، وكانا ينحنيان دائمًا أكثر لاهثين يتصببون عرقًا، بينما كانت النساء تغني والسماء تعزف.

بعد أن حفروا الحفرة، قام إيزيدورو والعمة أنا روزا اللذان لم يغلقا فمهما المسديرلغناء هذه الآنشودة الغامضة الحزينة التي تشبه صرصرة الصرصار، بمساعدة المريض لخلع معطفه وأخذوه من يده وأحضروه بالقرب من الحفرة، فقفز فيها فجأة ودفع الرجلان التراب بأيديهم حتى ردموا الحفرة، وظل يعقوب مدفونَ الجسد ورأسه خارج الحفرة.

حينئذٍ حدث شئ يفوق الوصف حول تلك الرأس التي كانت تبدو بازغة من الجسم، ملقاة على الأرض فوق كُداسة القمامة حيث بدت الحشائش ترتجف بفعل الرياح كما لو كانت ترتعش حزنًا تحت السماء الغارقة في الحزن. بينما كان أحد الحفارين يجفف جبهته بساقه والآخر ينفض يديه مما علق بها من تراب، أحاط النساء في برهة من الوقت حول

رأس يعقوب، ورقصوا وهم يلفون حوله ويغنون أنشودتهم، وكان الضرير يعزف شاحب الوجه هادئ الأعصاب بعينيه البيضاء الملتفتة إلى الأفق الخاوية. استمر كل ذلك خمسة دقائق وبعدها كفت النساء عن الرقص ولم تعد تحاوطه، ولكن استمروا في الغناء. ألقى الرجلان وإيزيدوروا بأنفسهم في الأرض وأزالوا عن يعقوب التراب في وقت قصير جدًا باستخدام فؤوسهم وأيديهم.

خرج يعقوب وملابسة مليئة بالتراب ورقبته ووجهه داكنتان. كان غارقًا في عرقه وقال أنه بدا له أنه كان يختنق. ارتجف ومد ذراعه ثم مد الآخر في أكمام المعطف الذي أحضرته له أخته.

قال له إيزيدورو مازحًا:

- إذًا أنت لن تموت يا طائر الربيع..

ظل يعقوب كظيمًا، وجففت الرياح الباردة عرقه وشحب وجهه وارتعدت أسنانه بشدة.

اتجها إلى منزل العمة أنا روزا وتبع إيزيدوروا، الذي نسى تمامًا موعده على العشاء، هذه الصُحبة، ثم سأل المريض متذكرًا أن من يقتل العنكبوت ببنصره يمكنه الشفاء من لدغته فقط عند لمسه بنفس الإصبع:

- هل قتلته؟

قال يعقوب:

- لا!

ثم بدأ يحكي مصيبته بكلمات حاسمة وسط نغمات القيثار، قال إيزيدوروا بعنف:

- سنموت جميعًا عندما يأتي أجلنا.
وأكّد أحد الأصدقاء:
- نعم سنموت جميعًا.
ولكن لم يُرح ذلك يعقوب ديجاس الذي قال مُشتكيًا:
- تؤلمني ساقي. وظهري؟ أهٌ تؤلمني كما لو كانت ضُربت بالفأس. أنا سأموت.. أنا سأموت.

من يخرج إلى الشوارع يرى هذه المجموعة، ولكن كان الجميع ينظرون في صمت كما لو كانت جنازة تمر ولا أحد يتبعها. حُجبت عيني يعقوب وفجأة بدأ يترنح ويتكأ على إيزيدورو.

كانت النساء تسرن مهرولات كالخيول، ودوى غنائهم الحزين وانتشر، ثم تلاشى كالدخان في صمت الليل البارد حول نغمات القيثارة المرتفعة كأهات حيوان جريح مهجور في الأدغال.

وصلوا أخيرًا إلى منزل الأرملة الصغيرة، وفي الموقد الصخري الموجود بمنتصف المطبخ كانت النار مشتعلة في كُداسة موضوعة قبل الفرن بقليل، وكان هذا الفرن المستدير الواسع ذو فتحة في وسط قبوته لخروج الدخان يشغل جانبًا من المطبخ، كما كان به فتحة مربعة تسمح جيدًا بدخول شخص فيها. إذًا انحنى يعقوب ديجاس ودخل في هذا الفرن الدافئ وظهر على فتحة الفرن نعل حذائه الصلب الذي لمعت مساميره المُستهلكة قليلاً في وهج النار.

تابعت النساء غنائهن واقفات حول الموقد والفرن، والنار تهتز أمامهمن كاشفة عن صدارتهن الضاغطة الصفراء وقمصانهن البيضاء، وبدا فم العمة أنه روزا المستدير كثقب أسود صغير في وجهها الوردي البرّاق. شعر الضرير بالنار واقترب منها رويدًا رويدًا دون أن يكف عن العزف، وبوصوله عند حافة الموقد وضع قدمه الحافية على الحجر المتأجج.

نفخ إيزيدورو قائلاً:

- احترس كي لا يحرقك هذا الصبي.

ولم يكن قد أنهى حديثه، إذا بالعازف يقفز إلى الخلف وترتعش قدمه المحرقة. وللحظة توقف عن العزف على الرغم من أن النساء كنَ يتابعنَ الغناء وبدوا واقفات في سكون حول هذا الفرن يرنمون أنشودة جنائزية حول قبر يرجع لعصور ما قبل التاريخ.

وفجأة قالت العمة أنا روزا:

- اخرج.

فخرج من الفرن قدمي يعقوب الكبيرتان، وفي الوقت نفسه فُتح الباب ولاح شخص أسود وهو القديس إلياس، فعندما تم إخباره بهذا الأمر أسرع إلى منزل الأرملة ليمنع على الأقل يعقوب من الدخول في الفرن، كان يلهث وقد احمر وجهه واتقدت عيناه. عندما رأوه، صرخت امرأة وصمتت أخريات وأشارت أخريات إلى مواصلة الترنيم، وانتهى الأمر بيعقوب أنه خرج من الفرن. فقال الراهب بصوت لاهث:

- اصمتنَ! ألا تخجلنَ؟ لا؟

حينئذٍ صمتنَ جميعًا. ثم تابع تابع فاتحًا الباب وتركه مفتوحًا كما لو كانت يد مفتوحة:

- انصرفوا!

ثم انضم إلى موكب النساء، وعندما خرجنَ أدرك أن العم إيزيدورو موجود وبدا على عينيه الحزن وقال مُعاتبًا:

- حتى أنت! أهذا ممكن؟ ألم تر كيف أهلكت هذا الرجل المسكين؟

وكرر حديثه متحدثًا مع نفسه:

- ولكن هذا ممكن! هذا ممكن!

ثم واصل حديثه:

- قريبًا ستذهب لاستدعاء الطبيب. أما أنت فلتذهب إلى الفراش. تحرك!

كان يعقوب في حالة يُرثى لها، فقد كان محمومًا ورأسه ترتعش وعيناه لم تعد ترى شيئًا. خرج إيزيدورو واتجه إلى منزل الطبيب. شعر بالخزي، ولكن على الرغم من حسه الطيب وحكمته وتدينه لم يستطع أن يفهم أنه لا ضيم في أن يحاول الناس الشفاء من لدغة العنكبوت بالأغاني والموسيقى والشعائر التي استخدمها آبائنا وأجدادنا في هذه القرية منذ الوقت الذي كان يعيش فيه العمالقة في تلك المناطق..

كانت النساء قد تفرقن في الطرقات إلى مجموعات كل منها مكون من اثنين أو ثلاثة أشخاص، وكنَ يُعلقن بصوت منخفض في الظل على ما حدث، فهناك من كانت تأخذه على محمل الجد، ومن كانت تنقد الراهب، وفتاة مَرِحة كانت تضرب بيديها على فخذيها مُدندنةِ بسخرية:

سقطت علىَ الصاعقة

يا أم العنكبوت

كانت هذه هي الترنيمة التي كان عليها أن تغنيها حول فراش المريض إن لم يأت الراهب إلياس. اقتربت بعض النساء من إيزيدورو، ولكنه مضى قُدمًا مادًا خُطاه وغارقًا في التفكير. حينئذٍ انصرفت جميع النساء وخيمت ليلة باردة بدت مائلة للاخضرار حول منزل الأرملة، وبدت النجوم كعيون ذهبية غارقة في الدموع.

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر

كانت الغرفة التي يرقد فيها يعقوب ديجاس شديدة الارتفاع وفسيحة جدًا حيث لم يكن مصباح الزيت كافيًا لإضاءة أركانها، ولكن ينبغي توضيح أن الأثاث كان متناسقًا: فهذا دولابٌ من الخشب الأحمر مسنودٌ على الحائط في قاع الغرفة ويمتد حتى السقف وبه أشياء ثقيلة وهامة، وسرير خشبي ضخمًا كالجبل تلتف حول قدميه لفافة قماش تميل إلى الاصفرار. لم يكن شئ أكثر غموضًا في تلك الغرفة، ذات الأركان المظلمة والسقف المرتفع الرمادي كسماء غائمة، ومن جسم العمة أنا روزا الصغير الذي كان يتلاشى في الغرفة التي كانت تشبه ريفًا شاسعًا بمجرد أن كان يصل صدرها لحافة السرير.

راودت يعقوب ديجاس الأحلام على هذا السرير الضخم، وارتفعت حرارته إلى تسعة وثلاثين درجة. رأى في منامه أنه لا يزال داخل الحفرة، ولكن الرجلان اللذان قاما بدفنه لا يزالا يردمون التراب حول رأسه مُسببين له حالة اختناق، كان يعاني كثيرًا، ولكنه لم يبالي أملاً أن يشفى في القريب العاجل حتي غطوا رأسه بالتراب، وعلى صدر الراهب إلياس كان يهتز ذيل عنكبوت صغير. شعر يعقوب في منامه برعب شديد من الموت.

عندما كان قد دخل الفرن الدافئ، اعتقد أن جهنم كفرن مشتعل يجب أن يظل فيها المذنبون مُمددون إلى الأبد. راوده الآن في حِلمه تمامًا هذا الانطباع، فمن هذه الحفرة حيث كانوا يردمون التراب حول وجهه وهو يغلق فمه بشده حتى لا يبلعه، رأى فرنًا مشتعلاً. إنها جهنم، فكان يشعر بالرعب،

حتى في حلمه وفي لا وعيه، بهذا الكابوس بسبب الحمى، وشعر بشكل غريزي بحاجة شديدة إلى إدراك أن كل هذا كان وهمًا. ثم استيقظ وجاءه انطباع وهو إن كانوا نادمين على ما فعلوا لكان عليهم أن يُعذبوا بالأحجار الموضوعة في النار حتى تحرق أجسامهم ولا يتحركون ولا يهربون من مصيرهم المروع.

شعر يعقوب ديجاس بأشياء من هذا القبيل كما لو كان يُعَذب بحجارة موضوعة في كُداسة مشتعلة داخل فرن مشتعل في جهنم، فشعر في يقظته برعب أكثر قسوة مما شعر به في منامه وأطلق صرخة صماء شديدة متأوهًا فشعر بالراحة كما لو كانت صوت إنسان يعزف له في جهنم المُرعبة.

ومن المطبخ المجاور سمع إيزيدووا، الذي كان لا يظل موجودًا لمساعدة الأرملة الصغيرة قدر استطاعته، تلك الصرخة أثناء نومه فشعر بالخوف واستيقظ مُعتقدًا أن يعقوب قد مات، فقفز لأعلى ودخل الغرفة. عندما اقترب من الفراش، رأى المريض نائمًا على ظهره ووجهه طويل على غير العادة، وعيناه التي بدت سوداء كانت تلمع من كثرة الدموع.

سأل صائد السمك بهدوء:

- هل أنت يقظ؟ ماذا تريد؟

وجس نبضه واقترب منه بأذته كما لو كان يريد سمع دقات قلبه، ثم رأى يعقوب بعد قليل من حافة السرير الأخرى وجه أخته الصغير ملفوفًا في منديل أبيض.

حينئذٍ حدث شئ غريب: أصبح وجه المريض صغيرًا واتسع فمه وأُغلِقت عيناه، ودوىَ أنين طويل في أرجاء الغرفة. عادت المرأة الشابة بذاكرتها إلى الماضي البعيد عندما كان يعقوب

طفلاً يبكي على نفس الفراش، فمدت ذراعيها وداعبت المريض بصوت حاني يشوبه الغضب:

- بارك الله في الانفس المتطهرة المقدسة. ماذا بك؟ بم تشعر يا أخي الحبيب؟

استمر إيزيدورو في جس نبض المريض مُندهشًا وحاول أن يبحث مرة عن عِرق ومرة عن أخر وقال:

- يا إلهي، إنه أمر مثير للفضول!

- إذًا، ماذا بك؟ هل لك أن تقول لي ماذا بك؟ ماذا حدث له؟ قل لي أنت يا إيزيدورو باني.

صرخ قائلاً:

- لا شئ لا شئ، ربما أتاه كابوس، هذا كل ما في الأمر. والآن سنعطيه قليل من الماء، إذًا فاحضري له القليل منها. إذًا فلتشرب الآن. يا إلهي! كيف تشرب؟ هل كنت تشعر بالعطش؟ إنها الحُمىَ، هذا كل ما في الأمر. أتفهم؟

عندما شرب يعقوب الماء تصبب عرقًا، ثم هدأ تمامًا. كان يرتدي كنزة (فنلة) قديمة من القطن الأبيض مُزخرفه فزينت صدره الصغير، ولكنه كان قويًا مُغطى بشعر كثيف أسود على العكس من رأسه ووجهه اللذان كانا محلوقين تمامًا. ظل جالسًا ومُنحنيًا إلى الأمام غارقًا في التفكير، يُمرر يده السليمة على ذراعه المُصاب.

قال فجأة بصوت لاهث شاكيًا من الحُمىَ:

- حقًا، راودني كابوس. يا لشدة الحر، يا قديس قسطنطين! إنه حر جهنم. لقد حلِمت بجهنم.

فردت الأخت مُعاتبةً:

- يا لها من أفكار! يا لها من أفكار! يا لها من أفكار.

قال العم إيزيدورو مازحًا:

- وهل كان الجو حار يا طائر الربيع؟

شعر المريض بشئ من الغضب، ثم قال مُنحنى الرأس ماسكًا بذراعه:

- لا تسخر مني، لا تناديني بعد ذلك «بعصفور الربيع». أنت تغضبني. لن أعد أقول ذلك، لن أعد أسخر من أى شخص. انصت لي، إن جهنم شئ سئ. يجب أن أموت ولكن يجب أن أخبركم بشئ، ولكن لا تخافي يا أنا روزا فأنا يجب أن أموت وأنت تعرف ذلك جيدًا يا عم إيزيدورو إذًا يمككني أن أقول لكم أنني أنا الذي قتلت بازيلي ليدا.

فتحت العمة انا روزا عينيها وفهمها وأسندت صدرها على الفراش وبدأت ترتعش بشدة. وصاح إيزيدورو:

- لم أكن أعرف شيئًا.

رفع حينئذٍ يعقوب وجهه خائفًا وبدأ هو الأخر يرتع، ثم قال متوسلاً:

- لا تُبلغ عني فأنا سأموت. هل ستبلغ عن ذلك فيما بعد؟ كنت أظن أنك تعلم! ماذا بكِ يا أنَا رو؟ لا تخافي فلن يُبلغ عني.

قالت متمالكة نفسها بعض الشئ:

- ليس الأمر هكذا.

بدا لها كما لو كانت قد تلقت ضربة حجر على رأسها، الآن تلاشى هذا الاحساس الجسدي، ولكن كان شئ غامض يحدث بداخلها كما لو كانت روحها غادرت جسدها وحلت محلها روح أخرى ترى الأشياء والعالم والحياة والسماء والأرض والله بشكل مختلف عن روحها الهاربة، فكل ما كانت تراه بروحها الجديدة كان مليئًا بالرعب والعتمة والصخب.

قال إيزيدورو:

- لـن أقـول شـيئًا، لا لا ولكنـني لم أكـن أعـرف شـيئًا. كيـف كان يمكننـي أن أعـرف لـك؟

لم يكـن يشـعر بالخـوف مـن يعقـوب، بـل كان يشـعر بشـفقة تجاهـه ولكـن في الوقـت نفسـه كان يتمنـى لـه المـوت. وسرعـان مـا فكّـر الثلاثـة أشـخاص الذيـن شـهدوا هـذه الدرامـا في قسـطنطينو ولم يعـد يتـلاشى هـذا التفكـير ولـو للحظـة. ثـم قـال إيزيـدورو ضاربًـا بيـده عـلى الوسـادة:

- فلتنم!

فهـز يعقـوب رأسـه وأجـاب بصوتـه الشـكّاء اللاهـث الـذي كان أحيانًـا مُتوسـلاً وأحيانًـا غاضبًـا:

- كنـت أظنـك تعلـم ذلـك، إذًا ألم تكـن تعلـم؟ حقًـا، كيـف كنـت سـتعلم؟ كنـت خائفًـا منـك، ولكننـي كنـت أظـن أنـك تقـرأ مـا بعينـي، فقـد قلـت لي ذات ليلـة «ربمـا قـد تكـون أنـت مـن قتلـت بازيـلي ليـدا». كنـت خائفًـا تلـك الليلـة، ثـم قلـت لي في يـوم أخـر وهـو يـوم عيـد انتقـال العـذراء هنـا بهـذا المنـزل «يـا قاتـل». كان مُزاحًـا، ولكننـي كنـت خائـف لأننـي كنـت خائـف منـك، حتـى عندمـا كنـت أقـترح عليـك الـزواج مـن أختـي كنـتُ جـادًا مُعتقـدًا أننـي أعـزز علاقتنـا.

تأوهت الأرملة:

- عزيزي عيسى المسيح! حبيبي عيسى المسيح!

نظر إليها يعقوب لحظة:

- هـل تشـعرين بالخـوف؟ أتتسـائلين لمـاذا فعلـت ذلـك؟ لأننـي كنـت أكـره هـذا الرجـل، فقـد ضربنـي وحرمنـي مـن الأمـوال، ولكننـي شـعرت بالمـوت عندمـا أدانـو قسـطنطينو ليـدا. والآن تتسـائلين لمـاذا لم أعـترف إذًا؟ مـن السـهل قـول ذلـك ولكـن فعلـه

مستحيل. كان قسطنطينو شابًا طيبًا، وقد اعتقدت أنني سأموت قبله، ساعترف بكل شئ، وما فعلته جوفانا إيرا جعلني أشعر بأنني كبرت مائة عام. ماذا سيقول قسطنطينو عندما يعود؟ ماذا سيقول؟ (كرر بحزن كما لو كان يستجوب نفسه)، ماذا سنفعل الآن؟

حنت العمة أنًا روزا رأسها على غطاء السرير وتنهدت، وبدا لها أنها في كابوس مروع، ولكنها لم تفكر ولو للحظة أن تخفي ما كشف عنه أخيها. وماذا بعد؟

شعر قلبها بأن شيئ يجب أن يحدث من بين شيئين فظيعين: إما موت يعقوب أو إدانته. لم تكن تدري أيهما تختار.

قال العم إيزيدورو ضاربا مرة أخرى بيده على الوسادة:

- الآن ننام لنستريح، وغدًا سنفكر فيما نفعل.

عاد يعقوب للنوم على ظهره ورفع يده السليمة وبدأ يعد على أصابعه.

- الراهب إلياس واحد، ثم العمدة، ثم... ما اسمه؟ برونتو ديجاس نعم نعم بالضبط إنه هو. أريدهم جميعًا هنا للاعتراف أمامهم.

سأله العم إيزيدورو مُندهشًا:

- ستعترف لبرونتو ديجاس؟

- لأن الناس ستصدقه أكثر من الجميع، ولكن احلفوا لي جميعًا قبل كل شئ على الصليب أنكم ستتركوني أموت في سلام. أنا خائف، ستتركوني أموت في سلام إذًا؟

رد صائد السمك بصوت هادئ واضعًا الغطاء على المريض الذي كان يزيله دائمًا غاضبًا هازًا رأسه:

- نعم! اطمأن الآن. وأنتِ أيتها المرأة عودي إلى فراشك، استريحي ونامي.

قال يعقوب:

- أشعر بالحر، أشعر بالحر. اتركوني. كيف لا أراك مندهشًا يا عم سيدوري؟ ظللت خادمًا كي لا أثير الشكوك حولي، أكنت تعلم؟ نعم نعم كنت تعلم.

- لم أكن أعلم شيئًا يا ابن الله.

- إذًا لم لا أراك مندهشًا؟

فرد بصوت أجش:

- لماذا أندهش؟ تحدث في العالم أشياء كثيرة هكذا، إنها أشياء متكررة الحدوث. عمومًا، لا تزل الغطاء وحاول أن تنام.

رفعت الأرملة، التي بدا أنها لم تسمع ما قاله الرجلان، رأسها وشحب وجهها الصغير الملئ بالتجاعيد، وبدت كافة السنوات التي مرت في هدوء دون أن تُجعِد وجهها قد انتقمت منها في لحظة.

قالت المرأة:

- يا يعقوب، لن تكون هناك حاجة إلى شهود، فلا حاجة إلى استدعاء أى شخص. ألن أكفي أنا؟

نهض ونظر إلى إيزيدورو، فنظر إليه إيزيدورو وقال الاثنان:

- حقًا.

بعد ذلك، عم هدوء كبير في الغرفة الصفراء الغامضة. تمدد المريض مرة أخرى على الفراش وصمت وهدأ، ثم نام، وأنصتت أيضًا الأرملة إلى نصائح العم إيزيدورو وذهبت إلى الفراش.

عادت واجهة الدولاب الكبيرة المائلة للاحمرار تملأ أرجاء الغرفة في الضوء الخافت، وغطى السقف الذي له لون

السحاب صمت الغرفة كما لو كان يعلو ريف مهجور، وبدت كافة الأشياء هادئة تردد ببرود كلمات العم إيزيدوروا.
- إنها أشياء تحدث بالعالم.

كان الطبيب الذي أحضروه من أورلاي، الدكتور بودو، كالحيوان البدين المنتفخ. كان لديه هو أيضًا منذ وقت مضى بعض أحلام كبيرة، ولكن المصير ألقى به في تلك القرية المهجورة التي نادرًا ما يمرض أهلها، وكان قد شرب قبل كل شئ ليدفئ نفسه حيث أنه كان من الجنوب وأيضًا لأنه كان يحب الكحوليات والخمر كثيرًا، وكان ساذجًا تمامًا بالإضافة إلى كونه مدمن كحوليات حيث لم يكن حتى سكان أورلاي يقدرونه.

كان يعقوب ديجاس يشتكي من ألم بجانبه، والدكتور بودو يقرصه في يده التي لدغها العنكبوت ويقول له بصوت أجش:
- أيها الأحمق، تلك الأشياء لا تسبب الوفاة. كما أنك إن مت ستكون كحمار يموت.
نظرت إليه العمة أنا روزا بغضب وتذمر، كانت قد استشاطت غضبًا، فانفعلت المرأة المسكينة على الجميع باستثناء المريض. فالآن تبدو كما لو كانت عجوز.

بعد تلك الليلة ظل وجهها الصغير شاحبًا ومُجعدًا، فلم يعد كما كان. لقد غيرها اعتراف أخيها بشكل غريب جسديًا وأخلاقيًا، وكانت تتسائل بدهشة بالغة لماذا قام يعقوب بقتل إنسان.
"هو! كان مرِحًا ووديعًا كالحمل. لماذا أيتها الأرواح الطاهرة؟ إن أبانا لم يكن لصًا، لا، بل كان رجلاً متدينًا، وكان دائمًا مرحًا

ويمزح وخصوصًا عندما يجد صديق يشعر بالضيق فيحاول أن يظل في صحبته".

رق قلب المرأة الشابة عندما تذكرت الأب العجوز المتوفى وغيمت سحابة فظيعة على عقلها حينئذٍ، وامتلأ وجهها الشاب بالتجاعيد مرعوبة من تفكير مخيف يراودها.

"هل ارتكب أيضًا العجوز المَرِح، العجوز القديس بعض الجرائم؟ يجب ألا نعد نثق في أى شخص، لا باحياء ولا بأموات ولا بعواجيز ولا بصبيان".

ثم بكت العمة أنا روزا وضربت على صدرها بقبضتها الصغيرة وندمت على شكوكها المروعة، وذهب إلى المريض الذي اعتلت وجهه معاناة جسدية وامتلأت عيناه بالخوف وبدت كما لو كانت تتوسل الموت ليتركه، وأحس تجاهها بشفقة كبيرة جدًا وحنانًا أشبه بحنان الأم وألمًا بارحًا.

كانت هذه أول مرة يشعر فيها بحبها الشديد له، كان يجلس القرفصاء على الفراش الكبير شاعرًا بالرُعب بعد أن ملأه الخوف، بينما كانت كل الأشياء وكل الأشخاص حتى الأموات المقدسين والصبية الأبرياء كانوا يثيرون داخلها شكوكًا رهيبة ورهيبة مريرة وحقد عميق، هو فقط الذي يثير بها شفقة وحنان وحب وعذوبة كبيرة ودافئة كالشمعة المشتعلة. وفي تلك الأثناء كان عليها أن تراه، كانت تراه يموت، فكان عليها أن تتمنى له الموت أو أن تداويه بحنان كبير، أو تتمنى أن يكون العلاج والأدوية وكل ذلك بلا جدوى. وهذا الموت، هذا الشئ الفظيع الذي كان لابد أن تتمناه لأخيها بالإضافة إلى الألم العميق الذي كانت تشعر به، كان لا يزال يثير بداخلها شيئًا أكثر فظاعة وهو إدانته بالجريمة.

ولكن كان أكثر هذه الأشياء حزنًا بالنسبة للعمة أنا روزا هو أن المريض كان يدرك مشاعرها. وبالفعل في ثالث أيام المرض حمل إيزيدورو للمريض في غموض دواءً أعطاه له خادم الكنيسة. وكان هذا الدواء مكونًا من زيت الزيتون تطفو فيه ثلاثة عقارب والحربش (أم أربعة وأربعين) وعناكب الرئيلاء وعنكبوت وعش الغراب السام، وهذا الدواء كان يشفي من أى لدغة، فدهنت على الفور العمة أنا روزا على يد المريض المنتفخة الداكنة من اللدغة، فتركها تفعل ناظرًا بحرص إلى يده، ثم قال بصوت هادئ:

- لماذا تقومين بمداواتي يا أنا روزا؟ ألا تريدينني أن أموت؟

شعرت بأن قلبها يتقطع. ثم قال يعقوب ناظرًا إلى إيزيدورو:

- لقد تم أيضًا ذلك. ولكن إن لم أمت، ماذا ستفعل؟

- اطمأن، فالله معنا.

صمت قليلاً ثم قال:

- هل ستذهبون معًا إلى القاضي؟

- ماذا؟

- إلى القاضي. الآن الجو بارد والرحلة طويلة. غدًا لا تسافري يا أنا روزا على الفرس، حسنًا؟ ولكن اذهبي في عربة الحنطور إلى نورو.

فسألته غاضبةً وتظاهرت بأنها لم تفهم:

- من أجل ماذا؟

- لكي نذهب إذًا للقاضي.

فصرخت فيه، ثم خرجت ذاهبةً إلى المطبخ وبكت بمرارة. قال إيزيدورو عندما خرج وانصرف:

- هاهو الزيت!

- كان بإمكانك ألا تحضره. متى سيأتي الراهب إلياس؟

- سيأتي هذا المساء.

ثم قال:

- حسنًا، يجب أن يقوم يعقوب بالاعتراف. فالوقت يمر وهو يزداد سوءًا، فهذه الليلة لم يغلق عينه. يبدو لي كطائر جريح.

سأل شخص أخر:

- هل أتت أفراد عائلة ديجاس؟

قالت في يأس:

- نعم لقد أتوا، أتت الأم والابن، بل أتى برونتو مرتين. نعم لقد أتوا، أتوا جميعًا، ولكن بم يفيد ذلك؟ لن يمكنهما أن يمنحاك لا الحياة ولا الموت.

قال إيزيدورو وهو يلف بحرص زجاجة الزيت في منديله الأحمر:

- كلاهما (الحياة والموت) ينفعه ويضره.

أجابت المرأة:

- هكذا بالنسبة للجميع.

أتي الطبيب بعد ذلك بقليل ملفوفًا في عباءته الضيقة التي كانت ياقتها لامعة. كان بالفعل ثمِلاً، وكان ينفخ ويبصق هناك وهناك وأحيانًا على نفسه، وكان يتدفق من بين شفتيه الداكنتين بخار خمر البراندي كريه الرائحة، ومع ذلك فزع عندما رأى الحالة التي كان فيها يعقوب.

سأله بغلظة:

- ماذا بك؟ جانبك؟ جانبك؟ هل يؤلمك؟ لنرى ليلاً!

أزال الغطاء وكشف جانب يعقوب المُشعِر ومسكه ووضع عليع أذنه، ثم قال وهو يغطيه بشكل سئ:

- تبًا! سرعان ما تمرض كالأطفال.

ولكن عندما اصطحبته العمة أنَا روزا إلى الباب، اتجه إليها مُحدقًا وقال لها:

- إذًا، أيتها المرأة اجعليه يعترف، فهو يعاني من التهاب رئوي.

قام يعقوب بالاعتراف وقت الغروب، ثم استدعى أخته وقال:

- ستذهب أنَا روزا وأيضًا الراهب إلياس معكِ إلى القاضي، وستذهبون في العربة الحنطور لأن الجو بارد.

كان الجليد يتساقط بالفعل بالخارج، وتسلل ضوء مائل إلى البياض حاملاً في طياته حزن كبير إلى الغرفة الغامضة التي بدى سقفها كسماء مليئة بالسحب.

نظر الراهب إلياس إلى العمة أنَا روزا التي كان يحبها كثيرًا حيث أنها كانت تشبه إلى حد ما أمه، ولكنها كانت لا تزال أصغر حجمًا، وبدت سوداء في الضوء الخافت المنبعث من الشفق الغائم، كما كانت تحني رأسها خجلاً من الجريمة التي ارتكبها أخيها، ففهم الراهب إلياس بفطرته المأساه البطولية لهذه النفس المسكينة وباركها في سريرته.

الفصل الخامس عشر

حل شهر مارس، وكان وادِ إيزالي الموحش كعادته والذي تُغطيه حشائش طويلة جدًا وبقع مزدهرة وحقول شعير تتموج في النسيم كأنسجة ذهبية مائلة للاخضرار، يبتسم للربيع كعجوز فظ أثملته الشمس والعطور وغطى نفسه بالأغصان والأكاليل على سبل المُزاح.

صفير حاد وطيور مغردة زقزقتها كنغمات الناي تملأ جنبات الصمت الرهيب بالوادِ، مُندمجة مع عبق أشجار النرجس وأزهار الردم، وكانت أشجار النرجس وأزهار الردم اللذان تبدو أوراقهما الكبيرة المزدهرة كما لو كانت منغمسة في حمام ذهب ذائب، منعزلة على حافة الهاوية كما لو كانت تريد رؤية قاع الوادِ.

مرت حورية ضخمة ومدت بساطًا من الزهور البنفسجية وخيالاتً وعطور، وبدت بعض الرياض التي تتخللها الحشائش ونبات الحوذان من بعيد كأطراف بحيرة خضراء تعكس ضوء السماء المزينة بالنجوم، وكانت تضحك وتهمس هذه الأشجار الغريبة للنسيم.

بمجرد أن غربت الشمس، تلونت السماء من الغرب بلون يشبه لون الخوخ الناضج، بينما من الشرق والشمال امتدت فيها الجبال كأحجار كريمة ضخمة فوق لفافة حرير أرجوانية.

كان قسطنطينو ليدا عائدًا إلى بلدته سائرًا على قدميه بعد أن أُفرج عنه في نور هابطًا الوادِ ببطئ وحاملاً حقيبة صغيرة من القماش على كتفيه. كان يتوقف أحيانًا ناظرًا إلى الطريق هنا وهناك مُفكرًا:

- يا إلهي، يبدو لي الوادِ الآن أصغر، ربما لأنني رأيتُ البحر!

أصبح عجوزًا بلا لحية ووجهه شديد البياض، ولكن لم يبدو عليه على الإطلاق أى حزن كما كان من المفترض أنه يبدو عليه. كان عائدًا بمفرده سيرًا على الأقدام حيث أنه لم يكن لديه أى طريقة لتحديد موعد خروجه وإلا لذهب بعض أقاربه أو أصدقائه للقائه، كما كان حنينه لرؤية بلدته مرة أخرى يقتله.

كان يهبط الوادِ مُبتهجًا بعض الشئ ربما لأنه تذكر نورو التي كان قد شرب فيها الخمر وأعد منه للرحلة، وكانت تنحني قدماه أحيانًا الهبوط ولكنه لم يكن ينزعج لتلك الأشياء الصغيرة. ثم فكر:

- إذًا، عندما لم أعد أتحمل التعب سأستلقى وأنام وفي حقيبتي خبز وخمر. ماذا يلزم غير ذلك؟ أنا حر كالطيور. حقًا، أنا أعزب. كم هو شئ مثير للفضول! كنت متزوجًا ذات مرة، والآن أنا أعزب.

بدا له أنه غارق في الضحك، كان يهبط ويستمر في الهبوط متأملاً الآن الطريق المائل للاصفرار تتخلله حشائش طويلة، الآن يتأمل الطيور التي أثارت بداخله الشعور بأنه يشبهها، والتي كانت تطير منخفضة مُلامسةً تقريبًا الأرض وتدخل البقاع النباتية لتنام. تذكر طائر العقعق العجوز الذي كان بالسجن وشعر بشئ يذيب صدره.

- إذًا، لم لا؟ فقد شعر بألم عند مغادرته هذا المكان الموحش وهؤلاء الرفاق الذين لم يحبهم وهذه الأسوار المروعة وتلك السماء التي قمعته لسنوات طويلة من فوق الفناء كلوحة معدنية.

بعد وفاة المتهم الحقيقي مرت أيام وشهور قبل أن تعلن العدالة بشكل رسمي الإفراج عن البرئ، وعندما أُخبر قسطنطينو بكل شئ شعر بشغف وبدت له الأيام تمر كسنوات، ولكن عند رحيله كان يبكي تقريبًا. هذا الحنان المؤلم الذي كان يبدو شفقة ورحمة بهؤلاء المتهمين الذين ظلوا هناك، كان سببه هو فراقه للأشياء التي تركها هناك حيث أنها شكلت حياته وكيانه ومصيره. الآن انتهى أيضًا هذا الشعور المؤسف، مر كل شئ حتى ألمه الشديد لما فعلته جوفانا لدرجة أنه بدا له أنه بمقدوره أن يضحك على كل هذا.

هبط الوادي حتى وصل إلى قاعه، ثم بدأ يسير بمحاذاه ساحل نهر إيزالي، كان ضوء الغروب لا يزال ساطعًا والماء يلمع هنا وهناك بين أشجار الدفلى والقصب عاكسةً بريق السماء الوردي الأصفر، وظلال نبات الخمان التي تشبه الدانتيل وأشجار الدفلي التي تشبه المرجان الداكن تبدو لامعة كما لو كان عليها طلاء فضي.

فكر قسطنطينو قائلاً:

- سأنام جيدًا في الريف، ولكن كم أشعر بالفضول للذهاب هناك!

طرق على باب منزل إيزيدورو:

- من بالباب؟ - أنا! أنت من؟ - أنا قسطنطينو ليدا. يا لوجه العم إيزيدورو...

مـن يـدري هـل سـيغني ترنيمتـه في تلـك السـاعة؟ وأيضًـا قصائـد المديـح! حقًـا انظـر! لقـد كتبـت قصائـد مديـح! يـا لـه مـن شـئ يثـير الفضـول!

تعجـب مـن بعـض أمـور المـاضي كـما يتعجـب الشـباب مـن بعـض الأشـياء التـي كانـوا يفعلونهـا أو يرونهـا في صغرهـم، ولكـن تعجـب قسـطنطينو أيضًـا مـن عـدة أشـياء في الحـاضر، فتعجـب عـلى سـبيل المثـال مـن أن الربيـع قـد حـل وأن هـذا الـوادِ الـذي بـدا لـه صغـيرًا جـدًا هـو في الحقيقـة فسـيح جـدًا وأنـه عـبره ليصـل إلى بلدتـه.

سـار بـين حقـلى قمـح يتخللـه ضـوء ذهبـي وهـب عليـه نسـيمٌ داعبـه كـما لـو كانـت يـد خفيـة كبـيرة تداعبـه وفكـر قائـلاً:

- سـيقول لي ادخـل، فتـح لي بيتـه، ثـم سـيقول لي أن يعقـوب ديجـاس قـد مـات، أتعلـم لقـد كان هـو القاتـل! - أنـا أعـرف أيهـا الشـيطان، ليـس لديـك شـئ أخـر تقولـه لي؟ - إذًا تزوجـت زوجتـك مـن رجـل أخـر. - يـا إلهـي، أعلـم أيضًـا ذلـك! - كيـف لا تبـكي؟ - لمـاذا يجـب أن أبـكي؟ لقـد بكيـت كثـيرًا والآن لم يعـد لـدى رغبـة في البـكاء. مـاذا تعتقـد أن أكـون؟ لـدىَ الآن تجربـة كافيـة، فقـد سـافرت ورأيـتُ البحـر ولم أعـد صبيًـا. لم يعـد شـئ يهمنـي.

ولكـن فجـأة بينـما كان يتباهـى بقـوة روحـه أو مـن الأفضـل أن نقـول شـكه الغريـزي ، شـعر بانقبـاض قلبـه:

- أه، سـأعود هنـاك إلى بيتـي الصغـير وسـأجد جوفانـا وطفلنـا وماضينـا!

فقال بصوت مرتفع:

- لم يعـد هنـاك شـيئًا. مـرح الريـح وأخـذ كل شـئ. كل شـئ .. كل شـئ.

جلس بإحدى أطراف حقل القمح مُختنقًا من الألم، فما حدث هو أن ألمه الأكبر كان قد انتهى بالفعل منذ وقت مضى، ولكن يبدو أنه قد اختفى تحت الأرض وسار تحتها مُلاحقًا قسطنطينو. لم يرى هذا الوحش المُختبئ لوقت طويل، ولكن شعر به في بعض اللحظات وهو يقفز لأعلى خارقًا الأرض برأسه القوية مُستمتعًا بالانقضاض عليه ناهشًا حلقه، فيقطع قلبه ويخنقه. وبينما هو جالس أخرج قسطنطينو من حقيبته الصغيرة يقطين جاف (أى القرع العسلي) غارقًا في النبيذ وشرب حتى الثمالة، فوضعها وتأمل الحقل وبدا له أنه على ضفاف بحيرة تعوم على مياهها التي تشبه الزمرد الذهبي أوراق الخشخاش الحمراء.

بعد ان استراح استانف رحلته وبدا مُبتهجًا، ولكنه لم يسر بالحماسة التي كان يسير بها من قبل. لم يكن يعنيه إن وصل في ذلك اليوم أو اليوم التالي له حيث أنه لم يكن أحد ينتظره. تابع السير حتى غشى عليه الليل بينما كان يعبر قاع الوادِ، وبدت الصراصير كما لو كانت تقطع الأعشائب بمناشيرها الفضية الصغيرة، وفاح عبق الزهور والأعشاب الدافئ في الجو، وغاب النسيم، وصمتت الطيور ولاحت أسراب الخفافيش في الشفق الرمادي المضئ.

يا لليالي الربيع الحزينة التي تُحزن أيضًا النفوس السعيدة! أليس هو ربما ذلك الحنين الموروث للجنة على الأرض، للأزهار، وللحشائش ولدفئ الربيع العطر الخالد الذي خُلق الإنسان من أجله وتاه فيه.

سار قسطنطينو بعد أن قضى سنوات طويلة يعاني قسوة الظلم ما بين جدران موبوءة ورجال فاسدين في مكان سُجِن

فيه الهواء نفسه، وعبر الفضاء الفسيح يطأ بقدميه الحشائش والأحجار، وبصعوده الجبال البازغة من الوادِ لاحت له الأفق تتفتح أكثر فأكثر، وبدت السماء الشاسعة العذبة تمامًا كالحرية نفسها ملتوية على الرغم من أنه لم يشعر قط في السجن بهذا الحزن العميق الذي سيطر عليه في ظلال تلك السماء الفسيحة.

كان يسير، لماذا؟ وإلى أين؟ كان سعيدًا في بداية الرحلة حيث بدا له أنه ذاهب لبعض الأماكن التي ربما يجد فيها ما يُفرحه.

كان الشفق يغطي الأفق وبدت له رحلته عبث وكان يسير بلا جدوى، فلم يعد لديه وطن أو منزل أو أسرة، ولم يكن قد وصل إلى أى مكان وظن أنه تاه في صحراء شاسعة رمادية كالسماء المنبسطة فوق رأسه، حيث تبدو النجوم المضيئة مشتعلة كأشخاص تسير وحيدة لا تعرف بعضها البعض، تائهة مثله في تلك الحرية الزائفة.

مع كل هذا لم يحزن عندما كان يفكر مباشرة في جوفانا وفي السعادة المفقودة للأبد وفي المصائب التي ابتلاه بها قدرٌ ظالم وقد أبلت هذه الأحزان نفسه وجسده اللذان يشكلان أعماق كيانه حيث بدى له أنه قد نسى تلك الأحزان كما ننسى ما نرتديه من ملابس، ولكن كانت تُحزنه بعض الذكريات القديمة لأشياء مادية كان قد تركها ولم يعد يجدها.

حقًّا، رغم هذا الحزن الشديد المُدمر الذي يشبه رائحة الأرض البور البرية التي كان يعبرها، شعر بالتعب والجوع، وعندما وصل إلى قمة إحدى المنحدرات جلس وفتح حقيبته.

ساد الليل على المكان، وبدى صافيًا وشفافًا من الشرق بين الجبال التي تخفي ورائها البحر، ولاح الفجر المضئ بنور

القمـر، ومـرت مجـرة درب التبانـة في السـماء كـما لـو كانـت طريـق أبيـض كبـير خـاوٍ، واحتفـظ الغـرب بضـوء خافـت ينبعـث مـن البحـر البعيـد.

خيـم فجـر سـاخر عـلى الجبـال كاشـفًا عـن الطريـق، وبـدت البقـع النباتيـة متماسـكة ومسـتديرة كقطعـان سـوداء، وفي ذلـك الصمـت الرهيـب دوى فقـط نحيـب طويـل لطائـر الوقـواق.

أكل قسـطنطينو وشرب، ثـم جلـس ليسـتريح، وللحظـة تأمـل تلـك المجـرة الكبـيرة الصافيـة التـي تشـق السـماء في عزلـة كبـيرة، ثـم أغلـق عينيـه مُتلـذذا بالطعـام والنبيذ والراحة وشـعر بالسـعادة كـما كان في بدايـة الرحلـة.

بمجـرد أن أغلـق عينيـه رأى رفاقـه في السـجن وشـعر كـما لـو كان معهـم بجسـده يصلـح الأحذيـة، وشـعر بفرحـة طفوليـة عندمـا تذكـر مـا كان يرويـه لأصدقائـه بـأورلاي. كان عليـه أن ينهـض ويسـتأنف الرحلـة ليصـل مبكـرًا. وفكـر قائـلاً:

- اللأن سأستيقظ وأتابع سيري.

ولكن سرعان ما أجاب على نفسه كطفل غريب:

- لا، لا شـئ مـن هـذا، سـأظل هنـا، وأنـام هنـا فأنـا أشـعر بالنعـاس. لا يجـب أن أنـصرف.

ثم تابع مشتت الفكر:

– إيزيـدورو بـاني ينتظـرني، سـأقول لـه كـم عرفـت مـن النـاس! وأننـي رأيـتُ البحـر وأن لي صديـق يسـمى الضابـط بـوراي وأنـه سـيجد لي عمـلاً كإسـكافي في قـصر الملـك. إذًا الآن سـأنهض وأذهـب.

لكنـه لم يتحـرك، فقـد لاحـت بفكـره أفـكار مُربكـة، فتخيـل الشـايب يمتطـي حـمارًا ويعـبر هـذه المجـرة الكبـيرة اليُمنـى التـي

تدور في السماء، وفجأة صاح "اثنين.. ثلاثة"، ونادى قسطنطينو الذي فتح عينه المغلقة ثم أغلقها، ثم فتحها مرة أخرى.

ثم فكر قائلاً:

- يا لحماقة طائر الوقواق، سأذهب... نعم سأذهب. ولكن أخذه السُبات.

عندما استيقظ، كان القمر في عنان السماء يطل على الجبال بوداعة تمامًا كوجه مضئ يزين السماء المخملية الفضية، وسقطت قطرات الندى من تلك السماء التي يتخللها ضوء يميل إلى الزرقة، وغطت بعض جوانب الجبال ظلال كثيفة كحُجب سوداء كبيرة، ولكن لاحت كل صخرة وكل بقعة وكل زهرة بوضوح على سطح الأرض الغارقة فى نور القمر، وطائر الوقواق يطلق دائمًا صيحته القوية الحادة كنصل سكين فولاذي.

ارتعش قسطنطينو وأنعشته قطرات الندى، ثم استيقظ وتثائب، ودوى تثاؤبه الطويل "أأأأأه" في الصمت الرهيب، ثم نظر إلى السماء لمعرفة الوقت، ولم تكن النجمة قد أرسلت ضوئها الزمردي الذهبي على البحر، إذًا لازال الفجر بعيدًا، فاستأنف قسطنطينو رحلته أملاً أن يصل بلدته قبل أن يستيقظ الناس.

لم يكن يريد أن يظهر أمام عامة الناس الفضوليين، وكان يخشى تحديدًا من أن تراه جوفانا أو والدتها، فكان يحاول تجنبهما ولم يكن يرد أن يراهما أو أن يمر أمام منزلهما. فما الفائدة وقد انتهى كل شئ؟

استأنف إذًا رحلته، كان يصعد ويهبط مُتسلقًا التلال المُضاءة بنور القمر. كانت البقاع النباتية ونبات البروق المبتل بقطرات

الندى والصخور نفسها تفوح برائحة رطبة ومثيرة، وكانت بعض جداول المياه تهبط في صمت بين النباتات المزدهرة.

كانت السماء ترسل أبخرة زرقاء لتلك الأفق الفسيحة فوق الجبال الزرقاء التي بدأت تختفي، وتلاشت الأفق البعيدة في أبخرة زرقاء كما لو كان حلم. كان قسطنطينو يسير ويتابع السير، فشعر بالنعاس ولكنه كان يسير برشاقة ونشاط، وكان يقفز من حين لأخر مارًا بمنحدرات وعرة وتوقف بأعلاها يلهث وقلبه ينبض بشدة، وأضاء نور القمر الذهبي عينيه الصافيتين.

كلما كان يسير كلما كان يتعرف على الأماكن مُستنشقًا عبق بلدته التي ولد فيها، رأى نباتات الشعير والقمح التي تم زراعتها لا تزال خضراء والأراضي البور والأشجار البرية قليلة الأوراق تصدر حفيفها عند هبوب الرياح كعواجيز نائمة تتحدث أثناء النوم، وفي الأعلى بدت له الجبال الضخمة زرقاءً في ضوء القمر، واستمر في الصعود فلاح له شاطئ البحر، ذلم البحر الذي تفاخر بعبوره، لا يهم كيف.

وصل إلى كنيسة القديس فرانسيس وتوقف هناك، وغطى رأسه وصلى.كانت صلاته صادقة حيث أنه شعر في تلك اللحظة بفرحة عودته كما لو لم يكن قد شعر بها من قبل.

سمع إيزيدوروا طرقًا على بابه مع أول حلول الفجر، إنه ينتظر منذ خمسة عشر، عشرين يومًا، بل من أربعة أشهر أن يُطرق على بابه، فقفز على قدميه، ولكن قبل أن يقفز قلبه العجوز في صدره ذهب وفتح الباب، فرأى أو لمح شخصًا طويلاً

لا يرتدي زى البلدة، ولكن كان يرتدي زيًا من نسيج الفستياني الغليظ كالجلد، وكان وجهه طويلاً وشاحبًا، فلم يتعرف عليه في البداية.

شرع قسطنطينو في البكاء مُطلقًا ضحكة حادة أسائت إلى صائد السمك، حينها عرف أنه هو صديقه الشاب، ولكنه شعر ببرود تجاهه، حقًا إنه قسطنطينو، ولكنه لم يعد قسطنينو كما كان ومع ذلك عانقه دون أن يُقبِله وشعر بقلبه غارقًا في الدموع.

قال قسطنطينو تاركًا حقيبته:

- كنت أعلم أنك لن تعرفني.

كان صوته ولكنته قد تغيرا أيضًا، ثم شعر إيزيدوروا بلين تجاهه بعد أن كان باردًا تجاهه ويشعر بالشفقة.

- لماذا ترتدي هكذا؟ كان من الممكن أن تنتظر بنورو حتى أحضر لك الزي والفرس. هل عدت سائرًا على قدميك؟

- لا، أقرضني القديس فرانسيس فرسه. إذًا ما عندك يا عم إيزيدورو؟ أنا لا أريد القهوة ألديك براندي (خمر).

نهض صائد السمك الذي كان قد شرع في إشعال النار منزعجًا ومُرتبكًا حيث لم يكن باستطاعته أن يقدم شئ أخر سوى القليل من القهوة، ثم قال فاتحًا يديه:

- لم أكن أعلم ذلك، ولكن انتظر سأذهب فورًا...، كنت أنتظرك ولكن اعتقدت أنك لن تأتي. (ثم شرع في الخروج)

تعجب قسطنطينو وأوقفه:

- إلى أين؟ إلى أين؟ لا أريد شيئًا، فقد كنت أمزح. اجلس هنا.

جلس إيزيدورو وبدأ ينظر إلى قسطنطينو على استحياء، ثم استرد شجاعته رويدًا رويدًا ولمس سرواله بجانب ركبته وساله إن كان سيظل بزيه هذا.

تسلل ضوء الفجر من الباب المفتوح وبدا وجه قسطنطينو رماديًا شاحبًا، وقال مستمرًا في إطلاق ضحكته القبيحة هذه:

- نعم سأظل بملابس هكذا حيث أنني سأذهب خلال قليل.

- ستذهب؟ يا إلهي! أين؟

أجاب قسطنطينو كما لو كان يلقي درسًا:

- لقد عرفت أُناسًا كثيرة وسأجد منهم من يساعدني. ماذا تريد ان أفعل هنا؟

- إذًا فلتعمل كإسكافي. ألم تكن قد كتبت لي بأنك تريد ذلك؟

- أعرف ضابطًا يُسمى بوراي (كان قسطنطينو يرى دائمًا الشايب ضابطًا)، وهو يعيش الآن في روما وكتب لي بأنه سوف يجد لي عملاً كإسكافي في قصر الملك.

نظر إليه صائد السمك بشفقة، ولكن حقًا البائس كان شخصًا أخر. وتسائل العم إيزيدورو:

- لماذا يتحدث هكذا؟ لماذا يقول حماقات على الرغم من أن هناك أشياء كثيرة أهم لنتحدث فيها؟

ولكن بدا له أن قسطنطينو يتظاهر باللامبالاه حيث يختفي تحت قناعها الزائف. ولكن لماذا؟ إن لم يبح لي فلمن؟

ثم قال:

- إذً فلنتحدث الآن عن شئ أخر، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد. ولكن لماذا لا تريد قليلاً من القهوة؟ ستُنعشك!

أجاب قسطنطينو بصوته الرتيب:

- إذًا عما تريد أن تتحدث؟ كنت أعلم أنك ستتعجب لعدم بكائي ولكني بكيت كثيرًا ولم أعد أرغب في البكاء. سأذهب، فمن المستحيل أن أظل هنا بعد ان عبرت البحر.

ثم سأل وهو يسمع صوت خطوات بالخارج:

- من الذي يمر؟ لا أريد أن يروني؟

نهض ووارب الباب، وعندما استدار كان وجهه قد تغير واقشعرت ذقنه وقال خافضًا صوته أكثر وأكثر:

- كنت أمر هناك، فوجت نفسي هنا ولك أكن أريد أن أتي، ولكن وجدت نفسه هنا دون أن أدرك. كيف يمكنني أن أظل هنا؟ قل لي.

وضع يده على صدغه وهز رأسه يائسًا، ثم ألقى بنفسه على الأرض مُرتعشًا بشدة وبكى مُطلقًا صيحات شديدة خانقة تمامًا كطور مربوط تم تعليم جسده بقطعة حديد ملتهب.

شحب وجه صائد السمك بعض الشئ، ولكنه لم ينطق بكلمة لتهدئة ما به من ألم شديد حتى عاد صديقه قسطنطينو إلى طبيعته.

بمجرد أن تلاشى صوت قسطنطينو، امتلأ منزل صائد السمك بالناس وشهد اليوم بأكمله ذهاب وإياب أصدقاء وأقارب وأشخاص لم يتبادلوا مع هذا المسكين ولو كلمة من قبل، فالآن يأتون إليه ويعانقونه ويعرضون عليه بيوتهم، وكانت النساء تبكين وتدعونه "ابني" وينظرن إليه بشفقة، وأرسلت له جارته خبزًا وسجق.

بيد أن ما أظهروه من تقدير وشفق أغضب الشاب الذي قال لإيزيدورو:

- لماذا يشعرون بالشفقة تجاهي؟ اطردهم. لنذهب إلى الريف.

أجاب إيزيدورو مُنحنيًا على الموقد يطهي السجق:

- سنذهب، سنذهب يا حبيب الرحمن، فاصبر! كم إنك أصبحت سيئ! لا أصدق!

بعد أن انفجر قسطنطينو من الألم عند بزوغ الفجر، لم يعد يشعر حينئذٍ العم إيزيدوروا بالتعاطف معه، بل بدأ يصرخ في وجهه كالطفل، وفي اللحظات المعدودة التي ظلا فيها بمفردهما أخذ يروي له العم ما حدث، وقسطنطينو ينصت إليه بانتباه مُنزعجًا ممن كانوا يأتون ويقطعون الحكى.

ثم أتى العمدة والذي كان لا يزال راعيًا ووجهه يشبه وجه نابليون الأول، وكان لهذه الزيارة في الحقيقة وقع على نفس قسطنطينو. قال له العمدة وهو يحك أنفه بيده:

- لـن نعطيـك أغنامًـا وأبقـارًا أجـل، سـيعطيك كل راعـي ماشـية، وإن احتجـت اى شـئ اطلبـه فـورًا، فنحـن جميعًـا أخـوة في هـذا العـالم وخصوصًـا في البلـدان القـرى الصغـيرة.

فتذكـر قسـطنطينو مـا فعلـه معـه إخوتـه في بلدتـه الصغـيرة، فهـز رأسـه قائـلاً:

- حقًـا، فعـل أخـوتي معـي كـما فعـل قابيـل مـع هابيـل\ لا تكفـي الأغنـام والأبقـار لتمنحنـي الحيـاة وتعوضنـي.

أجابه العمدة مُتمسكًا بفكرته:

- حسـنًا، ولكـن هـذا لا يهـم. لقـد سـافرتَ، فاخـبرني، أرأيـت مـن قمـة الجبـل القـرى المنتـشرة في الريـف؟ ألم يبـدو لـك أنـك رأيـت منـازلاً كثـيرة تعيـش بـكل منهـا أسرة؟

بـدأ قسـطنطينو يتضايـق مـن أحاديـث العمـدة وأجـاب بأنـه يريـد أن يـترك البلـدة ويذهـب بعيـدًا دون أن يعـود.

فنصحه العمدة:

- لا تذهـب، لا تـترك البلـدة! إلى أيـن سـتذهب؟ عليـك أن تظـل هنـا حيـث أننـا جميعًـا إخوة.

ثـم حـضر الدكتـور بيـدو حاملاً شمسـية كبـيرة رمادية متسـخة وذهـب لـيرى مـا بداخـل القِدر.

بدأ يصرخ بصوته الأجش ضاربًا بشمسيته على القِدر:

- كلكم مجرمون لأنكم تأكلون القاذورات.

قال إيزيدورو:

- كفـى! أسـف، ولكـن هـذه ليسـت قـاذورات، إنـه فـول وشـحم خنزيـر وسـجق.

- ألم يـأتي ذلـك مـن الخنزيـر؟ كلكـم هنـا خنازيـر. إذًا أنـت عـدت؟ حمـدًا للـه عـلى سـلامتك!

ثم اتجه إلى قسطنطينو قائلاً:

- لقد رأيته وهو يموت. من؟ من؟ يعقوب ديجاس. لقد مات أبشع موتة كما يستحق. لتستحم، فهذا يلزمك بالتأكيد بعد الرحلة.

نظر إليه قسطنطينو في صمت، وصرخ الطبيب في وجهه مُنقضًا عليه وهدده بأن يضربه بالشمسية:

- أتعتقد أنني مجنون؟ يلزمك الاستحمام، أتفهم، الاستحمام.

قال قسطنطينو:

- لقد سمعت.

- حمدًا لله! سمعت أنا أيضًا أنك تريد الرحيل فلتذهب إلى الجحيم، اذهب ولكن قبل الرحيل اذهب إلى المقبرة عند الحظيرة التي تطلقون عليها مقبرة، ثم احفر واستمر في الحفر ككلب وانخر في عظم يعقوب ديجاس.

عضَ على أسنانه كما لو كان يَقرُض عظامًا، فقد كان سخيفًا وفظيعًا، فنظر إليه قسطنطينو بدهشة.

- لماذا تنظر إلى هكذا؟ لقد كنت دائمًا أحمقًا يا عزيزي الحيوان الصغير. ها هو هناك هادئ ومُسالِم كالبابا. نزعوا منك كل شئ، خانوك، قتلوك، وضربوك بوضاعة كما لو كنت جثة، أنت تهزي وتقول خرافات، لماذا لا تتحرك؟ لماذا لا تذهب إلى هذه المرأة السيئة وإلى أمها وإلى حماتها وتشدهن من شعورهن وتربطهم في ذيول الأبقار التي يريدون أن يتصدقن بها عليك، وتشعل النار في تنانيرهن، ثم اطلق الأبقار في البلدة حتى يحترق كل شئ. كل شئ، أتفهم؟ أتفهم يا حيوان؟

كان يصرخ في وجهه باعثًا من فمه رائحة الأفسنتين (شراب مُسكِر) الكريهة وعيناه داميتان، فتراجع قسطنطينو إلى الخلف وجعلته هذه الكلمات يرتعد.

ولكن سرعان ما ابتعد هذا الرجل المُريب وانصرف متوجهًا إلى الباب مُحركًا شمسيته، ثم قال:

- لدى رغبة في كسرها بسببك. فمثلك يستحق ما حدث له. فالآن اذهب لتستحم يا أحمق.

تعجب قسطنطينو قائلاً: "سأفعل ذلك" ثم ابتسم، ولكن تركت كلمات "الدكتور" انطباعًا عميقًا عليه، حقًا فقد كان يشعر في لحظات معينة بيأس كبير يجتاحه. كان يقول أنه يريد الرحيل، ولكنه لم يكن يدري تحديدًا إلى أين سيذهب ولا ماذا سيفعل إن ظل في بلدته، ثم فكر:

- أنا بلا منزل وليس لدى أحد، فاليوم أتوا ليروني، ولكن غدًا لن يعد يتذكرني أحد. أنا كطائر بلا عش. ماذا سأفعل؟

دوت كلمات "الدكتور" في عقله. أيذهب، يذهب هناك وينقض كالبرق على هؤلاء الذين أضاعوا حياته!

قال له إيزيدورو بينما شرعا في أكل السجق والخبز الأبيض الذان أعدتهما لهما جارتهما:

- لا يا إيزيدورو، إنها ليست سعيدة، إنها ليست سعيدة. لم أعد أنظر إلى وجهها، فعندما أراها أشعر بشئ غريب كما لو كنت ترى شيطانًا، ومع ذلك أتعاطف معها، انظر قالوا لي أن لديها ابنه تشبه حبة فول ناضجة. فهي صغيرة ونضرة. كيف يمكن لأطفال الزنا أن يكونوا بهذا الجمال؟ تم تعميدها كإبنه زنا، فلم يصطحبها الراهب إلى المنزل وكانت الناس حزينة في الشوراع.

قال قسطنطينو وهو يقطع قطعة اللحم السمينة المائلة للاصفرار:

- أه، هل تتذكر طفلي؟ إنه لم يكن يبدو جميلاً. يا حسرتاه،كم كنت أتمنى أن يعيش.

بدأ صائد السمك يتفلسف:

- من الأفضل أنه مات، فالحياة مليئة بالبؤس من الأفضل أن نموت أبرياء وأن نذهب ونصعد فيما ما وراء السماء الزرقاء إلى الجنة الممتدة فوق تلك السُحب والرياح بعيدًا عن المصائب الإنسانية.

ثم تابع:

- أى بؤس؟!

- اشرب يا قسطنطينو، هذا الخمر ليس جيد ولكنه لا يزال لاذعًا. أتذكر العام الماضي عندما دعاني يعقوب ديجاس لتناول الغذاء في منزله في عيد انتقال العذراء، كان خائفًا مني، فقد كان يظن أنني أعرف... وكان يريد أن يزوجني شقيقته، وإن رأيت تلك المراة لن تعد تضحك، إنها ذهبت معي ومع الراهب إلى القاضي في نورو وأقسم لك أنني لم أر امرأة في شجاعتها قط. نهضت من الأرض، ثم انحت وشحب وجهها تمامًا كالثمار التي تجف على الشجر قبل أن تنضج. أذهب دائمًا لأطمأن عليها وأسليها وأقول لها: "ألن نتزوج يا حبة الشعير"، فتبتسم وأبتسم أنا أيضًا، ولكننا نشعر بالرغبة في البكاء. من كان يعتقد ما حدث؟ أقصدأن أقول أن يعقوب كان سعيدًا وفرحًا وثري وكان يفكر في الزواج، ولكنه سقط فجأة على الأرض ككمثرى فاسدة. هكذا تكون الحياة، وباكيزيا إيرا التي تاجرت بابنتها مُعتقدةً أنه بذلك سيتغير حالها هى الآن تموت جوعًا أكثر مما كانت، وجوفانا إيرا التي فعلت فعلتها مُعتقدة أنها ستصل إلى عنان السماء بينما هى على الأرض، وكانها الآن كالضفدعة الوضيعة التي تعيش في بؤس.

فسأله قسطنطينو في حزن:

- هل كان يضربها هذا الرجل؟

- إنه لم يضربها، ولكن كان يعاملها بشكل أسوأ من الضرب. كانوا يعاملونها كخادمة، أتعلم كعبده كما كان يعامل القدماء العبيد. هكذا كانوا يعاملونها في هذا البيت.

قال قسطنطينو رافعًا الكوب:

- إذًا لعنه الله! لتشرب في صحة هلاكه.

عندما سمع أن جوفانا تعيسة شعر بسعادة وحشية، ناتجة تقريبًا عن ألم جسدي، تمامًا كالسعادة التي يشعر بها الأطفال عندما يرون أن زميل بغيض لهم قد ضُرِب.

خرج الرجلان بعد الغذاء واستلقوا في ظلال شجرى التين البري. كانت الظهيرة حارة، وكان الهواء الساكن يفوح برائحة الخشخاش، وتصاعد في الأفق دخان رمادي كما يحدث في الظهيرة بفصل الصيف، والنحل يطن غازفًا نغماته الصغيرة الرتيبة. نام قسطنطينو المتعب المنهك على الفور، ولكن لم يستطع صائد السمك أن يغلق عينه.

قفزت مُهره صغيرة خضراء فوق الحشائش والخشخاش مُصدِرةً صوت لاذع، فمد إيزيدورو ذراعه وبدأ في صيدها، وكان حينها يفكر:

- أنا أعلم لماذا يريد أن يرحل، إنه لازال يحبها، فهذا الصبي المسكين إن ظل هنا سيعاني كمعاناة القديس لورنسو من الرشوة. ها هو هناك، يبدو كطفل، يبدو كصبي مريض. يا إلهي، ماذا فعلوا فيه؟ هل عذوبه! ماذا به!

حدث له شيئًا غريبًا بينما كان يصطاد المُهره حيث ظن أنها تعاني كما يعاني قسطنطينو، فتركها تذهب.

لاح ظل شخص في نهاية الطريق، فعرف العم إيزيدوروا أنه الراهب إلياس، فقفز على قدميه وذهب إليه وأخذه

داخل بيته، ولم يرد أن يوقظ قسطنطينو الذي كان نومه خفيفًا فاستيقظ ونهض عندما سمع حديثهما، وبينما كان يقترب من الباب سمعهما يتحدثا عنه.

قال الراهب بصوت جاد:

- من الأفضل أن يرحل. هذا أفضل!

لم يدرِ قسطنطينو لماذا انزعج من سماعه هذه الكلمات، ولكنه لم ينصرف.

مرت الأيام وانتهى الناس من مضايقة قسطنطينو الذي بدأ يجول في البلدة دون أن يعد يشعر بالفضول تجاه النساء والصبيان، واشترى بالأموال التي كسبها في السجن جلود ونِعال وخيوط دوبارة، ولكنه لم يشرع في العمل قط. كان يشتري كل يوم لحوم وفاكهه ونبيذ ويأكل ويشرب كثيرًا مُتظاهرًا بأن إيزيدورو يقلده، وكانت ضيافة إيزيدورو له قد أثقلته حيث كان يخشى أن يظن الناس أنه يعيش مُتملقًا، فكان يميل إلى أن يظهر كريمًا مع إيزيدورو ومع الجميع. وكان يصطحب إلى الحانة العديد من معرفه وكان يُسكِرهم ويثمل هو الأخر وحينها يشرع في حكى قصته في السجن وكان يُهَوِل من الأمول بشكل مبالغ فيه.

وعندما انتهت أمواله، صرخ فيه إيزيدورو قائلاً:

- الآن ليس لي أبناء، ليس لدي أحد أفكر فيه، اتركني وشأني!

كما كان يعتمد على ميراث عمه المقتول، هذا الميراث الذي وعده أقاربه أن يعيدوه إليه دون اللجوء إلى العدالة. وقال:

- إذًا، سأبيع كل شئ وأرحل وسأعطيك مائة ليرة يا عم إيزيدورو.

ولكن الرجل المسكين لم يرد شيئًا، كان يريد فقط أن يعود قسطنطينو كما كان قبل أن تصيبه تلك المصيبة، طيبًا ونشيطًا وليس زائفًا.

كان العجوز يشعر بأن البائس قسطنطينو كان يتظاهر، فكان يشعر بألم عميق لذلك، ولكن غالبًا ما كان يفاجئه بدموع عينيه وحينها يقفز قلبه العجوز من الفرحة.

كان يسأله:

- ما بك يا حبيب الرحمن؟

ولكن كان قسطنطينو يشرع في الضحك بينما كانت الدموع تنساب على وجنتيه، فكان هذا مروعًا. كانا أحيانًا يذهبا لصيد العلقيات، وبينما كان إيزيدورو يجلس بساقيه العاريتين المغمورتين في الماء الراكد المائل للاصفرار حيث كان مجرى الماء راكدًا، كان قسطنطينو يروي وهو مُمدد قصصًا عن حياة أصدقائه في السجن ناظرًا إلى الأفق بحنين غريب.

إذًا فالرحيل الرحيل! كان يريد أن يرحل، فهناك تحت السماء الباعثة للشجن، وفي العزلة المميتة التي تسود الهضبة التي تحيط بها الجبال الضخمة شعر بأنه مُحاصر مخنوقًا بحلقة حديدية ملتهبة، فكل شئ ابتداءً من الأعشاب النامية في الطرقات وعلى القمم الجبلية كان يُذكره بالماضي، وكان يتجول كل مساء في حذر كالثعلب حول منزل جوفانا.

ذات مساء رأى المرأة الشابة الطويلة تخرج من رواق المنزل متجهةً لمنزلهم المتواضع، لقد كان أول مرة يرى فيها جوفانا منذ الإفراج عنه، فتعرَفَ عليها على الفور على الرغم من الظلام الذي كان يسود ذلك المساء الغائم عالي الرطوبة.

كان قلبه ينبض بشدة ومع كل نبضة كان يشعر بألم مختلف، إنه ألم الذكريات ويأس شديد. كان على وشك أن ينقض عليها،

يعانقها، ثم يقتلها بعد ذلك، ثم لم يكن يكفيه أن يراها هكذا في الخفاء وفي الظل، ولكن تملكته الرغبة في رؤيتها وأن يجعلها تراه في ضوء الشمس، ولكنها لم تكن تخرج أبدًا وكان يخشى أن يمر أمام البيت الأبيض أثناء النهار.

في مساء يوم السبت، سمع ضحكة برونتو تُدوي في الرواق وبدا له أنه يسمع أيضًا صوتها، حينها أعتمت عيناه وجاءه انطباع مماثل للمعاناة التي شعر بها عند انتقاله من كاليباري إلى نابولي عندما استيقظ وهو يشعر بدوار البحر. كان حينئذٍ يتظاهر بأشياء دون أن يعرف السبب، وبدا له كافة أهل أورلاي بغيضين حتى العم إيزيدورو باني. وكان يتسائل أحيانًا في دهشة:

- لماذا عدت إلى هنا؟

- أنا سأذهب.

هكذا قال لصائد السمك في الهدوء الذي كان يسود الهضبة، في خلفيتها الأفق الزرقاء الصافية التي لاحت فيها الغابات البرية وأشجار القطلب كسحابة خضراء.

- كتبتُ إلى صديقي بوراي، فهو بإمكانه كل شئ، حتى وإن كنت مُذنبًا لجعل الملك يعفو عني.

أجابه يوم ما إيزيدورو بينما كان جالسًا بساقيه العجوزتين النحيفتين المُشعرتين المُنغمستين في الماء الراكد:

- لقد قلت لي ذلك بالفعل! لقد مللت الآن من سماع نفس الحديث ولكنه الآن لا يجيبك!

- سوف يبحث عن مكان لي، حقًا سأرحل. ولكن قل لي الحقيقة، لماذا يريد الراهب أن أرحل؟ أيخشى أن أقتل برونتو ديجاس؟

- حقًا، هذا هو السبب.

- لا، ليس هذا هو السبب. سأقول له "يا راهب إلياس، أنت تعلم انني إن كنت أريد أن أقتل أحد لفعلت فورًا". وهو يكرر دائمًا "انصرف.. انصرف من الأفضل" ما رأيك يا عم الصياد، أترى أن أرحل أم لا؟

أجابة إيزيدورو بعتاب:

- أنا لا أعرف شيئًا، كل ما أعرفه هو أنك تبدو كلبًا كسولاً. قل لي لماذا لا تعمل؟ لماذا تعتمد على صديقك بوراي هذا؟ أيها الأحمق، فهو لا يفكر حتى فيك.

قال قسطنطينو مُستاءً:

- أه لا يفكر في؟ هأنا سأريك الآن إن كان يفكر في أم لا. ها هو!

نهض قسطنطينو وأخرج خطابًا من جيب سترته الداخلي وبدا يقرأه له، لقد كان خطاب بوراي الذي كتب له من روما حيث كان قد أنشأ متجرًا صغيرًا لبيع نبيذ سردينيا. كان الشايب كعادته يُبالغ في الأمور، فكان يقول أنه صاحب مستودع خمور كبير وعرض على قسطنطينو أن يستضيفه ووبخه لعدم انتقاله إلى روما ضامنًا له فرصة عمل، ففتح صائد السمك عينيه الزرقاوتين مُتعجبًا كالأطفال، ثم أخذ يقول:

- يا إلهي، انظر انظر! لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟ لماذا أخفيت الخطاب؟ كم يلزم للذهاب إلى روما؟

- خمسون ليرة، هذا الأمر كله.

- وهل تمتلك هذا المبلغ؟

- نعم بالتأكيد أمتلكه.

تعجب العجوز باسطًا يده نحو الأفق:

- حسنًا فاذهب، تفضل!

صمتا للحظة، حنى صائد السمك رأسه تجاه الماء مُحدقًا في قاع البحر الحصى البيضاء التي تشبه البيض وقسطنطينو ينظر بلا مبالاه أمامه، وخلف مجرى الماء كانت الحشائش المرتفعة الذهبية التي تغطي السهل تميل بفعل النسيم، في خلفيتها الزرقاء تهتز سيقان الشوفان الطويلة كشلالات ماء. ظن العم إيزيدورو أنه قد حان الوقت ليبوح لقسطنطينو عن السر الذي من أجله أراد الكثيرون أن يترك قسطنطينو البلدة.

- جوفانا لا تحب زوجها، يمكنكم أن ترا بعضكما.

- وماذا إن رأينا بعضنا؟!

- لا شئ، يمكنكم ذلك. هذا كل شئ.

صاح قسطنطينو وصوته يدوي بشدة في صمت الشاطئ:

- حسنًا فلا شئ. إنني أحتقر هذه المرأة القذرة. أنا لا أريدها.

- أنت لا تريدها، ولكنك تدور حول منزلها كما تدور الذبابة حول العسل.

قال قسطنطينو مُتأثرًا:

- يا إلهي، أتعلم ذلك؟ ليس حقيقي...، حسنًا حتى وإن كان حقيقيًا ، أنا أدور حول منزلها، ما شأنك؟

- لا شئ، عليك أن تذهب!

- سأذهب، هل أنا ضيف ثقيل؟

قال العجوز بصوت حزين:

- قسطنطينو، قسطنطينو!

قطف قسطنطينو عودًا من أعواد نبات الأسل وألقاها بعيدًا، ثم نظر بعيدًا. تغير وجهه كما حدث يوم عودته، بعد أن أغلق باب العم إيزيدورو ارتعشت ذقنه الصغيرة، وبلع عدة مرات لعابه المر الذي كان يملأ فمه، ثم قال:

- حسـنًا، لم يريـد الراهـب أيضًـا أن أرحـل؟ ألسـتُ أنـا زوج جوفانـا الحقيقـي؟ إن عـادت لي، ألسـتُ أنـا زوجهـا الحقيقـي؟

- إن عـادت إليـك يـا عزيـزي، قـد يقتلكـما برونتـو ديجـاس أو يسـجنكما.

- لا تخـف، فأنـا لاأريدهـا. هـي بالنسـبة لي امـرأة فقدتهـا. سـأذهب بعيـدًا وسـأتزوج امـرأة أخـرى.

همهم العجوز بصوت حاني:

- أنت لن تفعل ذلك لأنك مسيحي حق.

أجاب قسطنطينو كما لو كان متأثرًا بهذا الصوت الحاني:

- لن أفعل ذلك.

كـرر العجـوز بصـوت حزيـن حيـث أن هـذا الحكيـم المتواضـع تذكـر تجربتـه القديمـة:

- أنت لن تفعل ذلك، أنت لن تفعله، فأنت مسيحي حق.

- إن لم يفعل فليس فقط لأنه مسيحي حق...

الفصل السابع عشر

شهر يوليو، حل مساءٌ هادئ كوشاح أزرق كبير. كان قسطنطينو جالسًا على مقعد حجري ببيت صائد السمك، كان يعد على أصابعه غارقًا في التفكير.

نعم، فقد عاد منذ أربعة وستون يومًا، بدوا كأنهم أمس وكأنهم قرن في الوقت نفسه، وكان ثوب قسطنطينو المصنوع من الفستيان رثًا، ووجهه أسود تمامًا كقلبه، نعم، فقلبه أيضًا كان يبلى من يوم لآخر باستمرار بسبب مشاعر الألم والحقد والعاطفة. حتى أصبح أسودًا كشئ على وشك أن يفسد.

حمل معه من السجن عادة التظاهر، لم يكن يعرف السبب ولكنه لم يتطع إلى أن يثق في أحد، ولكن كان يشعر برغبة في ذلك وكان ما يبديه من تظاهر يزيد ألمه كثيرًا، ويحيط به فراغ كبير بارد تمامًا كبحر هادئ بلا شاطئ يحيط بغريق. منذ شهرين وهو يعوم في هذا البحر، والآن شعر بالتعب وخارت قواه، لم تعد روحه ترى الشاطئ عندما ينظر حوله في الأفق البعيدة الكئيبة، ولم ير نهاية لصراعه الذي لا جدوى منه، والتهمته المياه الباردة ودوامة الفراغ هذه رويدًا رويدًا..

كان يتحدث كل يوم عن الرحيل ولم يرحل قط. كان يتظاهر بذلك كغيرها من كل المرات الأخرى، فكان يشعر بأنه لن يرحل أبدًا. فلماذا يرحل؟ كان يرى الحياة نفسها سواء هنا أو هناك فيما وراء البحر، فكان لا يحب ولا يكره أحد وبدا له أنه أصبح وضيعًا كهؤلاء الذين تركهم في السجن، والعم إيزيريدورو الذي أحس تجاهه من بعيد بعاطفة كبيرة بدا له الآن من قريب بمرور الحياة اليومية المعتادة لا مبالي ومزعج،

وعندما كان العجوز بعيدًا مشغولاً في الصيد وفي رحلاته (حيث كان يسافر لبيع ما ينتجه من صناعاته الصغيرة) كان قسطنطينو يشعر بأنه تحرر من حِمل ثقيل وكانت الوصاية الأبوية للعجوز تُغضبه وتُخيفه.

ذات مساء لم يكن صائد السمك في البلدة، فشعر قسطنطينو تمامًا شعور الحرية هذا. حقًا، فها هو يستطيع أن يفعل كل ما يبدو ويحلو له دون أن يسمع وعظًا من أحد، دون أن يشعر ذلك الغضب أو الخوف الغريزي، فربما لا زال متأثرًا بحياة السجن ووجود العجوز كان يكفي لإيقاظها بداخله.

كان ينتظر امرأة، بدا له أنه يحتقر النساء وكان يشعر حقيقةً باشمئزاز من وجوده بالقرب منهم، ولكنه كان على صلة وثيقة بفتاة حمقاء بعض الشئ لا تسكن بعيدًا عن منزل جوفانا، وذات ليلة فاجئته هذه المرأة بالقرب من منزل عائلة ديجاس وأدخلته منزلها.

كانت تروي له كافة الأحاديث التي تدور بمنزل ديجاس. كان يذهب إليها وفي كل مرة كان يلمحه أحد يمر بجانب الفسحة أو ينتظرها في منزل إيزيدورو في غياب العجوز، ولكن كان يحتقرها كثيرًا ويتحدث عنها أحاديثًا غريبة.

حتى تلك الليلة التي جاءته فيها لم يتحرك من على مقعده الحجري مُتظاهرًا أنها ستجلس بجواره في الهواء الطلق. قال لها دون أن ينظر إليها:

- الجو حار بالداخل، وهناك براغيث وعناكب وشياطين. فلتبقي هنا في الهواء الطلق.

أجابت بصوت منخفض وغليظ:

- ولكن سيرونا!
- حسنًا حتى وإن رأونا، لا يهمني شيئًا، وأنتِ ماذا يهمك؟
- بل يهمني كثيرًا.
فرفع صوته قائلاً:
- ماذا يهمك إن رأكِ الرجال؟ إنهم جميعًا مُخطئين، والله ينظر إلى قلوبنا لا لأشكالنا.
قالت دون ان تتغير:
- لنذهب، فأنت قد ثَمِلت.

ثم دخلت إلى المنزل، وأشعلت المصباح، ثم نظرت في الدولاب، وبما أن قسطنطينو لم يدخل اتجهت إلى الباب وقالت:
- إن لم تأت سأذهب، انتبه فأود أن أقول لك شيئًا.
نهض قسطنطينو فجأة ودخل وعانقها، فشرعت في الضحك بجنون قائلةً:
- هاها، لقد أتيت، جعلتك تأتي على الفور أيها الخروف الأحمق. هاهاها

كانت طويلة وسمينة ذات رأس صغيرة ووجه صغير داكن جدًا ووجه أحمر، وعينين خضراوتين شاحبتين ولم تكن قبيحة مع أنها كانت مُقززة. لم تكن تشرب قط، ولكنها كانت تبدو دائمًا ثَمِلة، وكانت مقتنعة أن الجميع هكذا. واصلت الضحك ونظرت مرة أخرى الدولاب. ثم قالت:
- لا شئ، حقًا لا شئ. أتعلم أنني جائعة؟
- انتظري لحظة، سأذهب لأحضر شيئًا لكِ. ولكن يجب أن تقولي لي أولاً...
اتجهت خلفه، وبدأت تدفعه واضعةً يدها على صدره وبيدها الأخرى تعطيه لكمات مزاحية.

- أه، تريد أن تعرف أن... ، أتريد أن تعرف أيها التمساح؟ ولذلك دخلت فورًا؟ اذهب وعد للهواء الطلق أيها الخروف النحيف. أتريد أن تعرف؟ أتعتقد أن الأمر يتعلق بجوفانا إيرا؟ أنت دخلت لذلك ولم تدخل من أجلي.

أجابها ماسكًا بيدها:

- اتركيني، فأنتِ معاملتك قاسية. عذبكِ الله. نعم دخلت لهذا السبب. إذًا؟

- إذًا، لن أقل لك شيئًا.

قال بصوت عذب:

- يا ماتيا، لا تجعلني أغضب! أنتِ لستِ سيئة. الآن سأذهب سأذهب وأشتري ما تريديه. ماذا تريدين أن أشتري ؟ ماذا؟

كان يبدو كطفل يتظاهر بالطيبة ليحصل على ما يريد. وفي تلك اللحظة كان يرغب بشدة شيئًا مريرًا وقاسيًا، فكان يرغب أن يسمع خبر ضرب برونتو لجوفانا وأنها ردت له الإساءة وأن مصيبة كبيرة قد حدثت في بيت ديجاس. لم يشعر بالسعادة عندما قالت له ماتيا مُغمضًا عينها:

- لقد سرقوا منهم بعض الماشية بعد أن علموا بتلك المصيبة، ورحلت العجوز كالمجنونة لتتحقق من الخسارة. وهو يقضي الليل في الحظيرة وامرأتك بمفردها، أتفهم؟ بمفردها!

ثم قال:

- ما شأني؟

- يا أحمق يمكنك الذهاب إليها، إذًا فلن تذهب؟ جئت لأبلغك ذلك، فاذهب وهذا يسعدني لأنني أشعر بشفقة تجاهك، ففي النهاية أنت زوج.

قال رافعًا كتفيه:

- لست متزوجًا من أحد. ظننت أنكِ تريدين أن تقولي لي

شئ آخر. إذًا ماذا تريدين أن أشتري؟ فول ولبن ولحم خنزير وكريز.

أجابت ماتيا بصوتها المنخفض الغليظ المُذبذب الثَمِل:

- إذًا تزوجني إن لم تكن متزوجًا من أحد.

حاك قسطنطينو جبهته ثم بصق. بدا على عينيها الغامضتين الحمقاتين كعادتهما بصيصًا من الذكاء، وظهرت التجاعيد على جبهتها القصيرة. ثم قالت بصوت لاذع:

- لماذا تبصق؟ ربما هي أفضل مني؟

احمر خجلاً وغطى قناع الحزن قلبه وقال:

- أنتِ أسوأ أو أفضل منها.

- كيف؟

- إن لم تكذبي في هذه اللحظة، إن لم تأتِ لتنصبي لي فخًا بقولك أنها بمفردها ستكوني أفضل منها.

- لماذا يجب أن أنصب لك فخًا؟ أنا أشعر تجاهك بالشفقة. أقسم لك برأس من مات من أهلي أنك إن ذهبت لها هذا المساء لن تتعرض لأى خطر.

- من يصدقكم أيها النساء؟ أنتم لا تحترمون حتى الأموات.

أشارت ماتيا بالانصراف مُستاءة وغاضبة فأوقفها.

قالت باحتقار:

- كلب حقير! أنا أشعر تجاهك بالشفقة وأنت تهينني! ماذا لديك لتؤنبني عليه؟ إذًا فماذا؟

رفعت رأسها في خُيلاء كاشفةً عن جبهتها المجعدة، ونظرت إلى قسطنطينو بعينيها الصافيتين، يغمرهما الذكاء مرة أخرى. نظر إليها مُندهشًا من أن امرأة مثلها تتحدث هكذا رافعةً جبهتها، ومن جرأتها على الحديث معه بتلك الطريقة، ثم شرع في الضحك.

قال:

- سأذهب الآن، سأذهب وسأعود فورًا. سأُحضر أيضًا بعض الخمر حتى وإن لم تشربي. انتظريني، انتظريني.

ثم قال لها بقسوة عندما رآها تتبعه:

- لا تضايقيني.

وقفت خلف الباب، ثم خرج، وعندما سار خطوات قليلة سمع صوتها الغليظ يناديه، فعاد إلى الخلف حتى وصل إلى الباب المُوارب ورأى من فتحته المضيئة أنف ماتيا وعينها أصبحت مرة أخرى تنم عن حماقة.

- ماذا تريدين أيتها النعجة الحولاء؟

- إن كنت ستذهب إليها فلا جدوى من أن تجعلني أنتظر هنا.

سبها قسطنطينو بصوت صادق:

- اذهبي إلى الشيطان الذي أنجبك! أفكر في الذهاب إليها بقدر تفكيركِ في الذهاب إلى الكنيسة.

ثم صاح مادًا يده لكي يمسكها بشدة من أنفها ويشدها:

- انتظري انتظري!

فسحبت سريعًا وجهها وأغلقت الباب.

عاد قسطنطينو بعد عشرة دقائق، ولكنه لم يجد الفتاة الغريبة، فظن أنها مُختبئة بالخارج، فبحث عنها وناداها بصوت منخفض قائلاً لها أنه اشترى خبزًا ولحمًا وفاكهة، ولكنه أدرك أنها انصرفت. خيَم صمتٌ كبير حول المنزل وجاء الليل وهو بمفرده وأوراق التين السوداء تصدر حفيفًا غامضًا في خلفيتها الهواء عديم اللون، تبدو كأقمشة معدنية تحركها يد خفية. لم يُسمع شئ أخر ولم يُر سوى النجوم اللامعة تزين تلك الليلة الدافئة.

شعر قسطنطينو بأنه متناقض جدًا بعد اختفاء ماتيا، ماذا سيفعل بمفرده كالكلب بقية الليل؟ لم يكن يشعر بالنعاس، فقد راح في سُبات طويل أثناء فترة القيلولة ولم يكن يدري أين يذهب.

شرع قسطنطينو في الأكل والشرب، وكان يتحدث من حين لآخر بصوت مرتفع غاضب.

- إن اعتقدت أنني سأذهب إليها هل ستشعر بالنضارة؟

ثم خيم صمت.

- نضرة كزهرة الربيع. يا لها من مجنونة!

خيم مرة أخرى صمت على المكان.

- من ناحية أو من أخرى، ماتيا تثير اشمئزازي، فهي تبدو لي كحيوانية. هذا هو كل شئ.

ثم قام بالسباب، ثم ضحك ضحكة خفيفة وغامضة نضحكها عندما نكون بمفردنا. كان حينئذٍ يشرب طويلاً وفي كل مرة ينتهي فيها الكوب كان يُصدر صوتًا بشفتيه، ثم تعجب قائلاً (يا إلهي)، ثم قام بتمرير يده مرات عديدة على صدره مُستمتعًا بطعم الخمر الشهي في جوفه، ثم شعر بعد ذلك بالسعادة.

- لتذهب إلى الجحيم! لتذهب إلى الهلاك!

هكذا كان يقول من حين لآخر مُفكرًا في ماتيا وفي اختفائها الغريب، ولكنه كان يدرك أنه يفكر فيها بغضب لكي لا يفكر في الأخرى، ثم خرج واستلقى على المقعد الحجري واستسلم قليلاً لأفكاره. وكان يفكر:

- إنها وحيدة، حسنًا ما شأني؟ إنني أحتقرها ولن أذهب إليها حتى وإن أعطتني خزينة مليئة بالذهب، فماذا سأصنع بالذهب؟

تسائل هذا السؤال بحزن عميق، ثم سرعان ما شرع في الغناء حيث حدث له شئ يحدث له غالبًا، وتظاهر مع نفسه كما كان يتظاهر مع الأخرين.

قلبي، قلبٌ معشوق
ينتظرك كل يوم
عندما ستراني
ستُغني الحدأة

سرح قليلاً في صوتها الرتيب المنخفض، ولكن استأنف تفكيره:

- ماذا قد يحدث إن ذهبت إليها؟ ربما ستكون خطيئة؟ لستُ أنا زوجها؟ ولكنني لم أفكر في الذهاب إليها، ماذا؟ يُضحكني العم إيزيدورو هذا العجوز الأحمق. اذهب.. اذهب (هكذا كان يقلد بينه وبين نفسه صوت العجوز الجهوري). اذهب وإلا ستحدث مصائب، فبرونتو ديجاس قد يقتلك أو يسجنك. حسنًا وماذا أيضًا؟

واصل الغناء، وسُمع حفيف أوراق شجرة التين اللاذعة كصفائح الحديد القديمة كما لو كان يغني معه.

عندما ترى العنب
مثمر في يناير
عندما ترى راعي الخنازير
وهو يصطاد الخنازير

غيَر وضعه وأغلق جفنيه الثقيلين، وكانت رأسه تتأرجح قايلاً على كف يده التي كان تسند رأسها، ثم قال بصوت مرتفع:

- حسنًا، وماذا بعد؟

فتح عينيه كما لو كان خائفًا من صوته، ثم أغلقهما مرة

أخرى وتحدث بعذوبة بينه وبين نفسه:

- لا، لم أعد أريدها معي كزوجة لي، فهي بالنسبة لي زوجة فقدتها لقد تزوجت رجلاً آخر. فكما تزوجته، من الممكن أن تعود إلىَ ثم تذهب للزاوج من آخرين. إنها مثل ماتيا أود أن أبصق عليهما.

فتح عينيه مرة أخرى وبصق حقيقةً، فقد كان يشعر في تلك اللحظة باحتقاره لجوفانا على الرغم من أن الذكريات الحانية والقديمة لاحت بفكره في الوقت نفسه. تذكر قبلةً أعطاها يوم ما لزوجته بينما كانت نائمة ففتحت عينيها خائفةً بعض الشئ قائلةً "كنت أعتقد أنه شخص أخر".

ما هذه الحماقات التي يتذكرها الآن؟ لقد كان أحمقًا، لا شئ آخر سوى أحمق. ومن جانب آخر هل كان يعلم أتستقبله جوفانا أم أتغلق الباب في وجهه إن ذهب إليها؟

هاهو لم يكن رجلاً متطورًا أو شخص متمدن، ولكنه اعتقد وشعر في تلك اللحظة أنه أكثر الرجال ذكاءً. كان يأمل ألا تستقبله، فشعر بأنه لابد ألا يزال يعاني في الحياة، ولكن ماذا إن ذهب ولم تستقبله؟ ربما سيكون ذلك بمثابة شعاع الضوء يسقط في الفراغ البارد الذي يحيط به! أو ربما لا يزال يريدها منذ اليوم الذي افتقدها فيه حيث أنه تألم كضو يتالم ويأن، ولكنه يعيش وعليه ألا يزال على قيد الحياة، ولكن امتزجت رغبته هذه بأشياء روحانية، غريزة النفس الخالدة التي لا تنطفئ أبدًا حتى في نفوس الرجال المنحطين. فلا زال يحلم بامرأة مُخلصة تُدعى جوفانا اختفت للأبد من هذه الحياة الدنيا، ولكنها ستكون له في حياة الخلود. فإن خانت الآن وجها الثاني حتى ولو مع زوجها الأول لن تكون وفية. هكذا رأى قسطنطينو على الرغم من...

الساعة العشرة وهو لا يزال مُستلقي على المقعد منذ نصف ساعة إلى أن سمع نغمة حزينًا تُدوي في الهواء، لقد كان الشاب الأعمى يعزف من بعيد على الأكرديون ويغني معه صوت جهور، لكنه رتيب وحزين تمامًا كأغنية تُغنى للمتوفى الذي يستيقظ بالليل. بحنين كبير تمامًا كالذي يشعر به الأموات عندما يتذكرون ساعات الفرح القليلة في حياتهم حيث كان يبكي في الأغنية على تلك النغمات الحزينة وخصوصًا التي كانت كصوت شخص يلهث ويأن متمنيًا أن يرى النور والفرحة والسعادة وكافة الأشياء التي يدركها الكفيف ولكن لا يراها أو تلك التي تركها المتوفى ولن يجدها مرة أخرى بعد ذلك. ارتعد قسطنطينو ثم نهض.

ثم بدأت تبتعد الأغنية وهذه النغمات بعيدًا وبعيدًا حتى تلاشت.

شعر قسطنطينو بموجة من الحنان والاشتياق تغمر قلبه. ففي الظلام والصمت الرهيب والعُزلة الهائلة الذين كانوا يحيطون به، شعر باحتياج شديد كاحتياج الأعمى للنور وحنين المُتوفى إلى ما يتذكره من حياته. ثم انصرف.

في البداية بدا له أنه يسير في الحلم على الرغم من أنه كان يسمع جيدًا تحت قدميه حفيف أوراق القش الجافة التي حملتها الرياح حول منزل إيزيدورو. بينما كان يفكر بدا له أنه لمح أطواقًا بنفسجية كهربائية تدور ثم تتلاشي في الهواء، ثم لمحت عيناه التي اعتادت على الظلام بعد ذلك بقليل الطريق بوضوح والمنازل السوداء، في خلفية الأفق الفارغة التى تتراقص فيها النجوم كقطرات ذهب على وشك السقوط. بينما كان يسير في الطريق، كان يعرف بالفعل أين كان يريد الذهاب تحديدًا دون أن يتردد ولو للحظه واحدة.

هنا وهناك على أعتاب المنازل التي لم يسمح الفقر بإضاءة المصابيح فيها، جلست مجموعة من البشر تنعم بالهواء الطلق، ثم سُمع صوت أنثوي حاد يكسر هذا الصمت، يروي قصصًا قصيرة وحكايات وبؤس. ثم لمح قسطنطينو في ركن منعزل شخصين عاشقين، وعندما سمع الرجل صوت أقدام حاول أن يخفي المرأة التي أدارت وجهها تجاه الحائط.

مضى قسطنطينو قُدمًا وتابع السير، وليفزعهما كاد أن يصرخ قائلاً:

- سأذهب الآن لأخبر والدك بذلك.

ولكنه خشى من أن يصرخ أو أن يكشف عن نفسه، ثم تابع السير.

عندما رأى قسطنطينو شجرة اللوز الكثيفة السوداء الموجودة بالشارع خلف منزل العمة باكيزيا، خفق قلبه بشدة حيث بدا له أنه رأى شخصًا ذو رأس سوداء كبيرة غير مُصففة الشعر، كان ينتظره ويتجسس عليه من بعيد.

كان قد قرر أن يمضي قُدمًا عابرًا الشارع وأن يدخل منزل عائلة ديجاس حتى يرى جوفانا. بدا له كل ذلك يسيرًا وشعر أنه مُستعد لكل شئ على الرغم من خوفه، لقد كان ما يشعر به رُعبًا أكثر من كونه خوف. ثم سمع صوت خافت يقول:

- ما تقوله ليس صحيحًا...

نظر قسطنطينو حوله ولم ير أحدًا، ثم مضى قُدمًا، ولكن كانت كل خطوة يسيرها تزيد قلقه. عبر الشارع ورأى منزل العمة باكيزيا، ثم رأى البيت الأبيض وبيت ماتيا الذي كانت نافذته مضيئة، بينما كان كل شئ آخر مظلم. فكر مرة أخرى أن ماتيا ربما قد خدعته أو أن العمة باكيزيا موجودة عند

جوفانا أو أن جوفانا نائمة بالفعل ولن تفتح له الباب، ولكنه دخل بلا تردد رواق منزلها، فرأى على الفور جوفانا جالسة على عتبة الباب، وتعرَفت هى الأخرى فورًا على قسطنطينو، فنهضت على قدميها وتصلبت من الرعب، فطمأنها قسطنطينو بصوته الحذِر الحاني:

- لا تخافي. هل أنت بمفردك؟

- نعم!

وبعد ثانية، عانق كلاهما الآخر.

النهاية

obeikandl.com